



دعاء الفجر

تأليف حسين محمد القباني

الألف كتاب (١٤٣)



إشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (١٤٣)



تأليف

حسين محمد القباني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت : ٤٢٢٢٢

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

شكر

إلى الدكتورة سهير القلماوى استاذة الأدب
العربى بجامعة القاهرة التى شرفتنى بتزكية هذه القصة
للنشر فى سلسلة الألف كتاب

المؤلف

الإهداء

إلى ابنتي وقـــرة عيني . . حنـان

مقدمة

(١) وضعت هذه القصة ليقرأها الطلبة جميعاً فى مختلف معاهدهم الدراسية ، وليقرأها الآباء والأمهات وزوجات الأب ، ثم ليقرأها بعد ذلك غير هؤلاء وهؤلاء ...

ا) يقرأها الطلبة جميعاً ليروا فيها صوراً بسيطة واقعية لما تضطرب به مشاعرهم فى مختلف مراحل دراستهم ، وليجدوا فيها إجابة (غير مباشرة) عن بعض ما يعترض حياتهم من مشكلات ، لاسيما المشكلات الجنسية ...

ب) ويقرأها الطالب الذى حُرم عطف الوالدين أو أحدهما فيجد فيها عزاء وسلوى ونبراساً يهديه إلى طريق الحق والخير والنجاح ...

جـ) ويقرأها الطالب الذى ينعم بعطف والديه ورعايتهما فيشكر الله أن جنّبه فى أول مراحل حياته كثيراً من آلام الحياة . . فيكون شكره لله استقامة وصلاحا وبراً بالوالدين . .

د) ويقرأها الآباء والأمهات ليروا فيها مرآة ينعكس عليها ما يضطرب فى صدور ابنائهم وما تنفعل به نفوسهم فى كل مرحلة من مراحل النمو ...

هـ) ويقرأها الوالد الذى يفكر فى الانفصال عن أم أولاده أو الذى يعيش مع زوجة ليست أما لاولاده فيعرف ما يعانيه هؤلاء الأبناء من وراء ظهره . .

و) وتقرأها زوجة الأب . . . عسى أن تخفف بعض قسوتها وكراهيتها . . وعسى أن تعلم أن الحب أفضل من الكراهية فى النهاية ، وأن هذا الابن اليتيم الصغير الذى تعذبه سينمو ويصبح ذات يوم رجلا . . رجلا يذكر ما كان يلقاه فى طفولته من إساءة أو حنان ...

ز) ويقرأها غير هؤلاء وهؤلاء ليروا فيها تسجيلا دقيقاً لمشاعر الشباب وصوراً مختلفة لمظاهر الحياة الإجتماعية فى مصر خلال السنوات العشر الأخيرة . . .

المؤلف

الفصل الأول

(١)

تنبّهت من نومى – كما تعودت أن اتنبّـه فى ليال كثيرة – قبيل دعاء الفجر بلحظات .. فلما فتحت عينى وجدت الغرفة غارقة فى ظلمة كثيفة لا يَبيِن خلالها شىء، حتى شعرت كأنى فى مكان ليس له حدود. .. فبقيت مسترخيا فى فراشى وطفقتُ استعيد فى ذهنى هذا الحلم الذى تنبهت فى نهايته ...

فقد رأيت فيما يرى النائم أنى أسير فى طريق واسع – تحفه الظلمات من كل مكان ، وتبدو فى نهايته البعيدة أقباس من ضوء عجيب ، يسطع حينا ، وحينا يخبو ؛ يراه بعض السائرين فى الطريق، ولا يراه بعضهم الآخر .. وكنت أسير بينهم .. أترنح أحيانا ، وأمسح العرق عن جبينى ، وألهث بالتعب الشديد ، ثم أستريح وأنظرُ حولى فأرى كثيراً من الناس يسقطون ويختفون فى الظلمات: منهم من يبكى، ومنهم من يضحك ساخرا ، ومنهم من يبتسم فى رضى وطمأنينة وهو يبسط ذراعيه إلى اقباس النور البعيد .. البعيد

وكنت أحاول وأنا أسير أن أمد يدى إلى بعض الذين يكادون يسقطون .. وكنت أشعر أن هناك أيادىَ أخرى تحاول أن تُعينى

كلما أوشكت على السقوط . . وكنت أحس أن بجانبي شبحا غامضا . . شبح فتاة . . أو شبح امرأة ، يمدّنى بالقوة كلما دبّ إلى نفسى الضّعف ، ويمدنى بالأمن كلما ناوشتنى المخاوف .

وكنت أسمع — فى خلال هذا كله — ذلك الدعاء العذب الذى طالما سمعت مؤذن الفجر يردّده قبل الأذان الشرعى ، فتطرب له نفسى وتهدأ له روحى وتنثال به القوة فى بدنى .

وفجأة ألفيت نفسى أسير وحيدا : فليس بجانبي هذا الشبح الغامض الذى يمدنى بالقوة والأمن ، وليس يصل إلى سمعى هذا الدعاء الذى تطرب له نفسى وتهدأ له روحى ، ولم أعد أرى هذه الأقباس النورانية التى تبدو فى نهاية الطريق البعيدة . . البعيدة . فاذا بالظلام الكثيف يكتنفنى من كل ناحية ، وإذا أنا أتعثر ثم أسقط . ولكن الشبح الغامض الحانى يظهر فجأة إلى جانبي فيمد إلى يده ليعيننى على النهوض .

هذا هو الحلم الذى تنبهت من نومى على نهايته ، والذى من أجله بقيت فى فراشى مسترخياً أستعيده فى هدوء ، وأشعر أن ظلام الغرفة الذى يكتنفنى من كل مكان ، جزءٌ من ظلام هذا الطريق الذى رأيته فى الحلم ، وأن بجانبي — على فراشى — هذا الشبح الغامض الحانى . . شبح أمى التى الذى فقدتها قبل ذلك بعام . .

وانتظرت برهة ، وأرهفت السمع عسى أن أسمع هذا الدعاء العذب الذى طالما سمعته كلما تنبّهتُ قبيل أذان الفجر ، يرسله مؤذّن المسجد القريب، بصوته الذى يزيده سكون السحر عذوبة وجلاء . ثم عدتِ أصغى إلى صوت صنبور الماء فى المنزل عسى أن أسمع همهمة أبى بالتسبيح والحمد ، وهو يتهيأ للوضوء والتهجّد قبل صلاة الفجر .

فلما لم أسمع صوت هذا أو ذاك ، خُيل إلى أنى تنبهّت قبل موعد الفجر بكثير ، وأن السبب فى هذا هو نومى — لأول مرة فى حياتى — فى هذه الغرفة وحيــدا . . ليس إلى جانبى أمى التى فقدتها منذعام ،وليس إلى جانبِ أبى الذى تزوج فى هذه الليلة نفسها بسيدة أخرى . .

وتراءت فى مخيلتى صـور متتابعة لحياتى قبل وفاة أمى، وفيما بعدها حتى هذه الليلة التى تنبهت فيها ؛ وكانت من ليالى شهر أغسطس عام ١٩٣٧ .

كنت ـ قبل وفاة أمى بعامين ـ طفلا فى العاشرة من عمرى ، ينعم بما ينعم به أبناء صغار الموظفين من حب وعناية وعطف يعوّضهم كثيرا عن ترف الحياة المادية ... ولم يكن يشقينى غير هذه المنازعات التى كانت تعنف أحيانا إلى حد يروّعنى ويفزعنى

بين أمى وجدتى لأبى والتى كان أبى أكثر شقوة بها منى .. وأنا حتى هذه اللحظة لا أعرف أى الاثنتين كانت أظلم للأخرى .. ولكنى عرفت لأول مرة معنى الحيْـرة العنيفة ، والحزن الأليم يوم أقسمت جدتى باكية ألاّ تعيش مع أمى تحت سقف واحد . . .

وانتقلت أمى فى ذلك اليوم المشئوم إلى بيت زوج خالتها — سيدى الحاج — فى الطرف الأقصى من المدينة (مدينة « ب » بمديرية الدقهلية) . واعتلت صحتها بعد ذلك اعتلالا شديدا .. فكنت اقضى الليل نائما بجانبها أنعم بحنانها الدافق وهى تمسح على رأسى فى سكون الليل ، وتقبل جبينى فى دعاء وابتهال ؛ وأشقى كل الشقاء كلما تنبهت على صوت بكائها الخافت .. ولما ماتت جدتى ، كانت صحة أمى قد بلغت حداً جعلها أحوج إلى من يعنى بها ويرعاها ، لا أن تُعنى هى بى وبأبى .. فظلَّت فى بيت سيدى الحاج ، ناعمة برعايته ورعاية ابنته — خالتى شفيقة — التى كانت تربطها بأمى وشائج من الألفة والمحبة والوداد كأنهما شقيقتان.

وكنت أقضى نصف النهار فى مدرستى الابتدائية ، ونصفه الآخر مع أبى وجدتى ، أو لاعباً مع « أنسام » ابنة خالتى شفيقة ، التى كانت تصغرنى بعامين . . .

ولست أنسى فرحة أمى بى يوم هرعت إليها أزف لها بشرى نجاحى فى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية . . ولقد ظلت هـــذه الفرحة متألـّقة فى عينيها ووجههـــا حتى تـُوفـّيت بداء القلب بعد وفاة جدّتى بأشهر معدودة . . وكانت فى لحظاتها الأخيرة تضمنى اليها كأنها تخشى علىّ من صروف القدر وتغرق وجهى بدموعها وقبلاتها كأنما تتزود بذخيرة من حبٍ تبقى معها إلى يوم اللقاء . . . وكانت بين هذا وذاك تبتهل بالدعاء لى وتوصى أبى خيرابى . . .

وأقمت مع أبى عاما كاملا بعد وفاتها تقوم على خدمتنا سيدة فقيرة صالحة . وكانت أسعد لحظات حياتى خلال هذا العام ، هى التى أذهب فيها مع أبى لزيارة قبر أمى حاملين الزهور وسعف النخيل ، موزعين على الفقراء الفاكهة والنقود ، مرتلين معاً ماتيسر من آى الذكر الحكيم . . . فلطالما أوصتنى قبل وفاتها أن أعنى بحفظ آيات من القرآن الكريم لأرتلها على قبرها . كنت أسعد بهذه اللحظات برغم الدموع التى أذرفها ، وبرغم الحزن الذى تستتبعه الذكرى . . ولكن من الأحزان مايسعد النفس أحيانا . .

وكنت أسعد أيضا حين أنعم بعطف أبى وحنانه المضاعف . . حين أؤدى معه — برغم صغر سنى — صلاة الفجر فى سكون الليـــل . . ثم حين ألعب مع أنسام فى حديقة بيت سيدى

الحاج عصر كل خميس ... كانت عادة أبى التى شببت وأنا أراه عليها أن يمضى كل يوم قبيل الغروب إلى بيت صديقه الشيخ عبد الصمد .. شيخ الطرق الصوفية فى المنطقة ، حيث يجتمع بعض الصالحين من أهل المدينة فيؤدون معاً صلاة المغرب ثم العشاء ، ويقضون ساعتين أو ثلاثا فى ذكر الله وفى الإصغاء إلى آى الذكر الحكيم ، وفى دراسة بعض الشئون الدينية . . ولكنى رأيته فى الأشهر الأخيرة يخلف عادته هذه مرة كل أسبوع فيذهب إلى بيت صديقه محمود أفندى — وكان عجوزا محالا إلى المعاش — ويقضى سهرته معه . . وكان يصحبنى معه فى زياراته هذه .. وكنت أسر لهذه الزيارات كل السرور .. فقد كانت ابنة محمود أفندى — السيدة منيرة — ترحب بى أشد الترحيب . . وتجلسنى إلى جانبها وتقدم إلى فنونا من الحلوى والفاكهة ولا تفتأ تعابثنى وتتلطف معى حتى ألفتها بعد نفور ، وأحببتها بعد شعور غامض بالكراهية ...

ذلك أنها كانت صورة مختلفة كل الاختلاف عن أمى . . فهى أرملة بدينة حولاء العين سمراء البشرة ، لصوتها جرس يثير النفور لأول وهلة ، وتبدو فى عينيها أحيانا نظرات قاسية سوداء . .

السيدة منيرة هـــذه هى التى تزوج بها أبى فى تلك الليلة من ليالى شهر أغسطس عام ١٩٣٧ ، الليلة التى نمت فيها وحيداً لأول مرة فى حياتى ، والتى تنبهت قبيل فجرها بعد هذا الحلم الذى قصصته أول حديثى ، والتى رأيت فيها الغرفة ـ حين فتحت عينىّ ـ غارقة فى ظلمة كثيفة لا يبين خلالها شىء حتى شعرت كأنى فى مكان ليس له حدود ...

وانقطعت صور الذكريات فجأة ، حين ارتفع فى سكون الليل صوت مؤذن المسجد القريب وهو يردد فى نغمات عذبة فاتنة دعاء الفجر .

« يا . . رب . . يا أرحم الراحمين . . ارحمنا »

* *

(٢)

نهضتُ من فراشي وسعيت فى رفق إلى نافذة الغرفة ، ففتحت مصراعيها ورحت أملأ رئتى بهواء الفجر النق ، وأشبع روحى بدعاء الفجر العذب ، وأمتع عينى بالنظر الى الخلاء الساكن الممتد وراء المنزل ، والى صفحة السماء وقد بدا فيها لألاء رقيق من نور غير منظور كأنه ومضات من رحمة الله أجيب بها على دعاء مؤذن الفجر . .

وصور لى عقلى الناشىء ـ فقد كنت فى الثالثة عشره حينذاك ـ انى ارى ومضات هذا النور الرحيم يرسم فى السماء صورة وجه امى : وخيل إلى أنى أرى فى صفحة وجهها لمسات من حُزن واطيافا من دموع، وأنى أسمع صوتها الرقيق العذب يهمس لى أن أكون صابرا متجلدا بارا بأبى دائما ، مؤمناً بالله ورحمته . وتراجعت عن النافذة وقد أحسست بفيض من الأسى يغمرنى ويملأ عينى بالدموع . . فما رأيت أمى فى لفائف الخيال وأحلام اليقظة ورؤى المنام إلا باسمة هانئة مستبشرة . . . .

فماذا حدث ؟ ... أهى حزينة حقا ؟ . . أم أن وحدتى فى هذه الليلة قد جعلت خيالى يلون صورتها بألوان قاتمة ؟

. . . .

ونظرتُ الى الغرفة على النور الخافت الذى بدأ يتسلل اليها من

حيث لا أدرى . . كل شئ من المتاع فيها كان لأمى من قبل . السرير ذو العُمُد الأربعة السوداء . . وخزانة الثياب ذات المرآة المكسورة ، والأريكة القُطْنية التى تمزق نسيجها وبرز القطن من جوانبها ، والمقاعد الستة التى لا يصلح غير اثنين منها للجلوس ، ومنضدة الزينة التى جعلتها مكتبا استذكر عليه دروسى ، ثم صورتها الكبيرة فوقها . . صورتها وهى جالسة تبتسم وقد ضمتنى طفلا رضيعا الى صدرها . . .

وتوقفتْ عيناى على هذه الصورة ، فلما تقدّمت منها وحدقت فيها ، خُيل إلى مرة اخرى أن البسمة الهائئة قد تحولت الى لمسات من حزن وأطياف من دموع . . .

وتحولتُ عن الصورة أخيرا وأنا اتنهد . . ثم مضيت الى باب الغرفة ففتحته ووقفت فيه أتسمع . . كل شيء فى البيت ساكن هادئ . . فلا همهمة أبى بالحمد والتسبيح وهو يتهيأ لصلاة الفجر ، ولا صوته المتهدج وهو يصلى قانتا لله . . فنظرت الى باب الغرفة التى خُصّصت لنومه وعجبتُ . . فقد كانت تلك أول مرة يتخلف فيها أبى عن صلاة الفجر . ثم تحول عجبى الى إحساس من القلق . . تُرى هل تخلف أبى لأنه متعب أو مريض ؟

ونسيت هذا القلق برهة وأنا انظر الى اثاث غرفة المائدة

الجديدة . . فقد بيعت فى الايام السابقة مائدة الطعام القديمة ومقاعدها وجاءت السيدة منيرة بهذا الأثاث الذى يبدو فى عينى فاخراً ، وفى أعماق نفسى ثقيلا بغيضا . . وخيِّل إلى أن هذا البريق الذى ينبعث من الخشب المصقول وبللور الخزائن الثلاث عيون حولاء لأشباح غامضة تضمر لى السوء والشر ...

أما غرفة نوم أبى فقد جاءت اليها السيدة منيرة بفرش وثيرة لم تقع على مثلها عينى الافى بيت سيدى الحاج . . وكذلك غرفة الاستقبال التى تجاورها . . فقد اثثت بمقاعد وأرائك مذهبة الاطراف حريريه النسيج وثيرة الجنبات تتوسطها سجادة زاهية الألوان، عليها مناضد ثلاث من الخشب المزخرف المذهب والبللور...

ولم يكن فى هـذا البيت الذى وُلدت فيه وشببت غير هذه الغرف الثلاث وقاعة الطعام ، ودورة المياه طبعا . وكان إيجاره — بالنسبة للوقت الحاضر — ضئيلا جدا لا يتجاوز مائة قرش .. ولكن هذا المبلغ على ضآلته كانت له قيمته فى ذلك الوقت . . وحسبى أن اقول إن مرتب ابى حينذاك كان - كما علمتُ فيما بعد - لا يتجاوز ثمانية جنيهات بعد أن أمضى ثلاثين سنة كاتبا بالمحكمة الشرعية . . وكنا مع هذا نعيش فى رخاء نسبى ، ولكن أبى كان يبدى شكواه من حالته هذه بطريق غير مباشر — وذلك حين

يضع يده على كتفى ويقول لى :

— اتمنى يا ممدوح ان تتم دراستك وتصبح من ذوى المؤهلات حتى لا تحال الى المعاش ومرتبك ثمانية جنيهات ...

وفيما عدا هذا لا أذكر أنه تذمر أو شكا لغير الله . .

. . . .

وخطر لى أن امضى فأتوضأ وأصلى الفجر بمفردى ، ولكنى لم استطع . . فقد بدا لى انى قد أقلق أبى من نومه إن كان مُتْعباً ، وأن صلاة الفجر بدونه لا تقبل . ومَن ثم اغلقت الباب فى رفق ، وعدتُ الى فراشى فاستلقيت عليه ومضيت أفكر فى العام الدراسى الجديد الذى كان سيفتتح بعد أسابيع معدودة ، وفيما سألقاه فى هذا العام الثانى من دراستى الثانوية من شر أو خير . . ثم إذا بى أستغرق فى النوم فلا أصحو حتى غادر ابى البيت الى مقر وظيفته بالمحكمة الشرعية . . . .

*

(٢)

قالت لى السيدة منيرة وهى تضع لى قطعة من الجبن واخرى من الفطير على منضدة صغيرة فى غرفتى :

— لو أنك صحوت مبكرا لتناولت إفطارك معنا على هذه المائدة.

وأشارت بيدها الى المائدة المصقولة القوائم التى يغطى سطحها مفرش من المشمع الملون ، ثم استطردت : وعلى كل حال فإننا — بعد أيام قليلة — سنستعمل « الطبلية » للأكل .. فانها أدعى الى الراحة ، وحتى لا يتلف هذا المتاع الثمين .. كما تلف غيره ...

ثم أرسلتْ — ولا أدرى لماذا — ضحكة ساخرة ، وعادت تقول وأنا اجلس الى الطعام فى شىء من الاضطراب :

— وبهذه المناسبة يعجبنى أن تدعونى « نينا » ، فأنا الآن مكان والدتك ..

فغصَصْتُ باللقمة الأولى ، ولكنى استطعت أن اهز رأسى مجيبا . فقالت :

— وأنا لا يعجبنى ان يُجاب على حديثى بهزة الرأس ...

فتمتمت وقد توهج وجهى بحمرة الخجل :

— حاضر ... يا .... نينا ...

فانبسطت اساريرها فجأة وتلاشت من عينيها هذه النظرة القاسية وقالت :

— تعجبنى .. وبهذه المناسبة .. لقد نبّهت على أم صالح الخادمة بعدم الحضور منذ اليوم ..

فرفعت وجهى فى دهشة وقلت :

— ولكن ... من ...

— لا لكن .. ولا شئ .. إن ميزانية البيت لا تتحمل وجود خادمة .. وفى استطاعتك ان تشترى لنـــا ما نريد من السوق .. وستتعاون معا فى أعمال البيت حتى تفتح المدارس .. ما رأيك ؟

— عندك حق .. يا .. نينا ..

— تعجبنى .. إن لدينا الآن من الفطير ما يكفى لافطار الصباح لعدة أيام .. وعليك بعدها أن تبكر فى اليقظة لشراء المدمس ، فهو على رخصه « مسمار » البطن .. أما الشاى فى الصباح فلا داعى له ، لا سيما لمن كان فى مثـل سنك .. فانه مضر .. فما رأيك ؟

— أمرك .. يا .. نينا

— تعجبنى .. وبهذه المناسبة هناك أولاد اشرار يحبُّون إشاعة الوقيعة والفتن بين الناس ، أى يخبرون آباءهم بما يحدث فى البيت أثناء النهار ، وأنا لا أحب أن تكون من هؤلاء الاشرار ..

— حاضر ..

— لماذا لم تقل .. يا نينا ؟ ..

— حاضر .. يا نينا ..

ـــ تعجبنى . . كم يعطيك أبوك مصروفا فى اليوم ؟

ـــ نصف قرش . .

ـــ لقد تركه لك معى . . ولكنى أراه كثيرا عليك . . فالمال الكثير مفسدة للصبيان مثلك. لقد كان أبي يعطينى مليمين فى اليوم حين كنت فى مثل سنك . . وكنت أدخرهما لشراء المناديل المطرّزة والروائح ، وأنا اقترح أن تكتفى بمليمين فقط يوميا وتدخر الباقى معى لاشترى لك به ساعة فى نهاية العام ...

فنظرت اليها وأنا بين الحزن والفرح : الحزن لهذا النقص الخطير فى مصروفى اليومى ، والفرح لهذا اليوم الذى أخطر فيه بين أقرانى وفى معصمى ساعة . . ساعة حقيقية أنظر إليها بين دقيقة وأخرى لأتبيّن الوقت . فلما وافقت على اقتراحها هذا الأخير قالت : [ـــ تعجبنى .. انتظر .. لسوف آتى اليك بعنقود عنب اعجابا بطاعتك .. أنا مسرورة منك .] وبعد أن قدمت عنقود العنب إلى قالت :

ـــ بعد أن تفرغ من طعامك عليك الذهاب إلى الجزار لشراء رطل من اللحم الكندوز .

ـــ الكندوز ؟

نعم . . ألم تسمع بهذا الاسم ؟ إن لحم الضأن للمترفين لأصحاب الرواتب الكبيرة . لا . . لـ . . حسنا . . رطل من اللحم

الـكندوز على الحساب .. وأقة بطاطس بأربعة مليمات ، ورطل ونصف طماطم بمليمين ، وعليك أن تعجل بالعودة .. فاننافى يوم الأربعاء وهو يوم السوق .. وأريدك أن تمضى لشراء رطلين من السمن البلدى بسبعة قروش ، وعشرين قطعـة جبن « قريش » بقرشين .. هه ؟ ..

— حاضر .. يا .. نينا ..

— تعجبنى ..

*

(٤)

حملتُ سـلة المشتروات على ذراعى ، ووضعت النقود فى جيب جلبابى ، وغادرت المنزل — وكان يقع فى حارة لاتخلو طول النهار من زياط الصبية فيها — وانطلقت إلى شارع السويقة حيث محلات الجزارة والبقالة وباعة الخضر والفاكهة على الجانبين ... وكنت وأنا أسير استشعر بوادر الرضى؛ فما كان خروجى إلى السوق لشراء لوازم البيت يحزننى .. فكثيرا ما قمت بمثل هذا لأمى .. ولم يكن هذا « التعاون » فى أعمال البيت الذى أومأت إليه « نينا » فى حديثها معى يقلقنى .. فأكبر ظنى أن نصيبى فى هذا « التعاون » لن يعدو غسل بعض الصحاف والأكواب والأوانى عند الضرورة..

وهو على كل حال موقوت بانتهاء العطلة المدرسية . . .

ولكن مسألة الملّيمين كمصروف يومى — وقد كنت أرجو أن يضاعف المصروف ، لا أن يقل عند افتتاح المدارس — شَغَلتْ تفكيرى هى ومسألة انقطاع نصيبى من شاى الصباح . . وفيما أنا أفكر فى هاتين المشكلتين ، وأردد لنفسى بعض الحجج التى كنتُ أرجو أن أقنع بها «نينا» لتزيد المصروف ولتسمح لى بنصيبى من شاى الصباح ، إذا بصوت مألوف لدى يهتف ورائى :

— ها . . ممدوح . . انتظر . .

فلما التفتُ رأيت زميلى فى المدرسة «حسن ظاظا» يهرع نحوى بقامته الطويلة النحيلة ووجهه المعروق الضاوى الذى يتأرجح على عنق ضامر طويل .. وكان حسن هذا يكبرنى بعامين فقط ولكن من يراه يحسبه — لفرط طوله — فى العشرين من عمره..

أقبل على وهز يدى مسلما فى حرارة كاد ينخلع لها ذراعى وقال:

[- كيف حالك ياممدوح ؟.. أين انت ياأخى ؟.. كيف لم أرك فى خلال العطلة غير مرة ومرة ومرة ؟ ماذا فعل الزمان بك ؟ .. عزيزى . . عزيزى . . فقد رسبت فى الدور الثانى . . ولكننى سألحق بك وببقية «الأوباش» فى امتحان الثقافة.. وربما سبقتكم جميعاً.. وحّد الله . .

قلت باسماً : لا إله إلا الله . .

ــ معك خمسة قروش سلف ؟

ولم تدهشني هذه المفاجأة ، فقد كان حسن ظاظا من أشهر التلاميذ الذين اتخذوا استدانة النقود من زملائهم هدفا طول العام الدراسي ؛ وكان أيضاً من أحب التلاميذ إلى نفسي على الأقل، ولو كان معي هذا المبلغ لسلمته إليه بغير جدال .

قلت : إني لا أملك الآن غير . . .

ها . . أي شيء مقبول . . ولو أربعة قروش ونصف . .

ــ مليمين . . .

ــ اه . . . ؟

ــ مليمين . . .

ــ أتهزل ؟

ــ بل هو الحق . . .

فتراجع الى الوراء خطوة ، ثم راح يتأملني كأنما يراني لأول مرة أو كأنما يرى فيّ مخلوقا عجيباً شاذا . فلما صمدت باسما لنظراته الغامضة بصق ذات اليمين وذات الشمال ، وأشار بأصبعه وقال بلهجته الخطابية التي طالما أغرقت التلاميذ في الضحك :

ــ رَجُل . . رَجُل . . مثلك ، خُط شاربه الوحل ، ونبتت شعرات الزفت في ذقنه ، وتخشّن صوته ويمكنه الآن بشهادته أن

يكون موظفاً بثلاثة جنيهات ، ويمكنه بعد ثلاث سنين أن يتزوج ويصبح أبا لروضة أطفال ، يسير فى هذا الشارع الطويل العريض ..

ثم لوح بذراعه فى الهواء وقال .

— وفى جيبه مليمان ؟ ! .. تفوه ! ...

وكدت أضحك لدعابته ، ولكن ضحك غلامين - فى الطريق كانا واقفين ينظران إلينا - ، جعلنى أطرق برأسى فى خجل وغضب ثم أهم بمتابعة السير فى طريق ... غير أن حسن ظاظا تخلى فجأة عن مظهره الخطابى الساخر ، وأسرع إلى ، بعد أن أرسل نظرتين من نار إلى الغلامين فانطلقا يعدوان ، وانثنى بى إلى منعطف هادىء فى الطريق وقال .

— معذرة يا ممدوح .. يا أخى ، كنت كما تعرف أهزل معك .. إننى اليوم فى حاجة شديدة إلى عشرة قروش لأجعل منها فى آخر النهار خمسين قرشاً ، وحّد الله ..

— لا إله إلا الله ! عشرة قروش تجعل منها فى آخر النهار خمسين قرشا ؟ ! كيف ؟

— ليس لدى وقت لأسرد عليك تفاصيل المشروع .. لقد كنت أرجو أن أجد معك نصف رأس المال أو رُبعه أو خُمسه على الأقل ! ما رأيك لو أعود معك إلى البيت لتحضر إلى من والدتك قرشين ؟

فأطرقت وقلت فى همس : والدتى ؟ !

فأسرع يقول متأثراً : آه .. نسيت والله يامدوح !! وحدالله

فانجلت عنى غمرة الحزن سريعا وأنا أتمتم : لا إله إلا الله ..

وكان حسن — فى حياة والدتى — يدفعنى إليها بأعذار مختلفة لأعود إليه بما يريد من قروش .. فحينا يجعلنى أزعم لها أنه فقد بعض النقود ، وأنه يخشى أن « يقتله » أبوه — العامل الميكانيكى بمرأب « جراج » للسيارات ، وحينا يزعم أنه فقد كتابا ويخشى أن يخبر أباه بالأمر « فيقتله » .. وهكذا .. وكانت أمى لا تخيب رجائى من أجله ، فتدفع إلى فى كل مرة قرشا أو نصف قرش ، ثم تنصحنى أن أكون على حذر فى صحبته ..

ولما أخبرته بأمر « نينا » ومسألة المليمين ، وضع يده على كتفى فى عطف وقال .

— لا عليك .. إن فى كتبنا المدرسية القديمة متسعا للجميع ...

ثم استطرد شارحا عبارته بقوله :

— بعد أن تفرغ من الشراء سأعود معك إلى البيت .. وسأنتظرك فى الخلاء الواقع وراءه ، وعليك أن تشد كتابى القراءة الرشيدة والسندباد البحرى الإنجليزى فى خيط متين وتقذف بهما إلى . ولن أكون حاسين نون ظا ألف ظا الف إذا

لم أبعهما بخمسة قروش تعود إليك فى آخر النهار عشرة .. لأنك ساهمت فى المشروع ...

ووافقت على رأيه لسببين : أولا لأن الجدال معه لايجدى، وثانيا لأنه فتح أمامى سبيلا أعوض به مانقص من مصر وفى إذا احتاج الأمر إلى تعويض .. ولابد أن يحتاج .

وسار معى إلى الجزار فاشترينا — على الحساب الشهرى — رطل اللحم الكندوز ؛ واشترينا اقة البطاطس بأربعة مليمات واستطاع أن يشترى رطلا ونصف رطل من الطماطم بمليم واحد بدل مليمين . وقال :

— هأنذا قد وفرت لك مليما فى هذه الصفقة فأصبح مصروفك ثلاثة بدل اثنين ...

بل سأعود بالمليم الزائد الى « نينا » ، فهو من حساب المنزل ..

فبدأ على وجهه النفور الشديد ، وقال وهو يبصق ذات اليمين وذات الشمال :

— من علمك هذه الحذلقة ؟ إن مهارتى فى الشراء هى التى وفرت لك هذا المليم .. فكيف تزعم أنه من حساب المنزل . إنه من نصيبك .. لأنى متنازل لك عنه ..

فدفعته إليه وقلت : إليك هو .. حسما للجدال ...

قال وقد أبصر ببائع « بطاطة » يدفع عربته المحملة بها وبفرن صغير ، تتصاعد منه رائحة الثمار المشوية :

— هلم نضيف مليمى هذا إلى مليميك ونشترى رطلا من البطاطة المشوية . . فقد تاقت لها نفسى .

— إنى مكتظ بطعام الإفطار .. وليس لى بالبطاطة حاجة الآن .

ولكنه مع هذا تناول المليمين ، فاشترى رطلا ونصفا من البطاطة ، أعطانى النصف ، وراح يسير بجانبي وهو يزدرد نصيبه ازدرادا . . ثم قال وهو يمد يده إلى جزء مما تبقى من نصيبي :

— أما المشروع .. فعليك أن تكون فى ساحة السوق اليوم فى الثانية عشرة ظهراً .. تماما ، ولسوف تعرف كل شىء . . .

قلت : لسوف أكون . . . فإن نينا سترسلنى لشراء رطلين من السمن . . . ،

— والآن . . أسرع بنا إلى البيت ولا تنس أن تغلف الكتابين بورقة سميكة حتى لا يتمزق غلافاهما وأنت تقذفهما إلى .. وحد الله

— لا إله إلا الله . . .

(٥)

[كان نصيبي فى ذلك اليوم من «التعاون المنزلى» أن أجلس فى باب المطبخ لأقشر البطاطس . ولقد سَر « نينا » أن رأتنى أحسن تقشيرها بعد أن تعثرت فى الحبّتين الأولى والثانية .. ولولا أنها شرعت تغنى بصوتها الذى يؤذى السمع لطاب لى العمل وطابت الجلسة . . .

وصرفتُ ذهنى عن غنائها المروع بالتفكير فى «حسن ظاظا» هذا زميلى فى المدرسة . . فقد كنت أحسده وأرثى له فى آن واحد . . أحسده على طلاقته وجرأته و « شقاوته » وذلاقة لسانه وسعة حيلته ، وأرثى له حين ينتهى هذا كله إلى زراية وتحقير وسخرية وعقاب فى المدرسة وفى البيت . . فإذا كان فى كل فصل من الفصول المدرسية « عفريت » من التلاميذ . . . فقد كان حسن ظاظا « عفريت فصلنا » بل « عفريت » المدرسة كلها . . .

كانت له « عصبة » من التلاميذ الطوال ، كبار السن نسبيًّا ، يجتمعون حوله ، ويأتون بأمره ، وينفذون رغباته فى طاعة تدعو إلى العجب والدهشة . . وكانوا يتّخذون أماكنهم فى الفصل بالمقاعد الخلفية ، وكانوا دائمًا فى واد ، وبقية التلاميذ والمدرس فى واد آخر .. فهم يدبرون الخطط لمشروعاتهم المقبلة ، ويعلقون على ما بلغوه من نجاح أو فشل فى « خططهم » السابقة . . . وكان الشائع عنهم أنهم السبب المباشر فى اختفاء بعض الكتب

والكراسات وأوراق النشاف والأقـــلام من أدراج التلاميذ وأنهم وراء كل شغب يحدث فى المدرسة ، وما من إضراب — لأى سبب — إلا كان لهم فى حدوثه نصيب الأشد مع شركائهم من « عفاريت » الفصول الأخرى . . .

وكان « حسن ظاظا » متفرداً بينهم فى القدرة على الخطابة وفى حسن تدبير «المؤامرات» والمشروعات لزيادة « رأس المال » فى خزينتهم . . وإن أهل المدينة جميعاً لا يزالون يتحدثون عن هـذا الحادث الذى دبره (حسن ظاظا) ونفذه مع رفاقه . . فقد أغاروا على غرفة متسول مشهور بالمدينة واستطاعوا أن ينبشوا أرضها وأن يستخرجوا « صفيحة ماء » زاخرة بالملاليم والقروش وأن يفروا بالغنيمة قبل أن يدهمهم خفراء المركز . . ولقد اكتشفت السلطات الرسمية « صفائح » أخرى بالغرفة بلغ مافيها ثلاثة آلاف جنيه . . وضحكت المدينة كلها ، ولكن المتسول مات غما بعد ثلاثة أيام من الحادث . . .

وكان لحسن ظاظا مع مدرس اللغة الفرنسية وقائع « خفيفة » لايملك التلاميذ أنفسهم من الضحك منها فقد كان حسن يعمد — حين يأتى عليه الدور لإلقاء قطعة المحفوظات الفرنسية — إلى ترديد مجموعة منولوجات تبدأ بمنولوج « التلميذ العبيط » وتنتهى بآخر من تأليفه وتلحينه . . وبينما يبذل التلاميذ جهودهم ليكتموا

ضحكاتهم بالمناديل أو داخل أدراجهم ، يروح المدرس الفرنسى — وكان لا يحسن من العربية غير ألفاظ معدودة — يذرع ممرات الفصل جيئة وذهابا منصتا بإمعان ، لا تختلج فى وجهه عضلة واحدة . فإذا انتهى حسن من إلقائه السريع العجيب قال المدرس له: بَين **Bien** ، ثم يعطيه صفرا . .

ولقد ظل هذا الصفر وأمثاله فى المواد الأخرى ، يلاحق حسنا وعصبته إلى أن أوقع بهم فى امتحان الدور الأول ثم الثانى فى ذلك العام .

وانتهيت من مرحلة تفكيرى فى حسن ظاظا بانتهاء عملى فى خرط آخر قطعة من البطاطس . ولما كدت أنهض متنفساً الصعداء دفعت « نينا » إلى الطماطم لأعصرها ، ففعلت . ولما انتهيت منها ومن غسل بعض الأوانى ، ناولتنى عشرة قروش وقالت : (رطلين من السمن البلدى بسبعة قروش ، وعشرين قطعة جبن « قريش » بقرشين ، وعشر بيضات بالباقى . وعجل بالعودة قبل حضور أبيك من « الديوان » .

وانطلقت من البيت كالسهم فراراً من غنائها المروع ، ومن هذا « التعاون » المنزلى الذى ركبنى من حيث لا أدرى . فلما بلغت ساحة السوق العامة على كثب من محطة السكة الحديدية الحكومية ، كانت الشمس قد بلغت سمت الظهيرة . وكان القرويون الذين

جاءوا بمحصولات الريف لبيعها وشراء ما يلزمهم من منتجات المدينة ببعض ثمنها ، قد تفيأ واظلال أشجار قليلة فى الساحة وعلى جنبات الطريق المفضى إليها . . وكان يلذ لى دائما منظر السوق وما يموج فيه من حركة البيـــع والشراء ، وما يرتفع فيه من صخب ومساومة وضحك أو حديث .

وكان الرجال منهم يرتدون هذه الجلابيب الزرقاء المصنوعة من القطن ، ويغطون رءوسهم بطواق بيضاء من القطن أو سمراء من وبر الجمال ، ومنهم من يلتفح بمطرف من الحرير الصناعى أو من الصوف الرخيص ، ومنهم من ينتعل بحذاء ضخم أو « ببلغة » أو بالأرض ، ومنهم — وهم قليلون جداً — من يرتدى جلبابا من الكشمير ، يرفع ذيله بيده ، ليبدو قفطان « الشاهى » من تحته . أما النساء فأكثرهن يرتدين الثياب السود ، التى تصل أطرافها إلى الأرض ، وتثير وراءهن زوبعة من الغبار كلما سرن . وقليل منهن — وهن من نساء قرى مديرية الشرقية المتاخمة لحدود الدقهلية — يرتدين ثيابا سوداء تصل إلى ماتحت الركبتين بقليل ، وتبدو منها سراويل سوداء واسعة فضفاضة تتجمع بالرباط عند أعلى القدمين . . . وبعض النسوة من النوع الأول يرفعن أطرافا من أرديتهن لتبدو من تحتها ثياب ملونة براقة تكشف أحيانا عن خلخال من الفضة أو المعدن فى أقدامهن

وجميعهن بغير استثناء يغطين رءوسهن وجوانب من وجوههن بطرح سوداء من نسيج حريرى أو قطنى خفيف . وكن جميعاً يتحلَّين بفنون من الحلى ، رخيصة أو ثمينة : كأقراط نحاسية أوذهبية وأساور زجاجية أو عاجية وعقود من الكارم المصنوع أو الحر . .

وكان الباعة يجلسون متقاربين فى صفوف تحت الأشجار وقد تحلَّق حول كل منهم بعض المشترين . . وكان بالسوق كل مايخطر بالبال من منتجات الريف ، كالقمح والأذرة الخضراء والجافة والبقول على اختلاف أنواعها والدواجن والبيض والجبن والخضراوات والفاكهة والمنسوجات الصوفية اليدوية . أماباعة المواشى فقد كانت لهم حظائر خاصة فى جانب الساحة ، وأماباعة السمن فقد تحلقوا مع المشترين حول ميزان « القبان » يقوم علية كهل من سكان المدينة ، له على وزن كل رطل نصف قرش من البائع . وكانت ثمة سيدة فقيرة من سكان المدينة أيضا ، تتولى بيديها تفريغ السمن من قدور الباعة إلى أوعية المشترين ، وجزاؤها فى آخر الأمر بقايا السمن العالق بجدران القدور ، وقد تبلغ هذه البقايا رطلين كاملين . .

وكانت المقاهى الجوالة وباعة الطعوم المختلفة متناثرين هنا وهناك

فى أنحاء السوق .. وفى مقهى من هذه المقاهى لمحت « أبو على » الخولى فى عزبة سيدى الحاج .. وكان ابو على هـذا شابا متوسط الطول عريض المنكبين بادى القوة والفتوة ، ملتمع العينين ، غائر الوجنتين وكانت بينى وبينه مودة وألفة . فكثيرا ماصحبنى وأنسام إلى العزبة لقضاء يوم كامل يشرف علينا فيه ، ويسعدنا بأحاديثه وفكاهاته ، ويتحفنـــا بألوان من الشاى والفطائر والفاكهة . وكان العجيب فى أمره أنه يحسن القراءة دون الكتابة وكثيرا مارأيت فى جيبه رواية من هـذه الروايات الرخيصة التى تباع مستعملة بمليمين فى مكاتب المدينة .

وكان جالسا على الرصيف كغيره من زبائن المقهى يدخن فى « الجوزة » التبغ « المعسل » وأمامه قدح من الشاى الأسود . وكانت المقهى ـ كجميع مقاهى السوق ـ عبارة عن عربة « يد » عليها موقد الفحم وبقية الأدوات والأقداح والأوانى . وكان بجانب كل مقهى من هذا الصنف عادة مطعم متنقل ، عبارة عن امرأة عجوز أمامها موقد مشتغل بالكيروسين فوقه طاسة فيها زيت يغلى ، تقلى فيه ألوان وفنون من الباذنجان والفلافل و « السمك » .. وأضع السمك بين قوسين لأمر ما ...

ماإن رآنى « أبو على » حتى نهض وأسرع إلى ، ثم حيانى فى

حرارة وإخلاص وأمسك بيدى وأقسم أن يقدم لى قدح شاى ، كانت رأسى فى تلك الساعة قد بدأت تدور وتتصدع فعزوت دوارها إلى حرمانى من نصيبى من شاى الصباح . . فقد سمعت أبى مرة يعزو صداعا ألم به لهذا السبب . .

ولولا هذا الدوار الذى بدأ ينوشنى لما قبلت دعوة «ابو على» لشرب قدح من هذا الشاى الأسود . وفيما نحن جلوس نتحدث عن ذكريات آخر مرة زرت فيها العزبة سمعت هذا الحوار القصير يدور بين قرويَّين يتناولان « السمك على كثب منا :

قال الأول وهو يلوك الطعام فى فمه :

— إن هذا السمك « يلظ » جدا ياعواد . .

فقال الثانى وهو يمصمص بشفتيه :

— لأنه (جزل) بياض يابسطويسى . . .

وعندئذ رأيت «أبو على» يضحك خفيفا . فلما سألته عن سبب ضحكه مال على وهمس قائلا :

— هل تصدق أن « جزل » هذا البياض ليست إلا لباب قشر البطيخ مغموسة فى العجين الممزوج بالثوم والكزبرة ومقلية فى الزيت . . . ؟

« ٦ »

وقبل أن أعلق على حديث « أبو على » « عن » « جِزل » سمك البياض التى صنعت من « لباب قشر البطيخ » رأيت رجلا نحيلا طويلا معمّمًا بعمامة خضراء يرتدى جلبابا رماديا عليه معطف أسود ويضع على عينيه نظارة شمس ذات زجاج أخضر ، وتنبت فى ذقنه لحية سوداء فى حجم قبضة اليد . . .

نظرت إلى هذا الرجل وقد خيل لى أنى رأيته من قبل .. أما أين أو متى فلم أذكر . . . ولكن تأرجُح رأسه على عنقه الضامر الطويل ذكّرنى بصديقى حسن ظاظا . . .

إعتلى هذا الرجل حجرا كبيرا فى جانب من السوق خال ، وتناول من حقيبة فى يده كوب ماء فارغا ثم قال فى لهجة خطابية وبصوت مرتفع وهو يرفع الكوب إلى أعلى :

— أيها الناس . أيها المسلمون . . . أيها الموحدون بالله من كل ملة ودين . . تعالوا إلى . . تعالوا لتروا أعجوبة الزمان ومعجزة العصر والأوان . . . هذا كوب فارغ سترونه الآن ملآناً . . . وحدُوا الله . . .

كنت أنظر إليه وأنصت إلى حديثه هذا وقد فغرت فمى دهشة وعجبا . . ذلك أنه لم يكن غير (حسن ظاظا) متنكراً فى هذه الثياب

وفى هذا السَّمْت . . بل لقد لمحت اثنين أو ثلاثة من (عصبته) المدرسية قد بدأوا يتَّجـُهون نحوه وهم يرتدون ثيابا قروية كاملة ، وكانوا يظهرون — بصوت مسموع — دهشتهم وعَجَبَهم ، وإعجابهم ، مما أغرى لفيفا من القرويين للتجمع حول صاحبنا . . .

ولما خفتَتْ همهمة المتجمعين وهم (يوّحدون الله) استطرد حسن فى خطابته :

— لقدفسد الحال وساء المآل وأصبح الناس بعضهم لبعض عدوّاً إلا من عصم الله .. وحدوا الله . فى هذه الساعة ، وفى هذه الأيام كثير من الناس يستعدّون لحج بيت الله الحرام . . وكثير من الناس يتوقون إلى حج بيت الله الحرام وزيارة مقام رسول الله الكريم... ولكنَّ كثيرا من الناس أيضا معهم من المال ما يعينهم على الحج ولا يحجون ومعهم من المال مايشترون به نفحات من أرض رسول الله ولا يشترون ، أولئك عليهم لعنة من الله وغضب إلى يوم يبعثون . . . وحدوا الله . . .

وتجمع حول حسن جمع غفير من الناس شاخصة أبصارهم إليه مهمهمة شفاههم بالتوحيد مهتزة رءوسهم ذات اليمين وذات الشمال سخطا على هؤلاء الذين يستطيعون الحج ولا يحجون .

وتناول حسن من حقيبته بضعة أشياء فى يده وقال مستطرداً

بعد حديث طويل :

— ولكنى جئت اليكم من أرض رسول الله أيها المسلمون . . أيها الموحدون من كل ملة ودين بأشياء قدسية فيها نفحات ربانية تشفى كل عليل وتروى ظمأ (الغليل) تؤدى إلى السعادة فى هذه الدار الفانية وإلى جنة النعيم فى الدار الباقية . . وحدوا الله . . .

وكانت همهمة « التوحيد » هذه المرة كالهدير الذى يسبق الرعد.

وعندئذ استطرد حسن بصوت مرتفع جدا :

— وحبا فى رسول الله . . وإكراما لأنبياء الله العظام . . إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، سأوزع عليكم هذه الأشياء القدسية والنفحات الربانية بالمجان . . لاتتزاحموا . . فكل سيأخذ نصيبه كاملا باذن الله . . وحدوا الله . . .

وفى دقائق معدودة تضاعف الجمع حتى لم يعد يبين من حسن غير رأسه وكتفيه وذراعيه اللذين كان يلوح بهما فى قوة وحماس ثم قال وهو يرفع بيده شيئاً دقيقا :

— هذا حجاب مكتوب بماء زمزم وفيه قطعة من أستار الكعبة والحرم بات ليلة كاملة على الحجر الأسود الكريم ، يشفى كل عليل ويهدى إلى أكرم سبيل . . وليس معى من هذا الحجاب غير مائة فقط . وحدوا الله وفيما كانت الأيدى ترتفع وكل يريد

أن يظفر بالحجاب قال حسن وقد تناول شيئا آخر . .

— مهلا . . مهلا . . إنكم لم تروا بعد شيئاً . . فهذه أيضا ورقه كحل من المدينة المنورة تجلو النظر و تبعد عن العيون الضرر و . . .

وهكذا راح حسن يخرج من جعبته أشياء وأشياء . حتى بلغت خمسا : الحجاب وورقة الكحل ومسواك من نجد والحجاز وصيغة دعاء يتلى بعد كل صلاة فيضمن لقارئه الجنة وورقة « نشوق » من مدينة القدس تشفى البرد وتمنع « الزكام » ثم قال :

— كل هذا سيُوزع عليكم بالمجان حبا فى رسول الله واكراما لأنبياء الله العظام . إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ولكنْ منعاً للتزاحم والتضارب رأيت أن أوزعها بنصف قرش ، بخمسة مليمات . . . جميعاً بخمسة مليمات . . وهى التى لا تقدر بمال وأرجو الذين لا يحبون رسول الله ولا يريدن هذه الأشياء القدسية ذات النفحات الربانية أن يبعدوا و يفسحوا الطريق لأحباب الله ورسوله وأنبيائه وملائكته . . وحدوا الله .

وأخذ كثير من الناس يتزاحمون على الشراء ، ورأيت خمسة من « عصبته » التلاميذ المتنكرين فى ثياب قروية يلهبون حماسة الجميع بصياحهم وتزاحمهم للشراء .

وكان أبو على فى تلك اللحظة قد زاحم بين المتزاحمين، واستطاع

أن يشترى « الأشياء القدسية الخمسة » وأن يعود بها متهلل الوجه إلى حيث بقيت فى مكانى . ولم أملك نفسى أخيرا من الضحك عاليا فلما سألنى مشدوها عن سبب ضحكى قلت :

— إن هذا الشيخ ذا العمامة الخضراء ، هو زميلى فى المدرسة (حسن ظاظا) الذى رأيته معى ذات مرة فى العام الماضى .

(٧)

حين عدت إلى البيت أحمل السمن والجبن والبيض . وجدت أبى قد عاد قبل موعده بنصف ساعة . وكانت « نينا » تجهز مائدة الطعام بوجبة الغذاء فى خفة ونشاط لا يتفقان مع بدانتها . . وكان أبى يؤدى فى خلال هذا صلاة الظهر . . فما أن رأتنى « نينا » حتى حملت عنى ماجئت به وشرعت ترفرف حولى كالطائر فتساعدنى على غسل وجهى ويدى من غبار الطريق ووقدة الحر ولا تفتأ تردد على مسامعى بصوتها المرتفع ألفاظ الحب والعطف ...

وفوجئت بهذا التغيير العجيب الذى طرأ عليها . . وفوجئت على الأكثر حين رأيتها تختال فى ثوب حريرى طويل ، وقد كست وجهها الأسمر المنتفخ الأوداج بطبقة كثيفة من المساحيق والوان الزينة ! ودمّمت شفتيها الغليظتين بلون أحمر صارخ ، ولكنّ أنفها الطويل وعيناها الحولاوتان بقيت ثائرة على كل فن من

فنون الزينة وكل لون من ألوان التجميل ..

وأقبل أبى — بعد أن فرغ من الصلاة — ووضع يده على كتفى وربّت علىّ ، وقال بصوته الهادى الخافت :

— بورك فيك يا ممدوح .. إن « نينتك » مسرورة منك وراضية عنك .. بورك فيك ..

ثم شمر اكمام قفطانه وجلس إلى المائدة يتمتم بالبسملة وحمد الله ، وأقبلت « نينا » فجلست الى جواره وطلبت منى بصوت يسيل رقة وحنانا أن اجلس بجانبها هى .

وجلست وأنا لا أملك نفسى من المقارنة بين « نينا » هذه وأبى الجالس بجانبها من الناحية الأخرى : فبقدر ضخامة بدنها كان هو رقيق الجسم هادئ الصوت كأنه طيف .. وكان وجهه مضيئا بنور الايمان والرضا . وكان فى نظرات عينيه الواسعتين نبع من الحب والحنان لكل شىء فى الوجود . فما أذكر فى حياتى أنى سمعت كلمة نابية تند عنه مهما تكن الظروف — وما اذكر أنى رأيته يغضب غضبا شديدا إلا مرة . وما أذكر أنى سمعته يتحدث بالسوء عن أى شخص أو أى شىء . وما أذكر أنى رأيته يدخن أو يرتاد المقاهى ..

ذلك هو أبى ... وما أظن إلا أن كل فتى أو فتاة يرى أباه

على هـذا النحو . .

وكانت « نينا » لدهشتى الشديدة وارتباكى تزق الطعام الىّ كما يزق الطير أفراخه . ولقد أمعنت فى عنايتهـــا بى وصفاوتها لى ، واهتمامها بأمرى إمعانا جعل وجه أبى يشرق بالرضا ويتمتم بين لقمة وأخرى :

بورك فيك . . ولك . . هـذا من فضل ربى . . الحمد لله . .

أما انا فقد أذهلنى هـــذا كله عن نفسى حتى بدأت نوازع الريب والشك تنوش عقلى . . أهذه هى « نينا » نفسها التى جلست إلى فى الصباح تحدثنى بصوت منكر جعلنى أغصّ بالطعام بين الحين والآخر . أهذه هى « نينا » نفسها التى جعلتنى أجلس لأقشر البطاطس وأعصر الطماطم وأغسل الأوانى وأذهب إلى السوق فى وقدة الحر ! ! ؟

وقطع أبى افكارى هذه بقوله :

ـــ لقد قابلت اليوم الحاج عبدالرحيم فسأل عنك وطلب أن تزورهم اليوم .

فرفرف قلبى سرورا . . فقد مضى أكثر من أسبوعين لم أرد خلالهما بيت سيدى الحاج ولم أنعم بعطف ستى الحاجة ــ زوجته ــ وحنان خالتى شفيقة ــ ابنته ــ وصحبة أنسام ــ حفيدته ــ ومن

ثم قلت بصوت خافت لأخفى رنة السرور :

ــ سأذهب . . إذا . . سمحت « نينا »

فبدأ الرضا على وجه أبى ، وأشرق وجهها بابتسامة رائعة وهى تقول :

ــ تعجبنى . . آه . . أسمح جدا . . إذهب ياحبيبى وعد فى سلامة الله . . ولكن كن على حذر شديد من اخطار الطريق . . إلزم الطوار دائما . . ولا تجهد نفسك فى اللعب مع انسام . . فان صحتك أغلا شىء عندى . . وبهذه المناسبة . . ذكرنى لأعطيك قرشا قبل ذهابك . . هه . . فقلت وأنا اطرق برأسى فى دهشة بالغة :

ــ حاضر . . يانينا . . .

ــ تعجبنى . . .

. . . .

كان بيت سيدى الحاج ــ كما اسلفت القول ــ فى الطريق الأقصى من المدينة . . فى قطعة أرض واسعة كانت مزروعة من قبل ، ثم مُهِّدت وأقيمت فوقها «فيللات» لأهل الثراء من المدينة، يحيط بكل واحدة منها حديقة واسعة . فلما اقتربت من باب الحديقة رأيت سيدى الحاج بوجهه الصارم وملامحه القوية وعينيه النفاذتين، وشعره الأشيب ، وقامته الفارعة واقفا يتحدث مع الخولى «أبو على»

فلما لمحنى اختفت الصرامة عن وجهه فى بسمة رقيقة ثم أومأ إلى وقال وهو يضع كفه العريض فى رفق على رأسى :

ـــ هه كيف الحال ياممدوح . . مبسوط . . ؟

ـــ نعم ياسيدى الحاج .

ـــ عظيم . . عظيم . . خذ . .

ثم دس فى يدى بضعة قروش تناولتها فى هدوء . فقد كانت هذه عادته معى دائما . . ولما حاولت أن ارفض عطاءه، ذات مرة عرك أذنى عركاً شديداً . فى تلك اللحظة أسرعت أنسام اليناممتهللة الوجه ، فرحبت بى كما ترحب الصبية بشقيقها ، ورفيق طفولتها ، وقالت وهى تأخذ بيدى :

ـــ تعال ياممدوح . . تعال انظر كيف نبَتَتْ أعوادالقمح التى وضعتُ بذورها فى الأرض بيدى . .

فقال جدها لها :

ـــ دعيه يمضى أولا ليسلم على جدته وخالته . . فقد أوحشهما . .

وفى اثناء مرورى مع أنسام داخل ردهات البيت حيث غرفة ستى الحاجة وخالتى شفيقة رأيت الخادمة نفيسه ، وكانت عانسا فى نحو الأربعين تعلّق على صدرها حجابا من هذه الأحجبة التى كان حسن ظاظا يبيعها فى السوق ضمن « الاشياء القدسية » . وكانت بين

يديها ورقة الكحل تنظر فيها بعيون ملهوفة ووجه شاعت فيه حمرة الشباب المبعوث . . ولم يخالجني شك في أن الحجاب وورقة « الكحل » هدية ساخرة أهداها أبوعلى للفتاة المسكينة ليلهو بعواطفها المكبوته .

وأخفت الفتاة الورقه في طيات ثوبها وهي تسلم عليّ ثم اسرعت نافرة في خفة وخفر كأنها ارتدّت ربع قرن إلى الوراء . .

واستقبلتني « ستي الحاجة » في غرفتها الخاصة جالسة على الشلتة الوثيرة تشرب قهوة العصر . وكانت سيدة من نساء القرن الماضي يحف بها الوقار وتشع الرحمة من حديثها وايماءاتها ويبدوفي وجهها الغض هذا الهدوء الذى يَنُم عن روح صافية وقلب طاهر ونفسٍ لم تعرف السخط يوما . .

وأقبلت خالتي شفيقة بعد قليل . وكانت تشبه أمها في طهارة القلب وصفاء الروح ولكنً في وجهها الوادع لا سيما في عينيها السوداوتين يَلمح الناظر لونا من الحزن الرقيق الذى يزيد النفس سموا والروح صفاء والقلب طهرا . .

ولقد علمت فيما بعد أن هذا الحزن الرقيق الذى ظل جزءا من حياتها ، كان يرجع إلى مأساتها في الزواج . فقد كنت أسمع بين الحين والآخر — وفي أقوال متناثرة — أنها عاشت مع زوجها — وكان

شابا من أغنى أغنياء المدينة المجاورة ، ثلاثة أعوام لَقِيَتْ فيها لوانا من الحزن والشقاء . . ولقد اختفى هذا الزوج بعد أن بعثر ثروته على موائد الميسر وراقصات الملاهى وحانات الخمور ، وعادت خالتى شفيقة من هذه الغنيمة بابنتها أنسام ، فعكفت على تنشئتها والتماس العزاء والسلوى فى الحياة من قُربها ...

وبعد أن لقيت من عطفهما وحنانهما الشىء الكثير ، وبعد أن تناولت مع أنسام شيئاً مما قدما إلى من فاكهة وحلوى ، راحا يسألاننى عن زوجة أبى وعما قالت لى فى يومها وما قلت لها . فسردت عليهما مالقيت من عطفها — لاسيما عند طعام الغذاء — وأخفيت عنهما مادون ذلك . حيث أنى لم أكن نسيت حديث « نينا » فى الصباح عن الأولاد الأشقياء الذين يشيعون الفتنه والوقيعة بين الناس ، بِذِكْرِ ما يدور فى البيت أثناء النهار لهذا أو ذاك من الأقارب أو الغرباء .

ولقد سُرَّت خالتى شفيقة لحديثى ، فمسحت على رأسى وابتهلت الى الله أن يديم عطف « نينا » علىّ ، وأن يجازيها بالخير لما تصنع معى من خير . . اما « ستى الحاجة » ، فقد هزت رأسها ولم يبدُ على وجهها لمحات من سرور أو سمات من حزن ...

وصحبت أنسام بعد ذلك الى الحديقة الواسعة ، وشاركتها السرور لما وصلت اليه جهودها فى انبات حبات من القمح ، ورحت أرقبها فى غبطة ورضا وهى تدور باسمة متهللة حول أعواد الزرع الرقيقة المترنحة ، ثم وهى تلمسها فى رفق وتقبلها ، ثم وهى تحمل اليها الماء فى يدها وتنثره عليها وحولها لترويها .

لقد كانت انسام وهى فى الحادية عشر من عمرها مخلوقاً روحانيا جميلا لا تشبع العين من النظر اليه . فقد كان لونها فى تلك السن أبيضا مشرّباً بالحمرة كأجمل ورود الحديقة .. وكان وجهها المستدير ووجنتاها الممتلئتان وعيناها الواسعتان وانفها الدقيق وشفتاها الرقيقتان تفيض كلها بالحيوية المتوثبة ، وبالبراءة العذبة ، وبالبساطة المثيرة . وكان أجمل وأروع ما فيها نظراتها .. فقد كانت تُشْعِرُنى ـ حتى . وانا غلام ـ بجمال رجولتى بجانب سمو ضعفها ومن ثم تملأ النفس بأنبل المشاعر وأرقها واصفاها ...

ولما استنفدَتْ نشاطها فى العناية بأعواد القمح النامية أسرعت الى غرفتها ثم عادت تحمل كتبها الفرنسية الجديدة ـ فقد كانت تلميذة فى مدرسة الليسيه الفرنسية بالمدينة ـ وجلست بجانبي وراحت تتصفح الكتب واحداً بعد الآخر ، وتُطلعنى على ما تحتويه من صور جميلة ملونة وتقرأ بعض العبارات بصوت رقيق رحيم ، وبلهجة

فرنسية جهدت أن تكون سليمه .

قلت لها فى سياق الحديث :

— متى تنالين الشهادة الأبتدائية ؟

— فى العام التالى . . وأنت ؟ متى تنال شهادة البكالوريا .؟

فابتسمت وقلت ـ هُو ... هُو ... بعد أربعة اعوام اذا نجحت فى كل عام ...

فوضعت يدها على يدى فى رفق وقالت وهى ترفع وجهها الرقيق النبيل الى : .

— ستنجح ان شاء الله . . اننى وأمى وجدتى ندعو لك دائما بالخير والنجاح . .

وخفق قلبى لعبارتها هذه الرقيقة . . وشعرت أنى أكثر الناس أقارب واحبابا بهذه الاسرة التى ليس فى سماتها غير النبل والكرم . . فقد كان أبى ـ مثلى ـ وحيد أبويه . . وكان له أقارب متفرقين فى انحاء الوجه البحرى ولم يكن لأمى فى المدينة من أقارب غير أسرة سيدى الحاج هذه ولكنى ـ مع هذا ـ كنت أشعر بما ألقاه من عطف افرادها ومودتهم . أنى اكثر الناس أقاربا وأحبابا ...

فى خلال هذه الأسابيع الاخيرة من العطلة المدرسية كان «التعاون» المنزلى قد ازداد على كاهلى أضعافا مضاعفة، وازدادت معه قدرة «نينا» على الظهور بوجهين كل يوم .. وجه ظاهره الرحمة فهو يهش ويبش لى أمام والدى، ووجه مِنْ قِبَلِه العذاب فهو مكشر منفر منكر، يدفعنى الى هذا «التعاون» المنزلى دفعا شديدا عنيفا ....

وكان صوتها الذى عاد يجرح سمعى، يُلهبنى كالسياط وأنا أقوم فى البيت بالكنس ومسح البلاط وغَسْل الآوانى والاوعية وتحضير القهوة لها - عقب خروج ابى فى عصر كل يوم - وتقديم الحلوى والفاكهة و «الشربات» لزائراتها اللاتى كن يترددن عليها فى كل يوم عند الغروب.

وكان أشد ما يؤلمنى ويشقينى ألفاظها النابية التى كانت تسب بها أمى التى - فى رأيها - لم تعرف كيف تربينى ...

فلما أقبل يوم افتتاح المدارس، نهضت قبيل فجره نشطا خفيفا متوثبا ففتحت النافذة وملأت رئتى من هواء السحر المنعش وأصغيت بأذنى وقلبى الى هذا الدعاء العذب الذى يسبق آذان الفجر، ثم سارعت فتوضأت وشاركت أبى كالعادة، ثم عدت الى غرفتى وضاعفت من تلميع حذائى ومن تنظيف بذلتى وطربوشى.

ولم أملك نفسى من الاحساس بالحزن العميق كلما ذكرت أنى حرمت فى هذا العام من شراء طاقم ثياب جديدة ـ كما هو الشأن مع أكثر التلاميذ ـ.

ولقد تحول هذا الحزن الى خجل مرير حين التقيت فى طريق الى المدرسة بأنسام تسير مع تلميذتين من أترابها ، تتألق بينهما كالزهرة المتفتحة فى ثوب أبيض حريرى ، وقبعة جميلة وحذاء من جلد الشاموا الأبيض فلما لمحتنى اسرعت الى متهللة الوجه كعادتها وحيتنى قائلة :

ـ لماذا انقطعت عن زيارتنا يا ممدوح .. إن جدتى دائما تسأل عنك ...

فأطرقت بوجهى وتمتمت بكلمات مبهمة ثم انفلتُّ مسرعا ومضيت فى طريقى . . ذلك أنى خشيت أن ترى أنسام أطياف الدموع فى عينى ، كما كنت أخشى أن يلمح أهلها سمات الشقاء على وجهى إذا أنا كررت زيارتى لهم فى خلال تلك الاسابيع . . .

ولقـــد زارتنا خالتى شفيقة مره واحدة فى تلك الفترة ثم انقطعت عن الزيارة بعد أن استقبلتها منيرة فى برود ونفور واضحـــين . . .

ولـكن افتتاح الموسم الدراسى جعلنى آمل فى تخفيف «التعاون»

عن كنفى ، واطلاق بعض الحرية لى ، فيتاح لى ، ثمة زيارة بيت سيدى الحاج حيث أنعم فى ظل حنانهم بشىء من الراحة والرضى ، وحيث أسعد بلحظات فى صحبة أنسام .

وبدأت الدراسة فى اليوم الأولى كما تبدأفى كل عام فى شىء من الاضطراب والفوضى لايخلوان من مرح وتفاؤل واستبشار . . ثم استقر الامر فى منتصف الأسبوع فأحببنا بعض مدرسينا ، وألفنا بعضهم وأعجبنا ببعضهم الآخر . . وكان أكثرهم حظا من الاعجاب والحب معا مدرس شاب : كان إذا دخل « الفصل » ورأى التلاميذ يموجون بالثرثرة والعبث والفوضى وقف ساكنا وقد عقد ذراعيه على صدره ولاحت سمات الجد على وجهه ، فإذا الخجل يتسلل إلى نفوسنا وإذا بالضجة تهدأ وبالنفوس تستقر وبالسكون يخيم شيئا فشيئا ؛ حتى إذا انصرمت دقيقتان كان الفصل فى صمته وسكونه كأنه محراب عبادة . هذه ناحية إعجابنا به . أما ناحية حبنا له فمردها إلى طريقته فى القاء الدرس . . فقد كانت له موهبة توحى اليه بالفترات التى يشعر التلاميذ خـــلالها بالسأم الشديد الذى يغلف إذهانهم عن تلقى العلوم ، فإذا هو فى مثل هـــذه الفترات يطلق عبارة بارعة تثير الابتسام أو الضحك أو يقص خبرا مثيرا لطيفا ينفض عن النفوس سأمها وملامها ، وإذا

نحن التلاميذ نعاود الانصات إلى دَرسه حتى تنتهى « الحصة » ونحن لانريد أن تنتهى ...

وكنت فى بعض أيام الأسبوع التقى بأنسام وهى فى طريقها إلى المدرسة . وكانت فى كل مرة تسرع إلىّ متهلـّلة فتحيّينى بصوتها الرقيق الرخيم ووجهها البرىء الطاهر فتبعث فى نفسى طول اليوم إحساساً بالرضى والسعادة وتضاعف شهيتى إلى استيعاب الدروس وتزيد ذهنى تفتحاً وُتلهب رغبتى فى النجاح ...

وكنت إذا صحوتُ من نومى قبيل الفجر بلحظات،أظل راقداً مسترخياً فى فراشى ، وأطلق لخيالى العنان فأرى نفسى وقدأتممت دراستى العالية بنجاح ، وأن هذا النجاح المتواصل يرجع إلى طيف أمى الذى يراود أحلامى فى النوم واليقظة ، وإلى طيف آخر . . طيف له وجه أبيض مشرَّب بالحمرة والطهر ، وفى الوجه عينان واسعتان توحى نظراتهما بكل مافى الحياة من سمو وجمال ...

ولـكن هذه الأخيلة الناعمة ، وهذه الأمانى العذبة ، لم تلبث أن راحت تتحطم على صخور الواقع شيئا فشيئا خلال ذلك العام ...

لقد أمّلتُ أن يخف « التعاون » المنزلى عن كاهلى فى الموسم الدراسى ؛ فاذا أملى يخيب وإذا « نينا » تَحْرِص على أن أغسل الأوانى بعد طعام الافطار — وبعد خروج أبى إلى عمله — قبل

أن انطلق إلى المدرسة ، وإذا هى تحرص على أن أقوم بتنظيف المنزل ، عقب عودتى من المدرسة ، فأظل فى كنس ومسح وغسل للأوانى الخزفية والنحاسية — وبعض قطع الثياب أيضاً — وتقديم القهوة لها وغير القهوة لزائراتها ، حتى يسدل الليل أستاره ، فأجر ساقى جرا إلى غرفتى ، وأجلس منطويا على نفسى ، وقد راحت كل عضلة فى بدنى تئن بالألم والتعب .

وقبيل عودة أبى من الخارج بعد قضاء سهرته الدينية — كانت تلقى إلىّ بكسرة من الخبز وبعض ما تبقّ من طعام الغذاء : فأنظر إلى الخبز والأدام وأنا أشعر بالجوع ، ولكنى لفرط تعبى لا أجد شهية للأكل . فإذا أرغمت نفسى على ازدراد لقيمات معدودة ، حملت الباقى إلى المطبخ ثم أدّيت صلاة العشاء وأويت إلى فراشى وقد دارت رأسى وعجزت حتى عن التفكير ...

ولقد كان فى مقدورى أن أخبر أبى بما ألقى . ولكنه كان أيضا يعانى من تقلب نزواتها بعض ما أعانى . كانت لا تكفّ عن تعييره بضآلة مرتبه ، وبعجزه عن التماس عمل اضافى فى وقت الفراغ يزيد موارده . وكانت تهمل شئونه الخاصة . وفى أكثر الايام تنهض من نومها متجهمة الوجه مكشرة الانياب تلتمس أتفه الاسباب لتنفجر أمامنا بسيل لا ينقطع من الشتائم والسباب . حتى إذا

هدأت قليلا أسرعت إلى غرفتها باكية .

وكان أبى فى مثل هذه الحالات يغادر البيت وقد كسى الحزن والذهول والألم وجهه . وكنت أنا أسرع بعده إلى المدرسة قبل أن تخرج من غرفتها وتثير (كما كان يحدث غالبا) سببا لتقذفنى بما يقع تحت يدها حتى ولو كان مقعدا ...

وفضلا عن هذا كان حبى لأبى وبرّى به يمنعانى من مضاعفة آلامه وأحزانه باطلاعه على ما القاه من « نينا » من عناء وعنت .. ولهذا السبب نفسه كنت أتكلف أمامه المرح وأصطنع الرضا .

(٩)

انقضى هذا العام برسوبى فى الدورين الأول والثانى ... وما أظن أنى بكيت فى حياتى كما بكيت عند ظهور نتيجة الدور الثانى ، فى ذلك اليـــوم ... لقد ظللت الليل كله أذرف الدمع حيناً ، وأتقلب فى فراشى أحيانا ، حتى هدأت نفسى بسماع دعاء الفجر يتردد عذبا حانياً فى سكون الليل ...

وقبيل افتتاح العام الدراسى التالى كانت « نينا » قد انجبت طفلا سماه أبى « احمد » ، ولقد سعدت بأخى هذا الرضيع سعادة أنستنى مرارة الرسوب وقسوة « التعاون المنزلى » الذى تضاعف بولادته . لقد كنت أقضى اللحظات الطوال أنظر اليه وهو نائم فى

غرفتي ، فيخيـــل الى أنى أرى ملاكا صغيرا أرسلته السماء إلى ليمسح عن قلبي الاحزان وليملأ روحى بالأمن والطمأنينة والهدوء.

وكنت فى خلال النصف الأخير من العام الدراسى السابق قد انقطعت بأمر « نينا » عن زيارة بيت سيدى الحاج . ولكن مجيء أخى هذا من عالم الغيب خفف عنى كثيرا من لوعة الحرمان التى كانت تجيش بها نفسى ، كلما ذكرت أنسام ورقتها وعذوبتها ، وخالتى شفيقة بعطفها ، وصفاء نفسها ، وستى الحاجة بوقارها وحبها ، وسيدى الحاج بصرامة وجهه التى كانت تختفى حين يرانى ، « وأبو على » الخولى بفكاهاته وفلسفته الساذجة اللطيفة . .

وأخذت الأيام القليلة الباقية على افتتاح المدارس فى العام التالى تمر بطيئة ثقيلة ، تخفف من قسوتها بسمات أخى الرضيع وتعلقه بى واستكانته الى ذراعى . . فلما كان صباح اليوم الاول ، نهضت من فراشى خفيفا كما فعلت فى اليوم الاول من العام السابق المشئوم ، ورحت اصطنع الآمال اصطناعا ، وأوحى الى نفسى بأنى سأنجح فى النهاية بعد أن استوعبت أكثر مواد ذلك العـــام . . .

ولكنى نسيت هذه الآمال المصطنعة حين ارتديت نفس بدلة العام السابق . . فقد كنت ازددت طولا وانكمشت عرضا خلال

ذلك العام . . فأصبحت البذلة لاتناسبنى طولا أوعرضا . . ولو كنت أعلم ان موارد أبى لاتسمح لى بشراء اخرى جديدة لما كان ثمة مجال للحزن والأسى ولكن ماذا أقول وقد كانت «بينا» تشترى لنفسها فى كل بضعة أسابيع ثوباجديداوفى كل بضعة شهور سوارا من ذهب . . .

ومرة أخرى اصطنعت الرضاوأنا أنظر الى خيالى فى المرآة . . فقد كانت البذلة برغم قدمها وضيقها مقبولة الشكل نوعا . . وإذا لم تكن مقبولة فماذا كان بوسعى أن افعل ؟

ولما اشتريت « المدمس » وساعدت أبى فى تجهيز طعام الافطار (فقد كان ذلك دأبنا فى الشهور الأخيرة) جلسنا نتناوله فى صمت حزين . . وكان يخيل إلى بين لحظة وأخرى أن أبى يريد أن يفضى الى بشئ ، ولكنه يعدل عنه وهو يرسل نظرات مختلفة الى باب غرفة النوم . . .

وفتح هذا الباب فجأة وخرجت منه « نينا » تحمل أخى الرضيع الباكى بين يديها مشعثة الشعر مكفهرة الوجه تنتقل بنظراتها الحولاء من وجهى الى وجه أبى ثم قالت وهى تدفع أخى الى :

احمل اخاك حتى اغسل وجهى ويدى . . .

ولما اتخذت مكانها من «الطبلية» ارسلت إلى نظرة روعتنى وقالت :

ـــ ماهذه الثياب التى ترتديها ؟

فتنحنح أبى وقال وهو يحاول الابتسام :

ـــ ان افتتاح المدارس . . . اليوم . . .

فضربت « الطبلية » بيدها وقالت وصوتها يعلو ـــ مدارس . . ؟ هل سيقبلونه بالمجان ! ! فتردد أبى برهة قبل أن يقول بصوت يزداد هـــدوءا :

ـــ لا اعتقد . . ولكننا سنحاول . .

ـــ تحاول ! ؟ تعجبنى . . لاداعى للمحاولة . . انهم لن يقبلوه بحال وقد رسب . . ان المجانية بل التعليم هو للمجدين والمجتهدين والناجحين . لا للفاشلين والراسبين . . من أين ستدفع له مصروفات هـذا العام . . ! ؟

ولما لم يجب أبى بشيء . استطردت وصوتها يزداد حدة :

ـــ يعجبنى سكوتك . . فانت تعلم انك إذا انفقت على هذا الولد الفاشل نصف مرتبك فسوف أموت أنا وابنى جوعا . . ولكن ماذا يهمك مادمت تجد الطعام جاهزا ثلاث مرات فى اليوم . . !

فقال أبى متبسطا ـــ سأحاول جاهدا أن اظفر له بالمجانية . . ليس لنا سوى رضاك ، بورك فيك .

— رضاى . . ؟ تعجبنى . . لو كان رضاى يهمك فى قليل أو كثير لما رحت تعارضنى فى كل كلمة وفى كل رأى وفى كل شىء . . ثم لما حرمتنى من شراء سوار رابع . . .

فنظر أبى اليها مدهوشاً وتمتم — كيف حرمتك وأناأعطيك — — بورك فيك — كل مرتبى إلا قليلا جدا !

فضربت « الطبلية » مرة أخرى وصاحت :

— إسمع . . ولا كلمة واحدة . . إذا أصررت على ذهاب هذا الخائب الفاشل إلى المدرسة فسوف أجمع حوائجى وأحمل ابنى وأعود إلى بيت أبى . . فما عدت أطيق الحياة هنا . .

ورفعتُ عينى إلى أبى ، فتمزّق قلبى وأنا أرى نوازع الحزن والحيرة والغضب كلها تبدو واضحة فى وجهه . ولما خشيت أن يؤثر هذا كله فى صحته ، فقد كان مريضا فى تلك الفترة بضغط الدم ، تدخّلتُ فى الحديث وقلت وأنا أتكلف الابتسام ـ إن «نينا» على حق يا أبى . . سأبقى فى البيت وسأحاول استذكار دروسى فى وقت الفراغ . . وسأنجح بأذن الله لاسيما وأنى متمكن من أكثر المواد. وحلقت « نينا » إلىّ فى دهشة وعجب كأنما لا تصدق أنها ظفرت بالنصر سهلا إلى هذا الحد ، وأخيرا تمتمت .

— تعجبنى

ثم أقبلت على طعامها فى شهية ورضا ...

أما أبى فقد نهض ثم غادر البيت مسرعا دون أن يلفظ بكلمة واحدة . . وبعد برهة وجيزة نهضتُ بدورى وحملتُ أخى إلى غرفتى ورحت أنظر اليه بعيون غائمة بالدموع ، وطفقت أتأمله وهو يمتص أصبعه باسماً ويحملق فى وجهى راضيا ...

فى سبيل أخى هذا آليت على نفسى أن احتمل كل شىء حتى يشب فى رعاية أبى وحنان أمه .

(١٠)

تبينت بعد ثلاثة أشهر أن « نينا » كانت تنفذ خطة مرسومة لتحول بينى وبين الجلوس إلى كتبى وكراساتى ساعة أو بعض الساعة اثناء النهار . فما كنت أفرغ من أداء بعض الأعمال فى المنزل حتى توجد لى عملا آخر . . ولست أبالغ إذا قلت إنها كانت تجعلنى أغسل بعض الأوانى والصحاف والأوعية بضع مرات متوالية حتى « تطمئن » إلى نظافتها . . وإنها كانت تدفعنى لشراء الشىء الواحد مرة بعد الأخرى وهى فى كل مرة تعترض على الثمن أو الصنف أو الكمية . . ثم بلغ « التعاون » المنزلى اللعين ذروته حين علمتنى كيف أجلس إلى طشت الغسيل فأبرى أصابعى فى غسيل ثياب الأسرة و« لفافات » أخى الرضيع مرتين فى الأسبوع .

وكنت إذا جن الليل اسعى إلى غرفتى وأجلس إلى كتاب مفتوح أنظر فيه وأحاول عبثا أن أفهم شيئا . . واعتقد أنى ما كنت احتمل هذا كله لولا حبي لأبى وتعلقى بأخى الرضيع ...

وفى أثناء عودتى ذات يوم بعد العصر إلى البيت من السوق أحمل كيسا من الأرز ، رأيت لفيفا من الغلمان يلعبون كرة القدم فى جانب من أرض خلاء . ولست أدرى الدافع الذى جعلنى أقف فى ذلك اليوم لأنظر بعيون ملهوفة إلى الغلمان وهم يلعبون . فقد كنت فى تلك الشهور قد تعوّدت الانطواء على نفسى فى البيت ، والتهرّب ممن أعرف فى الخارج . . حتى لقد كنت أزوغ إذا لمحت من بعيد سيدى الحاج أو « أنسام » أو « أبو على » الخولى . . أما حسن ظاظا وزملاء الدراسة فقد كانوا ينظرون إلىّ وإلى رثاثة ملابسى وسمات الذلة الشائعة فى مظهرى بعيون ملؤها الاشفاق والرثاء والسخرية ...

وقفت فى ذلك اليوم أنظر إلى الغلمان وهم يلعبون بالكرة ويتحاورون ويتدافعون وقد توهجت وجوههم بدماء النشـــاط والصحة والانطلاق . فأحسست كأنى أخرج شيئا فشيئا من كهف مظلم رطب إلى حياة من النور والدفء . . ثم ذكرت فجأة تلك الايام التى كنت أسعد فيها باللعب مثلهم وأنعم بالتفوق على أقرانى فى هذه اللعبة بالذات . . .

ونظرتُ إلى شمس يناير وهى تنحدر نحو المغيب مرسلة من أشعتها المحسنة فيضا من النور والدفء . وعدت أنظر إلى الكرة وهى تتقاذف بين أرجل الغلمان ، ثم إذا بى أنسى « نينـــا » وما ينتظرنى على يدها من عقاب إذا تأخرت ، ثم اندفع إلى الساحة — حين رأيت غلاما يغادرها متعبا — ثم إذ أناأحل محله واشترك فى اللعب مع فريقه ، فأجول وأصول وقد انطلقت نفسى إلى مداها . فلما انتهى الشوط ، راعنى أن وجدت الشمس قدغابت وراء الافق وأنى قد تأخرت فى العودة ساعة كاملة . . .

ولقيت فى البيت ما كنت أتوقع من « نينا » . فقد انهالت على بالعبارات المقذعة أولا ثم بالضرب المتواصل حتى كلّ ذراعها وتحطمت العصا فى يدها ... ولكنى حرصت كعادتى فى مثل هذه الحالات ألاّ أذرف دمعة واحدة . . ذلك أنى كنت أدخر دموعى لأنثرها على قبر أمى كلما زرته — خلسة — مع أبى .

ومنذ أن لعبت هذه الساعة مع الغلمان ونعمت بها . برغم ما نالنى بعدها . أصبح النزال بينى وبين « نينا » حادّا عنيفا متصلا — فأنا أنتهز كل فرصة تسنح لى أثناء اليوم فأمضى وأمتع نفسى وجسدى ساعة وبعض ساعة فى اللعب — أى لعبى مع الغلمـــان أمثالى . . وكنت أعود فى كل مرة سعيدا راضيا موطن النفس على استقبال

« العلقة » مهما تكن دون أن أذرف دمعة واحدة

وَيبْدو أن هذه الحالة كانت تسعد « نينا » وتسعدنى فى آن واحد . . فقد كان كلانا يتمتع كل يوم بفترة هانئة . . أنا فى أثناء اللعب . . وهى فى اثناء الضرب . . سامحها الله . .

* * *

بيد أنّ متْعتى باللعب بدأت تهدأ وتتلاشى رويدا رويدا ، ثم يحل محلها إحساس طارىء غريب جعلنى أتوقف برهة كلما مررت بحديقة من حدائق المدينة الأربع . فأنظر إلى أزهار الربيع واستنشق عبيرها وكأنى أراها واستنشقها لأول مرة فى حياتى . . .

وبدأ وقوفى يطول شيئاً فشيئاً ، ونظراتى تدسع فتحيط — لا بالزهر وحده — وانما بأوراق الشجر الاخضر الجديد ، وبالطيور الصادحة الراقصة على الأفنان ، وبالماء الجارى فى القنوات وقد انعكست عليه أطياف من شمس الربيع ...

وكنت وأنا أرى الفتيات اللاعبات بين الشجر ، أنظر إليهن فى عجب وذهول كأنى أراهن أيضاً لأول مرة . . ثم بدأ هـذا الاحساس الجديد يسكب فى نفسى ألوانا من الحياة جديدة ويثير فى ذهنى أشتاتاً من خواطر جديدة ، ويعبث بأوتار صوتى فإذا هو يعمق ويخشوشن ، ويخصب منابت الشعر فى وجهى ، فإذا

بالشعيرات النافرات هنا وهناك تتكاثر ويشتد عودها ، ثم إذا هو — أى هذا الاحساس الجديد — يدفعنى دفعا قويا إلى شاطىء النيل كلما يتيسر لى الخروج من البيت وهناك أجلس فى بقعة ظليلة وأرسل بعينى إلى صفحة الماء الزرقاء ، وإلى السحب الخفيفة التى تشبه الغلائل الرقيقة على وجه السماء ، وإلى الزوارق وهى تجرى على الماء من شاطىء إلى شاطىء ، ثم إلى المزارع الممتدة إلى غاية البصر فى الناحية الأخرى . . .

وكان أكثر تفكيرى فى تلك الجلسات الحالمة يدور حول «أنسام» .. فكنت أشعر باللهفة إلى رؤياها ، ثم أتخيلها جالسة بجانبى واضعة يدها فى يدى تحدثنى بصوتها الرخيم ، وتنظر إلى بعينيها الريئتين وتخفف عنى بعض ما ألقاه فى حياتى مع « نينا » .

فإذا بلغتُ من تفكيرى هذه المرحلة انتفضتُ واقفاً ، وأسرعت لشراء ماطلب إلى شراؤه ، ثم هرولت إلى البيت وأنا موطن النفس على احتمال ما ينتظرنى من عقاب . . ولكن « نينا » كانت تكتفى فى تلك المرحلة من عقابى بعبارة قاسية مع صفعة أو ركلة أو «قرصة» يبقى أثرها داميا بضعة أيام .

وشاء القدر ذات يوم أن يضع فى يدى شيئا ينسينى أكثر ما أعانى ويخفف بعض الشىء من هذه المشاعر الجديدة التى راحت تنوشنى وتثقل على . . . ذلك أنى عثرتُ على شاطىء النيل برجل عجوز

يفترش أمامه عشرات من كتب القصص والروايات .. فلما سألته عن أثمان بعضها أخذتني الدهشة حين علمت أن ثمن الواحدة يتراوح بين مليمين وخمسة .. وأن قصة جزيرة الكنز المترجمة لايزيد ثمنها عن أربعة مليمات .. ولما كنت أحمل معى هذا المبلغ فقد دفعته إليه وأسرعت عائدا إلى البيت وأنا أخفى هذا «الكنز» فى طيات ثيابى ..

ودهشت «نينا» حين وجدتنى أعود بالمشتروات دون أن أتأخر كالعادة .. ومن ثم راحت تفحصنى بعينيها مليا حتى خشيت أن تنفذ نظراتها خلال ثوبى فترى ما أخفيه .. ولكن الله سلم ...

ولما أخفيت القصة فى خزانة ثيابى مضيت فى تأدية أعمالى المنزلية بشىء من الرضا والبشر غير قليل . ويبدو أن حالتى هذه غير العادية أثارت فى نفس «نينا» بعض الهواجس والشكوك فلم تلبث أن فاجأتنى بقولها :

— ما هى المسألة ... ؟

— أية مسألة ... ؟

— يعجبنى تباهلك .. أراك على غير عادتك اليوم .. هل جننت ؟

فرفعتُ عينى اليها فى انكسار ولم أدر كيف أجبت .. وعندئذ سمعنا وقع أقدام أبى وهمهمة تسبيحه وهو يصعد السلم إلى باب

المسكن فأسرعت تقول :

ـــ أسرع وغير ثيابك ريثما أجهز الطعام ..

فأسرعتُ أطيع أمرها ، فنضوت عني ثوب « التعاون » المنزلى المهلهل المبلل القذر ، وارتديت الثوب الوحيد السليم النظيف الذى كنت أرتديه دائما طالما أبى فى البيت .. وكنت أحمد « لنينا » سلوكها معى فى هـذا الشأن . . . فقد كنت أكره أن يرانى أبى فى ثوب مهلهل قذر ، فيزداد حزنا على حزن . . .

ولمـا انتهى الطعام وآوى كل من أبى و « نينا » إلى غرفتهما ليستريحا إلى موعد صلاة العصر ، أسرعتُ فغسلت آنية الطعام الفارغة ، ثم هرعتُ إلى غرفتى أحمـل أخى الرضيع وجلست بجانب الفراش ثم رحت أطالع القصة فى لذة وفهم ...

ونسيت خلال القراءة كل شئ ، وعشت ساعة هانئة مع بطل « القصة » الغلام ، وكأنما انتقلت الى عالم آخر بهيج ليس فيه « نينا » وليس فيه هذا « التعاون » المنزلى اللعين ..

وبلغت لهفتى على اتمام القصة حدا جعلنى أختلس القراءة فيها كلما فرغت من العمل فى البيت ولم يكن يُشقينى فى تلك اللحظات المختلسة إلاّ نداء « نينا » علىّ حينما يكون البطل الصغير معرّضاً للخطر أو ماضيا فى مغامرة جديدة ضد القراصنة .

ولكن حدث ذات يوم أنى كنت جالسا فى غرفتى ، وأخى الرضيع على ركبتى ، وأمامى رطلان من أعواد الملوخية الخضراء أقطف أوراقها . ثم خطر لى أنى استطيع القيام بهذا العمل ومتابعة القراءة فى القصة فى آن واحد .

ولما نفّذْتُ هذا الخاطر ومضيت اقرأ سطرا وأقطف ورقة إذا « بنينا » تفاجئنى ، وإذا هى تقف أمامى بجسمها البدين ويداها على خاصرتها وعيناها الحولاوتان ترسل علىّ شواظ من نار ، كدت أشعر بحرارتها المحْرقة . . فلما وجدت صوتها صاحت :

— تعجبنى . . تعجبنى . . تعجبنى . . إذنْ فهذا سرّ ما طرأ عليك . . اذن فلهذا أنت تفتح فمك دائما بالابتسام طول اليوم . . متى تعلمت قراءة الروايات ...

فانتفضتُ واقفـــا وقد افزعتنى المفاجأة ، بينما راح أخى الرضيع يحبو الى القصة التى سقطت من يدى ليعبث بها . . وقبل أن أقول شيئا أهوتْ « نينا » بكفها على وجهى بقوة جعلتنى أشعر كأن عينى طارت من محجرها ثم انحنت والتقطت القصه وراحت تمزّقها بعنف وهى تتمتم بألفاظ ... !

وقفتُ أمامها متوتّر الاعصاب مشدود العضلات أنظر اليها وهى تنثر أوراق القصة الغالية فى انحاء الغرفة ، ثم اذا بى أشعر

فجأة بالدماء تفور فى عروقى وتتصاعد الى رأسى وتغشّى عينى بظلال حمراء، واذا أنا أنظر الى نينا فأخالها وحشا مفترسا يوشك ان يطبق على ليقتلنى . . اذا لم أقتله ...

وتتابعت أنفاسى فى عنف ، وراحت أصابعى تنقبض وتنبسط فى حركات آلية ، وأحسست بفيض من القوة العنيفة يموج فى جسدى فلو كانت « نينا ؟ » مصنوعة من الحديد الصلب لمزقتها فى تلك اللحظة شر ممزق . .

ورفعت وجهها الى عندئذ ، ثم إذا هى تتراجع شاحبة منتفضة ، ثم اذا بغشاوة الدماء تنجاب عن عينى فأراها مرة أخرى « نينا » وليست وحشا مفترساً . . «نينا» التى أنجبت لى أخى الاصغر الذى كان جالسا عند قدمى يعبث فى سعادة بأعواد الملوخية ..

وأحنيت رأسى أخيرا ، وانثنيت فأخذت أخى بين يدى ، وتراجعتُ الى ركن من الغرفة وقد انهمرت الدموع من عينى ، ثم استبَدّ بى نشيجٌ لم أجد الى الخلاص منه سبيلا ...

وفى تلك اللحظة دق جرس الباب الخارجى فأسرعت « نينا » تفتحه وقد أغلقت باب غرفتى على بالمقبض دون المفتاح . ولشدة ما راعنى أنى سمعت صوت « نينا » المضطرب وهى ترحب فى برود شديدٍ بخالتى شفيقة وابنتها « انسام » ...

واستطعت بعد الجهد أن أخفِتَ صوت نشيجى وقد غمرتنى دهشة بالغة لحضور خالتى وابنتها « أنسام ». ذلك أن سيدى الحاج كان قد قاطع أبى لسبب لا أدريه ، وحرّم على أفراد أسرته زيارتنا .

وكان ذلك من بين الأسباب التى منعتنى من زيارة بيته تضامنا مع ابى ...

فماذا حدث ! ولماذا جاءت خالتى .. وأنسام على وجه الخصوص !!

وفيما انا أفكر فى هذا الأمر ، اذا بباب الغرفة يفتح ، واذا بأنسام تقف فيه برهة وقد شحب وجهها البرئ الجميل ، ثم اذا هى تهرع الى فتضمّنى الى صدرها فى حنان عجيب ذكرنى بأيام أمى ثم تتمتم وهى تمسح عن وجهى الدموع .

— أتبكى يا ممدوح .. لماذا . لماذا ... يارب .. أهذا ممكن ..

وعضضتُ على شفتى حتى لا أنفجر باكيا .. ثم حاولت ان ابتسم وانا اقول :

— لا شئ . لا شئ .. لقد كنت أشعر ..

— اسمع .. إن ماما قد تأتى لتراك حالا .. هل يمكن ان تحضر الى عزبة جدى بعد باكر ... يوم الاحد صباحا لتقضى معنا يوما

كاملا . . اذا لم تسمح « تيزة » لك فتعال خلسة . . ان والدك لن يغضب من زيارتك لنا . . لسوف اتصل به تليفونيا فى صباح اليوم نفسه وأخبره بوجودك معنا ...

وقبل أن أجيب بشئ اذا بخالتى شفيقة تقبل نحونا ومن وراءها «نينا» تكاد تنشق غيظا وثورة ونظرت خالتى الى فى دهشة بالغة ثم استدارت فى عنف الى « نينا » وقالت لها بصوت أدهشنى ما فيه من غضب وحدة

— اذا كنت تحسبين أن الله سيغفر لك ماتصنعينه بهذا اليتيم فأنت واهمة . . ان الله يمهل ولا يهمل . . وستعرفين يوما صدق كلماتى . . . وستندمين . .

ثم تناولت « ذراع » أنسام وانطلقت بها خارج المسكن . . اما « نينا » فقد اغلقت الباب وراءها فى عنف وهى تتمتم

— تشتمنى فى بيتى . . والله عال . . تعجبنى جرأتك ياست شفيقة . . .

(١١)

قضيت فترة غير قصيرة ليلة الاحد أتقلب فى فراشى مسهداً وكنت أفكر وأدبر فى الطريقة التى أتسلل بها من البيت فى الصباح فقدكان من المستحيل أن أمضى الى عزبة سيدى الحاج فى الجلباب

غير النظيف الذى لا يخلو من ترقيع هنا « وهناك » والذى كنت أرتديه فى شراء لوازم البيت . . وإذا أنا ارتديت بذلتى الوحيدة فكيف أتسلل بها و « لنينا » عيون تخترق الجدران وأنف يشم حتى خواطرى !!

وفيما أنا راقد أفكر وادبّر سمعت وقع أقدام أبى وهمهمة تسبيحه وهو يفتح باب المسكن ويدخل ويغلقه فى هدوء بالمفتاح والزتاج ثم إذا بى أسمع خطواته وهو يقترب من باب غرفتى فى هدوء ورفق ، ثم هـــو يفتح الباب ويسعى متمهلا الى فراشى ، وينظر الى وجهى طويلا وأنا مصطنع الاستغراق فى النوم حتى لقد شرعت أرسل غطيطا خفيفا .

وكدت أفقد زمام نفسى حين شعرت بيده تمسح على رأسى فى رفق شديد ، وحين سمعته يغمغم بدعاء يسأل الله به أن يحفظنى من السوء ، وأن يزيدنى أدبا وطاعة وتهذيبا ، وأن يعوضنى عن حرمانى من عطف الأم . . خيرا . .

ولما غادر الغرفة بخطوات هادئة ساكنة أحسست بدموع الحب والبر والاعزاز بأبى تملأ عينى . وادركت أنه كان يدّخر حبه وحنانه أثناء النهار ليفيض بها على فى ساعات الليل كلما سنحت له الفرصة .

ونمت فى تلك الليلة نوما هادئا تخللته أعذب الاحلام . . فلما

فتحت عيني اذا بى أسمع هذا الدعاء العذب الجميل الذى يسبق أذان الفجر والذى يرسله المؤذن بصوت رخيم مُفعم بالتقوى والخشوع . فخطر لى ن انهض فى تلك اللحظة الهادئة وأن ارتدى ثيابى اللائقة وأتسلل من البيت حين يكون أبى مشغولا بصلاة الفجر فى غرفة الاستقبال .

ووثبت من فراشى وأضأت المصباح الصغير وشرعت على نوره الخافت ارتدى ملابسى فلما فرغت ، وقفت امام المرآة انظر الى ملامح وجهى وأنا أدرك لأول مرة معنى القبح والجمال فى الوجوه . . وأذكر انى اعجبت فى تلك اللحظة بقسمات وجهى رغم مايشيع فيه من هزال وشحوب . . فلم أكن أعرف يومئذ ن كل انسان بملامح وجهه معجب .

كنت أرى فى شعرى القصير الجعد النافر شيئا من جمال وفى جبينى المرتفع الذى يشبه جبين أمى شيئاً من ذكاء . وفى أنفى الطويل البارز الذى يشبه انف « نينا » شيئا من ملاحه ! . وفى وجنتى الغائرتين مثل ابى وعنقى الغائر المعروق شيئا من الشاعرية والصفاء وانثنيت بعد ذلك افكر فى « انسام » كما رأيتها آخر مرة . . لقد نمت وترعرعت خلال عامين اثنين حتى بدت كاعباً حسناء فشب جسمها واستدار وامتلأ . . ولكن مظاهر الطهر ازدادت وضوحا فى قسمات وجهها وبقيت نظراتها كما كانت . . .

ولما أطمأننت إلى مظهرى العام فى البذلة والحذاء، واستواء شعرى النافر ، انتظرت حتى سمعت أبى يكبر لصلاة الفجر ثم تسللت من غرفتى وعالجت رتاج باب المسكن ومفتاح قفله بقدرما استطيع من هدوء ثم انطلقت خارج البيت وقد أحسست بنشوة لذيذة كأنى بطل مغامر فى قصة خيالية . . وسرت فى الشارع الهادىء متوجهاً إلى محطة (سكك حديد الدلتا) وأنا أحس كأنى ولدت فى هذه اللحظة من جديد ، وعرفت لأول مرة معنى الحرية . . فقد كان أمامى يوم كامل اصنع فيه ما اشاء فى حدود الاثنى عشر مليما التى كانت معى بعيدا عن جو « نينا » وعن « التعاون » المنزلى قبحه الله . . .

وبلغت بناء المحطة المتداعى واشتريت بخمسة مليمات تذكرة إلى القرية التى تقع فيها عزبة سيدى الحاج وكانت لاتبعد كثيرا عن المدينة،ثم ارتقيت احدى مركبات سكة حديد الدلتا وكانت لجميع المركبات عتيقة ذات نوافذ مفتوحة ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء . . يستقلها القرويون ذهابا وإيابا من الريف إلى المدينة مع دوابهم وأحمالهم وكأنما لافرق بين المركبة وبين عربات « الكارو »

ومرت ساعة والمركبة الخبيثة لاتتحرك ولا يبدو أنها ستتحرك حتى ارتفعت الشمس فى جبين النهار . وكلما سألت التذكرى عن

موعد قيام القاطرة بالمركبة نظر الى والى حفنة الركاب بها وقال وهو يعبث فى أسنانه بعود خلة.

— حين يأذن الله

وأذن الله ، أخيراً ، وتحركت المركبة يجرها قطار فى سرعة السلحفاة . .

---

(١٢)

لن أنسى أبداً منظر «أنسام» وهى واقفة مع «أبو على» الخولى بجانب ركوبتين ، وقد تفيئآ ظل شجرة قريبة من محطة القرية . . . ولن أنسى أبدا إشراق وجهها حين أسرعت الىّ بعد أن غادرت القطار تحيّينى وتقول :

— كدنا نيأس من حضورك .. هل وجدت صعوبة فى الإفلات من « تيزة » ؟ !

فقلت — لا . . مطلقاً

واستقل كل منا « ركوبته » ، وسار أبو على الخولى بيننا وبين المزارع الممتدة على الجانبين . . وكانت الرحلة جميلة ممتعة ونحن نسير بين المزارع الى دوار سيدى الحاج ... وكنا نقف بين الحين والآخر لنحيّى هذا الرجل وتلك القروية ، أو أولئك الصبية الذين يهرعون الينا باسمين . . . وكان « أبو على » يطرفنا كعادته بنوادره

وتعليقاته الساخرة وفلسفته العجيبة عن الفقر والفقراء وكان يشير إلى السماء وإلى المزارع وإلى الماء الجارى فى القنوات وإلى الطيور السابحة فى الفضاء ويقول إن هؤلاء جميعاً لا يشعرون به، ولا يحفلون بأمره لأنه فقير حقير ، لا فرق بينه وبين أحد الحمارين اللذين نركبهما ... وكان يتحدث بهذا فى لهجة تثير الضحك ، فاذا سأله أحدنا ماذا يكون شأن هؤلاء جميعا معه لو أتيح له حظ من ثراء قال وهو يختلس النظر الى وجه « أنسام »

— لسوف تبتسم السماء ... تبتسم فى وجهى دائماولسوف أفهم حديث الطيور الذى يسميه المتحذلقون تغريداً أوغناء ... ولسوف أسمع نجوى الماء لأعواد الزرع وأحاديث الهوى المتبادل بين النحل والزهر ، نعم ... إن المال يكشف عن العيون حجب الغيب فيرى صاحبه مالا يراه الفقير ويسمع ما لا يسمعه المحروم ...

فتقول «انسام» ضاحكة :

— ليس العيب منك وإنما من هذه الروايات التى تحفظ بعض صفحاتها عن ظهر قلب ...

ولكنى كنت برغم ما يتخلل حديثه من دعاية وهزل لا أملك نفسى من التفكير فى أمره .. فقد كان الجميع لا يعرفون اسمه الحقيق فاذا سألوه عنه ، ابتسم فى سخرية وقال « أنا ابو على . وابنى « على »

دهب ليفتح عكاء ويعود . . . ، فيضحك الناس ويهزون رؤوسهم متعجبين . . . فقد كانوا جميعاً يعلمون انه لم يتزوج ولا يفكر فى الزواج برغم قدرته عليه . . أما أصله ومنشأه ومن أين جاء ، فإن حداً لا يعرف شيئا عن هذا . ولكنه كان مع هذا كله محبوبا من الجميع لخفة روحه وأمانته وإخلاصه فى العمل مع سيدى الحاج . . .

ولما بلغنا الدوار، فوجئت بسيدى الحاج قائما فى حديقته . . . فما أن رآنى حتى اختفت كعادته صرامة وجهه ، وأقبل علىّ فاستدنانى منه واسبغ على كثيرا من عطفه . وراح يسألنى عن صحة ابى وحاله وعن « نينا » ومعاملتها لى وكنت أجيب على أسئلته كلها بعبارة واحدة أرددها « الحمد الله » وأخيرا نهض وأمر بطعام الغذاء ثم دس فى يدى قبضة من النقود . . .

وبرغم إحساسى بالجوع الشديد فقد جلست الى المائدة الحافلة بخيرات الريف فى شئ من الخجل والرهبة . وكنت أنظر الى الوان الطعام الشهى ، لا سيما الحمامة المحشوة التى وضعت أمامى ، وقد تنازعنى شعور وذكرى : شعور الجوع الذى يغرينى بالاقبال على هذه الألوان الفواحة والتهامها . . وذكرى نصائح أمى . حين كانت تقول لى إن واجب اللياقة وآداب الضيافة تلزم الضيف ان يكون عفوفا فى طعام المضيف ؛ يأكل منه بحساب ويقبل عليه

فى أناة وتؤدة مهما يكن احساسه بالجوع . . . .

ولما نهضت عن المائدة ومضيت لأغسل يدى وفمى وأكمل شبعى بجرعة ماء كبيرة ، لحقت «أنسام» بى وهمست لى — هل ستستريح بعد الظهر ؟

— لا ... لماذا ؟

— انتظرنى إذنْ تحت شجرة الجميز . . عند الترعة . .

نخفق قلبى فى عنف وقد خُيِّل الى انها تضرب لى موعد غرام . . بيد أنى حين نظرت إليهـــا مضطرم الوجه ألفيت فى نظرات عينيها الحالمتين المستضعفتين شرودا وأطيافا من حزن وحيرة . وقبل أن أومئ اليها استطردت تقول هامسة :

— أريد أن احدثك فى أمر مهم ... لا يجوز « لأبو على » أن يلم به ...

. . . .

ولمـا آوى سيدى الحاج إلى غرفته الخاصة عقب فراغه من الطعام ، أسرعت الى شجرة الجميز القائمة على ترعة واسعة تشق المزرعة . وجلست تحتها وأنا لا أملك نفسى من التفكير فى حديث « أنسام » الهامس . . .

كنت أتخيل أن «انسام» قدعرفت بعد أن تجاوزت الثالثة عشرة

بقليل معنى الحب والغزل وتحديد المواعيد . وكان خيالى هذا يُشقينى أكثر مما يسعدنى .. فقد كنت برغم حداثتى فى تلك الفترة انفر من الفتيات اللاتى يفتحن عيونهن أول ما يفتحن على الحب والغرام وضرب المواعيد ثم الجرأة فى هذا كله ...

على أنى لم ألبث أن طردت هـــذا الخيال السخيف وقد استبعدت ان تهبط أنسام التى ترعرعت فى جو من الطهر والعفاف الى هذا الدرك . . ثم خطر لى أنها ستحدثنى « بأمر هام » يتعلق بموقف « نينا » منهم . . . .

وأقبلت أخيرا . . أقبلت تسير الهوينا مطرقة الرأس مرتدية ثوبا وردى اللون طويلا يكاد يلمس العشب حول قدميها وفى شعرها الناعم المنساب على كتفيها شريط احمر وفى قدميها صندل انيق ملون .

وجلست الى جانبى فى صمت ثم تناولت عودا من القش وراحت تعبث به فى مياه الترعة ، واخيراً قالت :

ــ لقد عرفت . . منذ أسبوع فقط . . . أن أبى لم يمت وانه لا يزال حيا . . .

ثم رفعت عينيها الى وجهى واستطردت فجأة :

ــ يبدو فى سمات وجهك انك تعرف هذه الحقيقة ايضا . .

— ولما أومأت برأسي مجيبا وقد خذلنى الصوت ، قالت :

— وهل تعرف لماذا يعيش فى القاهرة شريدا ... معذبا ... يدور فى الطرقات مستجديا الناس بالغناء ؟ .

فنظرت اليها مدهوشا وأنا اردد عبارتها الأخيرة فى غير وعى :

— مستجدياً الناس ... « بالغناء » ؟

— نعم ... كنت فى عصر يوم السبت الماضى واقفة أقلم شجرة الورد القائمة تحت نافذة غرفة جدى ... ولم أملك نفسى من سماع جدى يقول للاوسطى ابو المعاطى الحلاق الذى كان يحلق له شعر رأسه فى تلك اللحظة :

— « ومن أدراك أنه هو ... زوج ابنتى ... ؟ ألا يحتمل ان يكون الامر قد تشابه عليك » ؟

فقال الأوسطى فى إصرار : — « كيف لا أعرف شاكر بك ياسيدى الحاج حتى وهو فى تلك الحالة ، على كل حال انى آسف .. حسبت الامر يهمك بصفته زوج السيدة ابنتك ووالد الآنسة « أنسام » حفيدتك ... »

« فبدا صوت جدى هادئا وهو يقول » — طبعاً ... طبعاً ... كيف لا يهمنى خبر كهذا ... ولكنى أطلب منك أن تكتم هذا الأمر ... كفى فضائح وآلام ... كيف حاله ! . ألم تتحسن ظروفه قليلا ؟

« فقال أبو المعاطى بلهجة الرجل الجدير بالثقة والائتمان على الاسرار .

« رأيته مصادفة وهو يسير فى الطريق بالقاهرة ، يغنى ويعزف على آلة خشبية تشبه الكمان .. ورأيت بعض الناس يضعون فى جيب سترته ما تيسر من المال دون أن يمد يديه اليهم .. ولا تؤاخذنى يا سيدى الحاج إذا قلت ان حالته لا تسر ... ولو .. »

وصمتت أنسام برهة وقد تهدج صوتها ... فلما هدأت ... استطردت تقول :

— لم استطع أن اسمع أكثر من هذا ... فقد أسرعت الى غرفتى وكدت أفقد نور عينى لكثرة ماذرفت من دموع ولما رأت أمى عينىّ المتورمتين بعد ذلك ... سألتنى عن سبب بكائى فلم أذكر لها حرفا مما سمعت ... وأظن انها حسبتنى أبكى من أجلك بعد الذى بلغنا عن حياتك مع « تيزة » فصحبتنى — من ثم — فى زيارتها لكم ...

وخيّم السكون علينا هنيهات .. وعبثا حاولت أن أجد الفاظا مناسبة أخفف بها الحزن عن «انسام» .. واخيرا قالت :

— لماذا يعيش ابى هكذا ... ؟ ماذا حدث له ولماذا لا يأتى ليقيم معنا .. لقد عرفت الآن سبب هذا الحزن الذى يشيع احيانا فى

وجه أمى ، ويعمق أحيانا فى عينيهـا ... وسر هذه الدموع التى تسكبها خلسة فى سكون الليل ... آه ... لو كنت ولدا ... اذن لمضيت الى القاهرة ، وقضيت الشهور والأعوام بحثا عن ابى .. أيمـكن ان يـكون للانسان أب ... ثم لا يعرفه ... ولا يسعد بأبوته ...

وعندئذ وضعت يدى على يدها فى رفق وقلت :

— إذا اتيح لى الذهاب الى العـاصمة يوما ... فإنى أعدك بالبحث عن والدك الـكريم ... وما أظن أنى سأجد صعوبة فى ذلك بعد أن رأيت مرارا صورته بين مجموعـــة الصور التى عندنا ... فأشرق وجهها وتمتمت :

إذن فليـكن هذا الأمر سراً بينى وبينك ... وانى لأشعر بالراحة الآن وقد افضيت لك بذات نفسى ...

وعندئذ رأينا « ابو على » الخولى مقبلا نحونا من بعيد ...

---

(١٣)

وقف ابو على أمامنا وفى عينيه نظرات متسائلة كأنما يقول لنا بافـكاره « بماذا تتحدثان فى هذه الخلوة »

ولما التفتُ الى انسام رأيتها تطرق فى حياء شديد كأنما سمعت

هى ايضا من نظرات الخولى صوت أفكاره . . . ؟

لكن شيئا مّا فى سمتنا ونظراتنا جعل بوادر الشك تنحسر عن وجهه الاسمر ثم اذا هو يبتسم ويقول :

— احضرت لكما الشاى والسكر ... فهلم الى دار أم خضرة . . . فنشربه هناك .

فتهلل وجه انسام ونهضت قائلة فى مرح وسرور

— تعال يا ممدوح . . . إن لأم خضرة طريقة لطيفة فى صنع الشاى ، فما ذقت فى حياتى اطيب مما تصنعه .

وسرنا معاً بين الحقول المتموجة ونسائم الأصيل الرقيق تداعب وجوهنا وشعرنا بلمسات ندية ناعمة ، ونور الشمس المائلة فى صفحة السماء يبهر أعيننا برقصاته اللامعة على اوراق الزرع ، وعلى صفحات الماء الجارى فى القنوات ؛ والطيور المتواثبة هنا وهناك تبعث إلى اسماعنا أغاريدها . وبين الحين والآخر يقطع السكون النسبى نعيق غراب أو ثغاة شاة أوخوار بقرة مختلطا كله مع أنين ساقية لاينقطع . . .

وكنتُ أشعر فى خلال مسيرى بين «أنسام» و «أبو على» الى الربوة التى تقع عليها دار أم خضرة ، بفيض عجيب من الهناءة وجمال الحياة ... وكثيراً ماخُيِّل الىّ فى تلك اللحظات أنى اعيش فى حلم

جميل ليس الى وصفه من سبيل ...

وبلغنا الربوة التى تقع فوقها الدار والتى يمتد وراءها — ناحية الشمال — طريق ضيق مغبر، تتفرع منه أزقة وحارات أشد ضيقا وغبرة، وتقوم على جانبيه وعلى جوانب ما يتفرع منه دور العمال الزراعيين متلاصقة حينا، متفرقة أحيانا، متنافرة فى الارتفاع والانخفاض، متوافقة فيما يعلوهامن أعواد «الحطب» وأقراص الوقود المصنوعة من روث الماشية

وكنت أرى من مكانى على الربوة صبية القرية، يلعبون ويتصايحون وكأنهم لفرط مايعلوهم من غبار قطع حية نبتت من هذه الأرض التى يلعبون فوقها ... وكان ثمة عذارى ونسوة يحملن جرار الماء ملآ الى دورهن أو فارغة منها، وغيرهن جالسات أمام الدور يحكن بعض الثياب أويتأملن الدواجن وهن ينبشن الأرض التماسا للحب، أو يعملن أصابعهن فى تنقية الغلال من الحصى استعدادا لطحنها ...

واستقبلتنا «أم خضرة» فى فناء دارها هذه القائمة بمفردها فى مدخل القرية، استقبالا حارا صادقا. وكانت جالسة مع ابنتها (خضرة) — وهى صبية ذات ملامح خلابة برغم شحوب وجهها وضعف بنيانها — تطهوان طعامهما فى قدرموضوعة على قطعتين من

الحجارة بينهما نارموقدة . . .

وكانت الدار كأكثر دور القرية ـ عبارة عن منزل صغير مشيّد بالطوب الأخضر « اللّبن » ، بابه قطعة من الخشب ساذجة الصنع ، يفضى الى فناء صغير حيث جلست الأم وابنتها تطهوان الطعام ، وعلى يمين الداخل باب ليس له عضادات خشبية يؤدى الى قاعة الفرن (وهى فى الشتاء قاعة النوم والفرن معا) وفى مواجهة الداخل درجات من الطين الجاف تؤدى الى سطح ، فى جانب منه الحطب والوقود ، وفى الجانب الآخر غرفة صغيرة ليس بها فى أغلب الاحيان أكثر من حصيرة ، تُبسط فى الليل وتطوى فى النهار ، وفى جدران الغرفة نافذة واحدة صغيرة وثغرات عميقة تحفظ فيها بعض الأدوات المنزلية البسيطة .

. . . .

قال أبو على وهو يتناول من جيوبه كيساً للشاى صغيرا وآخر للسكر كبيرا :

ـــ جئنا نشرب شايا من صنع يديك المبروكتين ياأم خضرة...

فأقسمت المرأة ـ وكانت عجوزا ملء وجهها الغضون ـ ألا تصنع الشاى حتى نشترك معها ومع ابنتها فى الطعام . وبعد أخذ ورد جلسنا الى « طبلية » كبيرة بجانب القدر ، ثم جعلت « خضرة » لى

ولأنسام صحنا كبيرا عميقا وآخر لها ولابنتها و « ابو على » . اما « مشنة » الخبز الرحراح اللين فكانت فى متناول الجميع ...

وكان الطعام عدسا مطبوخا بالطماطم والزبدة وجبنا طازجا وقطعا من الخيار المخلل فى اللبن .

وأشهد انى وجدت فى هذا الطعام متاعا غير يسير... ولاشك أنْ كان لجو المكان اثر كبير فقد اكلت بشهية سخِرتْ من كل تحفظ ، ووجدت للماء المعْين « ماء الطلمبات » طعما عذبا وأنا أكرعه من كوز نظيف ...

وفيما نحن نأكل كان إناء الشاى فوق النار يُسمع لغَلْىِ الماء فيه دمدمة وخرير . فلما فرغنا وحمدنا الله وشكرنا للعجوز كرمها ، عمدت هى الى الماء فوضعت فيه كمية من الشاى ثم رفعته عن النار وأحكمت غطاءه ودثرته بقطعة نسيج ، ثم راحت توزع مقادير اخرى من الشاى الجاف فى الاكواب الزجاجية الصغيرة . وأخيرا تناولت الابنة اناء الشاى وراحت تصب لكل منا فى كوبه الخاص ، مقدارا صغيرا يحسوه الشارب فى جرعتين او ثلاثة ، فإذا فرغ صبت له مقدار آخر وهكذا حتى يفرغ الاناء .

ولست أشك الآن أن صنع الشاى بهذه الطريقة التى كانت

تختلف عن الطرق المعتادة عند جمهرة الناس ، هى التى استهوت أنسام و « ابو على » . ولقد عرفت فيما بعد ان هذه الطريقة هى أفضل الطرق لصنع الشاى .

. . . .

ولما غادرنا دار أم خضرة «وقد كررنا لها الشكر» سرنا قليلا فوق الربوة ناحية الشرق . . . حتى إذا بلغنا موضعاً يشرف على مزرعة كبيرة للفاكهة ، وقفنا نتأمل اشجار البرتقال والليمون وقد خلت من الثمار ، وأشجار الموز وتكعيبات الكروم الممتدة على ارتفاع من الارض . . . وكانت مياه «الرياح التوفيق» تبدو فى نهاية المزرعة وقد انعكست عليها اطياف وردية راقصة من شمس الغروب . . .

أشار « ابو على » الى المزرعة الجميلة وقال :

ـــ لو اشترى سيدى الحاج هذه المزرعة لاتصلت ارضه عن طريقها بشاطئ الرياح التوفيق ، وأظن ان هذه أغلى أمنية عنده . . . ولكن صاحبها يوشك ان يبيعها للخواجة كورداس

فقلت ـــ الخواجة كورداس صاحب بنك التسليف . . . ؟

نعم . . . إنه يسلّف المال لصاحب هذه الأرض منذ سنوات . . . ويقال أن «البك» صاحبها ينفق فى القاهرة عشرين جنيها كل ليلة . . فليس من البعيد ان يظفر بها الخواجة آخر الامر . . .

فابتسمت «أنسام» وقالت :

— وهل من البعيد ان تظفر بها أنت يا ابو على ؟

فهز رأسه وبدت على وجهه بوادر الفلسفة وهو يقول :

— لا ... ولكن ...

— ولكنك فى هذه الحالة سترى السماء تبتسم لك وتسمع مالا يسمعه الفقير وترى مالا يراه المحروم وضحك أبو على عاليا وضحكنا معه ... ثم مضينا فى طريق العودة ...

. . . . . .

وكانت الشمس قد غابت تماما عند ما وقفت بينهما فى المحطة انتظر القطار ... فلما ارتفع عجيجه من بعيد قالت أنسام :

— ألا يمكن أن تأتى وتمضى يوما كهذا معنا كل اسبوع .

فقلت ـ هذا يتوقف على ماسيحدث الليلة من نينا ..

ثم عضضت شفتى نادما . حين رأيت الحزن يشيع فى وجه أنسام وهى تقول :

— آه ... لاشك أنها ... أنها ... هل ... يذهب ابو على معـــك ؟

فأسرعت أقول وقد خشيت أن تصر على اقتراحها فيرى ابو على مالايجب ان يراه من معاملة « نينا » لى

ـــ لاداعى ... شكراً ... اطمئنى ... ان الامر لايزيد عن تأنيب لفظى بسيط ....

وكان القطار فى تلك اللحظة قد توقف فى المحطة فاسرعت اليه بعد أن ودعتها ....

---

(١٤)

راحت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون وطار من نفسى كل شعور بالمتعة والبهجة فى ذلك اليوم وأنا اهبط من المركبة العتيقة وأغادر فناء المحطة ....

إحساس واحد ظل يدور فى نفسى كاعصار ملتهب ... ولعل هذا الاحساس هو بعض مايدور فى نفس المحكوم عليه بالموت حين يساق الى ساحة الاعدام ....

كنت أرى فى طريق كثيرا من شبان المدينة وبعض فتياتها يسيرون ذهابا وجيئة فى شارع « البلدية » المطل على النيل ... وكنت أنظر فى وجوههم الباسمة الراضية يستروحون نسائم المساء الرطيبة فأشعر كأنى اريد الاستغاثة بهم لينقذونى مما ينتظرنى فى البيت ...

وكان ثمة مشاعر مبهمة فى نفسى قد تبلورت وتوضحت وصارت

نداء هاتفا ملحا يهيب بى ان امضى الى بيت سيدى الحاج بالمدينة لائذاً بعطف خالتى شفيقة أوأن أفر الى أى مكان آخر . . . أو الى أى بلد . حيث التمس أى عمل أتعيش منه بعيدا عن « نينا » ...

خطر لى هذا كله ولكن للأسف الشديد لم يخطر ببالى أن أمضى الى أبى حيث يقضى سهرته فى بيت شيخ الطرق الصوفية بالمدينة فأبقى معه حتى أعود فى صحبته الى البيت . . . وليتنى فعلت

وأخيرا بلغت البيت . . . ورحت أنقل ساقى فوق الدرجات فى بطء وتثاقل وقد اضطربت نفسى اشد الاضطراب ... فلما وقفت امام باب المسكن خيل الى انى لن أستطيع ابداً دق الجرس ولكنى بعد الجهد العنيف استطعت . . .

وفتحت « نينا » الباب ثم وقفت أمامى تنظر الى وأنا مطرق برأسى ، أكاد أشعر بنظراتها وهى تنفذ فى جسدى فتلهبه ... ولما طالت وقفتها خيل الى انها ستغلق الباب فى وجهى وتأمرنى أن أمضى الى حيث كنت فلا أريها وجهى مرة أخرى ... ولكنها قالت — أخيرا جدا — بصوت هادىء . . . أزعجنى :

— تعجبنى . . .

ثم افسحت الطريق فدخلت منحنيا ، ومرقت مسرعا الى غرفتى وأنا أتوقع فى كل لحظة صفعاتها ولكماتها وغرز أسنانها

فى جسمى . ولكنى سمعت وأنا أمر أمام غرفة الاستقبال اصواتا نسائية وضحكات خفيفة فعلمت ان لديها — كالعادة فى مثل هذا الوقت كل يوم — بعض الزائرات ... وقبعت فى غرفتى وعينى على الباب فى انتظار دخولها وحسابها ... ثم بدأت نفسى تهدأ قليلا قليلا كلما مر الوقت . وأخيرا نهضت وخلعت ثيابى وارتديت جلباب «التعاون» المنزلى وتسللت الى المطبخ وشرعت أعمل بهمة وحماس فى غسل الأوعية المختلفة المتراكمة فيه ثم أنثنيت الى ثياب أخى الرضيع فغسلتها ونشرتها ثم ختمت هذا كله بمسح المطبخ ودورة المياه .

وكانت « نينا » ترانى وأنا أقوم بهذا كله فى اثناء خروجها ودخولها من غرفة الاستقبال واليها حاملة أكواب « الشربات » وصحاف الحلوى الى زائراتها . وكنت أرى فى هدوئها وسكينتها ما يبشر بليلة هادئة وعفو شامل ...

ولكن ما أن انصرفت الزائرات وخيم على البيت السكون حتى رأيت « نينا » تقبل على ، حيث جلست فى غرفتى ، وقد زمت شفتيها وعضت على نواجزها . فوقفت لها وأنا موطن النفس على احتمال أى عقاب مهما يشتد ، دون أن أذرف دمعة أو ارسل آهة :

ولشد ما دهشت حين رأيتها تضـع يدها على كتفى فى رفق تقول :

ــ إذن ... فقد كنت فى عزبة سيدك الحاج ؟

فلما أومأت برأسى مجيبا أردفت :

ــ تعجبنى ... وماذا أكلت هناك . . . ؟

فغمغمت لها ببعض اصناف الطعام فقالت

ــ ها . . . وماذا قال لك عنى . . . ؟

ــ لم يقل شيئا ... عن ... لقد حملنى سلامه اليك والى ابى ...

ــ تعجبنى . . . وماذا قلت له عنى . . . ؟

ــ ا . . . ا . . . لم أقل شيئا ... ابدا ...

ــ تعجبنى ... ولماذا لم تستأذنى فى الذهاب ؟ !

فلما ارتج على فى القول ، راحت تتراجع خطوة بعـد خطوة الى الوراء وقد رفعت يدها وأرسلت من عينيها نظرات محرقة . ولـكنى صحت بها صيحة عالية لتقف فى مكانها ... فوقفت فجأة مدهوشة مروعة وقد حسبت أنى فقدت عقلى . وعندئذ أشرت بأصبعى الى ما وراءها . . . فلما التفتت فى ذعر رأت أخى الرضيع يحبو وراءها دون أن تشعر به ... ولقـد كادت أثناء تراجعها للوثوب علىّ أن تدوس عليه ...

وندت عنها شهقة خافتة ، ثم أسرعت فانحنت والتقطته وحملته الى غرفة نومها . وتهالكت أنا على حافة فراشي وقد أحسست أنى نجوت ...

ولكنها لم تلبث ان عادت بوجه مربد وشفتين مرتعدتين وعينين جاحظتين مجنونتين وفى يدها عصا من الخيزران غليظة عجراء « ذات عقد »

ولم يخطر ببالى قط أن أراوغها أو أفر منها أو أقاومها . . . بل لم أفكر فى أن استغيث أو أبكى مستعطفا . وذلك حتى لا يسمع احد من الجيران ما يحدث لى فيخبر أبى فيزداد حزنه وشقوته . . .

وراحت « نينا » تنهال على بالعصا الغليظة العجراء فى قوة يوجهها الغضب المكبوت طول اليوم . وفجّرت الضربة الاولى الدماء من جانب وجهى ، وتركت الثانية اثرا داميا على ذراعى ، وراحت الدماء تسيل من اصابعى وظاهر يدى وساقى كلما أصابها جانب مدبب من العصا . وكان يخيل لى أنها فقدت عقلها تماما وهى تصيح بى أثناء الضرب :

ــ أحسبت نفسك رجلا تخرج وتعود كما تشاء بغير إذن ؟ تعجبنى . . . سأجعلك تعرف تماما أنك لازلت طفلا . . طفلا ذليلا صغيرا . . . لولا وجودى معك لكنت الآن من ابناء السبيل . . .

يعجبنى سكونك ... يعجبنى سكوتك . لن اتركك حتى تبكى ... تبكى ... إبك ... إبك ... ياابن — ولكنى لم أبك ... بل لم أرسل آهة واحدة ... بل شعرت أنى واياها فى حلبة صراع رهيب هى تريدنى ان ابكى وأصيح مستعطفا وأنا أتلذذ — رغم الألم المرير برؤيتها وهى تزداد غضبا وجنونا وثورة ... وزاد من صمودى امامها انى شعرت من فرط الألم بشبه إغماء ...

ولست ادرى إلى أى شيء كان سينتهى هذا الصراع العجيب بينى وبينها ، لو لم تفاجأ برؤية أبى واقفا فى باب الغرفة كأنه تمثال ليس فيه نظرة من حياة ...

— لقد جاء قبيل موعده لأنه كما ذكر لى فيما بعد شعر بتعب مفاجىء واحساس غامض جعله يهرع الى البيت ، وكان قد فتح الباب بمفتاحه الخاص ثم هاله صياح « نينا » ، ووقع ضربات العصا

وما أن رأته « نينا » حتى القت بالعصا بعيدا واسرعت الى ركن من الغرفة حيث القت بنفسها على الارض ثم انفجرت باكية وقد استبدت بها نوبة هستيرية عنيفة . أما أنا فقد بقيت فى مكانى واضعا وجهى المخضب بالدماء بين يدى لا أكاد أجرؤ على النظر إلى أبى . فقد شعرت أنى المذنب الوحيد فى كل ما حدث .

— وفجأة سمعت أبى يغمغم بصوت غريب متلعثم :

ــ يارب ... يارب ... رحمتك ...

فلما رفعت رأسى رأيته والألم يعتصر قلبى فيتهـــادى الى الأرض وقد حاول ان يلتمس بيد واحدة شيئا يعتمد عليه . فوثبت من مكانى اليه وأسرعت « نينا » معى فحملناه فيما بيننا الى فراشه وقد تفجرت ينابيع الدموع من عينى بعد أن رأيت فمه قد التوى حتى بلغ جانب وجهـه وأنفاسه تلهث متحشرجة وعينيه جاحظتين وعضلاته كلها متراخية .

وقالت « نينا » لى وهى تدفعنى خارج غرفته :

ــ اغسل وجهك ... واسرع باستدعاء الطبيب لقد اصيب ابوك بالشلل .

---

(١٥)

لما فرغ الطبيب ومساعده من فحص أبى واجراء الاسعافات الاولية له أقبل على حيث كنت جالسا فى ركن الغرفة واضعا رأسى بين يدى لا أكاد أفكر فى شئ لفرط ما أحسست به من حزن على ابى :

قال الطبيب لى وهو يشير الى جراح وجهى ويدى وساقى .

ــ ما سبب هذا ؟

فلما عدت الى إطراقى دون ان اجيب استطرد :

— والدك ... ؟

فهززت رأسى بقوة وقلت متمتما :

— لا ... ابدا ... لم يضربنى ابى مرة واحدة فى حياتى ..

— والدتك إذن ؟

— ليس لى أم

فنظر الى فى اشفاق وقد بدا عليه أنه أدرك كل شئ ... وبعد أن أمر مساعده باحضار ماء دافئ ، صب فيه سائل مطهر وراح يغسل جراحى ويلطفها بالمراهم ، ثم يضمدها وهو يغمغم بصوت ملؤه العطف والاشفاق :

— لا عليك يا ابنى ... فقد كان لى انا ايضا زوجة أب ...

— ولما فرغ نهض وربت على كتفى وقال .

— يحسن أن تنام فى هذه الغرفة مع أبيك ... ولسوف أعود فى الصباح ... ولكن اذا حدث ما يلزم عودتى فى أثناء الليل فاتصل بى تليفونيا ... هاك الرقم ...

وبعد أن غادرنا اسرعت فأحضرت فراشى وبسطته على أرض الغرفة بجوار سرير أبى ثم استلقيت عليه لأستريح قليلا وأفكر

طويلا فى قول الطبيب الكهل انه كان له ايضا زوجة أب وكان تفكيرى يدور حول هذا السؤال ...

« كيف استطاع أن يتم دراسته ويصبح طبيبا رغم حياته مع زوجة ابيه ؟ »

ولما عييت من اجابة هذا السؤال المحير ، تحولت بمشاعرى كلها الى ابى هذا الراقد على فراشه فى شبه غيبوبة ، ثم شرعت اتمتم بدعاء خافت حار لكى ينهض سليما معافى اذا أسفر الصباح ... وفيما انا كذلك رأيت باب الغرفة يفتح فى رفق ثم اذا « نينا » تدخل على أطراف قدميها وتسعى فى هدوء الى حيث يرقد أبى فتتأمل وجهه الشاحب برهة ثم تعود كما جاءت فى رفق وهدوء . وبعد قليل عادت مرة أخرى وهمست بصوت خافت :

— ممدوح ... هل انت يقظان ؟

— نعم ...

— تعجبنى ... اذا احتاج ابوك لشئ فانى فى غرفة الاستقبال واذا رغبت فى النوم فادعونى لاجل أحل محلك فى السهر عليه ...

وبقيت برهة لا أجيب ، فقد ادهشنى الى حد كبير ما كان فى صوتها من رقة وحنان وعطف وأخيرا قلت هامسا .

— حاضر .. يانينا

— تعجبني ....

ثم استدارت وسارت الى باب الغرفة ، ولكنها ترددت برهة ثم عادت وانحنت على ، ولمست جبيني فى وداعة وهمست :

— هل .. هل .. تتألم كثيرا من جراحك ياممدوح ... ؟

— لا .. ابدا ...

وعندئذ فوجئتُ بها وهى تزداد انحناء فتقبل رأسى وتقول بصوت فيه رنة البكاء :

— هل تسامحنى ... ؟

وقبل أن أجيب رأيتها تنهض وتسرع بمغادرة الغرفة وهى ترفع يدها الى عينها

لقد مسحت « نينا » فى لمسة واحدة من الحنان ، كل ما كنت أحمله لها من خوف وكراهية . بل لقد غمرتنى فى تلك اللحظة مشاعر من السعادة « والامل » فأحسست أن أمى قد بُعثتْ مرة أخرى فى هيئة « نينا » ، وأن الحياة ستطيب لى ولأبى بعد أن يشفى فى الصباح ، وأن « التعاون » المنزلى سيُرفع عن كاهلى ، فأجد متسعا من الوقت لاستذكار دروسى ، وربما سمحت « نينا » لى بالعودة الى المدرسة ...

وظلت هذه الآمال الجديدة تتفتح فى نفسى وتزدهر ، حتى

سمعت مؤذن الفجر يرسل الى سمعى المرهف والى قلبى الهانىء، هذا الدعاء العذب الجميل الذى طالما هز مشاعرى وأنعم روحى بالدعة والهدوء :

« يالطيف يامن شأنه كرم ... ياواحد ماله فى ملكه ثان »

وأغمضت عينى ورحت استغرق فى نوم هادىء وهذا الدعاء يتردد فى سمعى وقلبى ممزوجا بدعاء ينساب من كيانى كله الى الله لكى يشفى أبى اذا كان الصباح ...

ولكن الصباح أقبل بالطبيب ومساعده ، وبسيدى الحاج وبخالتى شفيقة وأنسام ، وبمحمود افندى والد « نينا » وببعض أصدقاء أبى وزملائه من الموظفين .

---

(١٦)

خمسة عشر يوما مضت وأبى فى شبه غيبوبة لا يتعرف على احد ممن حوله ... وكانت حياته فى تلك الفترة معلقة فى خيط واهٍ بين الموت والحياة ...

خمسة عشر يوما كنت خلالها أروح وأغدو وأنا أيضا فى شبه غيبوبة . فكنت أنظر إلى ابى المسجى فى فراشه غريب وكأنى عنه لكثرة ماحوله من الزوار والعواد ، ولكثرة المهام التى ألقيت غريب على عاتقى وكانت « نينا » وخالتى شفيقة وإحدى الممرضات

والخادم « نفيسه » يتولين العنـاية به فى النهار وفى الليل . وكنت فى كل مساء آوى الى فراشي فى غرفتى الصغيرة المزدحمة ببعض المتاع الذى كان لأمى من قبل ، فلا أذكر هل طعمت فى يومى أوشربت وهل سعدت قليلا كلما بدرت عن أبي بادرة حياة ، أو شقيت كثيرا كلما ظل فى فراشه معلقا فى خيط واه بين الموت والحياة . . .

وفى نهاية الاسبوعين بدأت حالة أبى تتحسن قليلا قليلا ، وأصبح قادرا على النطق بعض الشيء وإن كانت الألفاظ تخرج من شفتيه متعثرة فى غموض والتواء . ولن أنسى قط يوم سمعت صوته الحبيب لأول مرة فى خلال هذه الايام العصيبة . لقد بدت نبراته المتعثرة فى أذنى أنغاما دونها كل مافى الموسيقى من نغم وألحان . . ولست أنسى كيف طلب فى أول عبارة له أن يرانى . فلما أسرعت اليه خافق القلب متجلداً أغالب الدموع : دموع الحزن والفرح معا ؛ مـــد الى يده الرقيقة النحيلة فتناولتها وطبعت عليها قبلات وعبرات أودعتها كل مايزخر به قلبي من حب له ورجاء فى شفائه .

وأصبحتُ منذ ذلك اليوم ـ بناء على رغبته ـ ألازم غرفته ليلا ونهارا فلا أبرحها إلا لحاجة له . فكنت أقدم له الطعام الخاص وأسقيه الدواء وأساعده ـ بمعونة خالتى شفيقة على الجلوس فى فراشه قليلا كلما أراد ، وأقرأ له فى كتب الادعيات والاوراد.

وحدث فى ذات يوم بعد الظهر أن أقبل اليه أحد زملائه الموظفين فاختلى به فترة وجيزة . فلما انصرف استدنانى أبى منه ، وقال بصوته الخافت الوادع :

— لقد حمل يوسف افندى المرتب إلى . . . ويبدو أننا فى أول الشهر . . . وأنا أريد منك يابنى أن تحمل هذا المنديل الملفوف الى عم عبد الله . . . أتعرف مكانه بورك فيك ؟

فأومأت برأسى ، وقد ذكرت أنى كثيرا ماصحبت أبى قبل وفاة أمى . الى كوخ عم عبد الله هذا . فدس المنديل فى يدى وتمتم :

— إذن . . . اسرع ياممدوح . . . ولا تخبر أحدا بذهابك . . . بورك فيك . . .

وتناولت المنديل وكأنه كنز ، ورحت أعدودون أن افتحه فى طريقى الى حيث يقيم عم عبد الله . وكان الرجل يعيش فى كوخ من هذه الأكواخ المقامة بالطين والصفيح وجذوع الشجر ، والتى أنشأها بعض فقراء المدينه بعد أن مهّدُوا لها قطعة أرض جدباء تقع بين المدينة وساحة القبور — . ولما بلغت المكان رحت أشق طريقى بين الاوحال وأكوام القمامة وجيوش الذباب والصبية أنصاف العراة حتى بلغت الكوخ . وهناك وجدت الرجل العجوز مستلقيا على كومة من القش ، مقعداً لا يستطيع إلا أن يجلس أوينام ،

ضعيف البصر لا يكاد يرى فى ظلمة الكوخ شيئا .

قال بصوته الضعيف الواهن حين سمع وقع خطواتى :

ـ أحسن الله اليك ... من تكون ياولدى ؟

فلما ذكرت له أنى (ابن فلان) اذا بوجهه المعروق الجامد يشرق فجأة بسعادة هادئة ، وادعة وإذا بالدعاء لأبى ينثال من شفتيه الجافتين غزيرا عميقا ... واذا هو يتناول المنديل فيدسه فى صدره وقد حمد لله فضله وآلاءه .

وبقيتُ بجانبه فترة قصيرة شربَ خلالها قليلا ، وطعم قليلا ، وحمد الله كثيرا ، وتحدث طويلا عن أبنائه الذين ماتوا واحداً بعد واحد ، وعن زوجاته اللائى أشقينه أو شقين به أو اللائى اسعدنه أو سعدن به ، وعن زوجته الأخيرة التى تخلت عنه بعد أن طال مرضه وعن أهل الخير من جيرانه سكان الاكواخ الذين يتولون رعايته والعناية به .

ولما غادرته ، كان ثمة عاملان يتنازعانى .. الحزن من أجله ، والاعجاب بما يبدو عليه من استسلام وقناعة ورضا بأمر الله .

. . . .

تنبّهت على هذا الدعاء العذب الجميل الذى يسبق آذان الفجر فسمعت أبى يدعونى . فلما أسرعت الى جانبه ، أشار الى المصحف

الكريم الموضوع على منضدة بجانب فراشه وقال :

ـــ اذهب يا ابنى ـــ بورك فيك فتوضأ وصلى الفجر ثم اقرأ لى فى كتاب الله . . .

فلما توضأت ووقفتُ على سجادة الصلاة مستقبلا بيت الله الحرام قال أبى :

ـــ إرفع يابنى بورك فيك صوتك فى الصلاة قليلا . . . بين الخفوت والجهر . . .

وشاء الله جلت قدرته أن يُسعد أبى بى فى تلك اللحظات ، فإذا أنا ألمس لأول مرة فى حياتى مبلغ ما فى صلاة الفجر من روحانية ودعة وجمال ، وإذا صوتى الذى ارتفع بين الخفوت والجهر يملأ نفسى باحساس عجيب، وينسينى كل شىء حولى . . . حتى أبى هذا الراقد عن قريب ينصت الى .

أحسست انى واقف فى الهواء أو سابح فى فضاء السماء ، تنساب إلى أعماق روحى هذه الآيات القصار التى أرددها بصوت متهدج، كأنى أقرأها فى كتاب مفتوح رسمت سطورها وكلماته بالنور والضياء ، وتحفّ بى أطياف رقيقة غامضة أحس بها ولا أراها وأشم عبيراً فواحا لا أدرى من أين يأتى .

فلما فرغت هتف أبى بصوت ملؤه الدموع ، فأسرعت اليه

حيث ضمنى الى صدره بذراعه السليمة وقال :

— بورك فيك يابنى . . . بورك فيك . . . لقد أحسست بريح الجنة وأنت قائم تصلى . . . فالحمد لله الذى وهبنى ولدا مثلك . ثم طلب الى أن أقرأ له آيات من كتاب الله، فلما تناولت الكتاب الكريم فى خشوع ومضيت أقرأ بصوت دون الجهر ، شعرتُ مرة أخرى انى ارتفعت الى هذا العالم الجميل . . . عالم النور والضياء والصفاء ، وأن الأطياف الرقيقة الغامضة تحف بى ، فأحس وجودها ولا أراها ، وأشم هذا العبير الفواح الذى لا أدرى من أين يأتى . . .

وسمعتُ أنفاس أبى تتردد أخيرا فى هدوء ، فطويت الكتاب وجعلته فى موضعه من المنضدة وبقيت برهة أنظر الى وجه أبى وقد بدأ هادئا ساجيا لا أثر فيه للسقم والألم . . .

وما أظن أنى سأنعم فى حياتى بساعة كالتى نعمت فيها فى تلك الليلة ، برغم أننى لم أنقطع عن صلاة الفجر منـــذ ذلك الحين الا بضعة شهور . . .

---

(١٧)

بعد هذه الليلة بثمانية أيام . . . أو على التحديد قبيل فجر اليوم العاشر من شهر مايو عام ١٩٣٩ صحوتُ من نومى الخفيف على

أنفاس أبى اللاهثة وعلى ترديده اسمى بصوت خافت فوثبت من فراشى وأسرعت اليه وتمتمت فى خوف .

— أبى . . . أبى ... هل . . . !

فتحول بوجهه الى وحدق فى وجهى طويلا ثم قال بصوت متعب :

— لاشىء يابنى ... بورك فيك . . . قليل من الماء . . . ولا تدع احدا . . .

فاسندت رأسه الى ذراعى ، وتناولت أناء الماء القريب وأدنيته الى فمه ، فشرب حتى ارتوى ثم حمد الله وأشار الى جانب الفراش وقال :

— اجلس يا بنى هنا . . . بجانبى . . . بورك فيك

فقلت ملهوفا وقد خامرنى خوف شديد وحزن أشد :

— ألا استدعى الطبيب يا أبى . . .

— لا . . . لا . . . يابنى . .. بورك فيك . . . أحس الآن أنى فى غير حاجة الى طب او دواء .. اجلس .. اجلس يابنى ... بجانبى . . هنا على الفراش . وانصت الى . . فانى اريد أن اتحدث اليك . . . فجلست بجانبه وأخذت انصت بكيانى كله الى الكلمات التى راحت لدهشتى وسرورى تنساب من شفتيه فى سهولة ووضوح:

— إن أيامى يامدوح معدودة ... واذا لم ألب نداء ربى الليلة فسوف ألبيه غدا أو بعد غد . ورجائى يابنى الا يستبد بك الحزن لفراقى ... لاتبك ... لاتبك ... فهذا مصير كل حى مهما امتد به العمر ... وكل ما بينى وبينك من فرق هو أنى سأسعد بلقاء ربى ان شاء الله قبلك ولسوف نلتقى يابنى هنــــاك فى جوار الله يوما ... حتما ... كما يلتقى المسافر بأهله بعـد غيبة سنين طويلة أو قصيرة ... ومهما طالت السنون يابنى على فراقنا ، فإنها فى عمر الزمن لحظات كخطفات البرق . وانى إذ أتركك وحيدا فى هـذه الحياة الدنيا ، مطمئن الى رحمة الله بك والى ما فى قلبك الصغير الطاهر من ايمـان بالله وبرحمته وبقـدرته ... فليكن الله يابنى مدار افـكارك ومركز مشاعرك والملجأ الأول والأخير لك فى اوقات الشـــدة وفى أيام الرخاء ... بل لعلك فى أيام الرخاء والميسرة ، أحوج الى عونه سبحانه منك فى اوقات الشدائدوالمحن. فليس كالرخاء مفسدة للقلوب ، الا من عصم ربك وباعثا على الطغيان وسببا للـكبر والمفاخرة واذكاء للشهوات وقتلا للرحمة فى القلوب .

وسكن أبى مرة أخرى قبل أن يستطرد قائلا :

— ولا تنس يابنى — بورك فيك — القيام بفرائض الله

التى تعلمتها فى المدرسة والتى لقنتك اياها ... ولسوف تعرف على مر الايام أن فى العبادة ترفاً دونه كل ترف فى الحياة وأن فى تقوى الله نعيما ليس كمثله نعيم ... ثم عليك بمتابعة الدراسة حتى تظفر بأرقى الشهادات ، وحتى يتفتح عقلك بالعلم على ما فى الدنيا من خير ، وحتى يمتلىء قلبك بالدين فيرى ما ينتظره فى الآخرة من نعيم ؛ فالعلم يابنى قوام الدنيا . . كما أن الدين قوام الآخرة . ولسوف تعرف كلما ازددت علما كم كان الجهل سيكلفك من ثمن فادح فى اخلاقك ومالك ودينك . فالجهل يابنى رمز الشر فى هذه الحياة ... ولو أنك تتبعت أى فرع من فروع الخطيئة والإثم ، لوجدت الجهل هناك ... عند منبعها . فالجاهل لايعرف نفسه ولا نفوس من حوله ... ولا يعرف من دينه الا قشورا لا تغنى ، ولا من دنياه الا مظاهر جوفاء لاتسر عاقلا . لايعرف كيف يمعن الفكر فيما خلقه الله ، ولا يعرف كيف يحلم على السفيه ، ولا كيف يمسك عليه لسانه ، ولا كيف يصبر فى شدة ، أو كيف يشكر فى رخاء ... ، وليس الجاهل هو الذى لايعرف القراءة والكتابة فحسب ، إنما هو الذى لايعرف كيف يسمو بعلمه وكيف يستفيد من تجاربه ، وكيف يوعظ بما يجرى حوله ، وكيف يتخذ من الفشل مرقاة الى النجاح ، وكيف ينهض اذا كبا ، وكيف

يستغفر ربه ويتوب اليه اذا أثم ...

وصمت أبي برهة يسترد أنفاسه ، ثم قال :

لقد أخبرت سيدك الحاج بكل مايتعلق بك وبأخيك الرضيع (أحمد) وبزوجتي ، فاتبع نصحه فى حدود ما نصحت لك ولا تتبع سبيل الذين ظلموا ... بورك فيك وسدد الله خطاك .

وسكن أبي أخيرا ، ثم طلب الى أن أقرأ ، له فى كتاب الله الكريم . فتناولت الكتاب ودموعى تنهمر غزارا ومضيت أقرأ بصوت متهدج حتى انسكب صوت مؤذن الفجر فى سمعى بكلمة «يارب»

ولما نظرت الى أبي وجدته نائما مشرق الوجه . تتلألأ اطياف من النور حوله كأنه ينعم بحلم سعيد . ولم أكن أعلم فى تلك اللحظة انه قد نام نومته الكبرى . . .

(١٨)

أصر سيدى الحاج أن أبقى فى عزبته حتى يفرغ من اجراءات تشييع أبي إلى مقره الأخير ، وما يتبع ذلك من تسوية لكل شيء . ولقد شكرت له فى نفسى إصراره هذا . فما كنت أتصور يوما أنى قادر على رؤية أبي محمولا فى نعش الموتى على الاكتاف دون أن أفقد عقلى أو حياتى . بل لقد كدت أفقد الاثنين فى تلك اللحظة التى تبينت فيها أنى لن أرى أبي ابداً فى هذه الحياة الدنيا ،

ولن اسمع صوته الحبيب الهادىء الزاخر بتقوى الله ، ولن أنعم بعطفه الدافق وحنانه الغامر .

بقيت فى عزبة سيدى الحاج بضعة أيام لاأدرى لها عددا. فقد توقف الزمن بالنسبة الىّ خلالها ولم يكن للمكان فيها مدلوله فى خاطرى . ذلك أنى لم أكن أشعر بمرور الوقت هل طال أم قصر، وبالصباح هل ظل فى حنايا الليل أم أسفر ، وبالنجوم فى السماء هل تلألأت فى الليالى أم غاض بريقها . ولم أكن أرى فى الزرع أو فى الماء أو فى فضاء السماء أو فى أى مظهر من مظاهر الحياة الوادعة حولى فى الريف هذه المعانى التى كانت تنفعل بها مشاعرى من قبل ...

ولقد حرص الجميع لاسيما «انسام» على احترام آلامى النفسية وأحزانى . فتركونى بغير ازعاج من الفـــاظ مواساة تافهة ، أو عبارات عزاء سقيمة . وليس من شك فى أن موقفهم هذا مع تجنبهم الحديث عن أبى وادراكهم حقيقـة مشاعرى ، كان خير عزاء وأبلغ من كل مواساة .

اما البلسم الأكبر لآلامى النفسية ، فقد وجدته فى الصلاة وفى دعاء الفجر الذى كان يتهادى الىمن مسجد القرية ، وفى تلاوة آيات من الذكر الحكيم كلما خلوت الى نفسى فى الغرفة الخاصة بى .

وبعد هـذه الفترة التى لم أعرف لأيامها عدّا ، أقبـل سيدى الحاج واستدعانى الى غرفته وقال بعد صمت قصير كأنما يحدث نفسه :

ـ لم أر فى حياتى أعباء سَهُلتْ وتيسرت كما حدث فى أمر المرحوم ... فقد سار كل شىء فى سهولة ويسر وهذا من دلائل التوفيق ...

ثم بسط كفيه واردف مبتهلا :

ـ أسأل الله أن يحسن ختامى كما أحسن ختامه ... فلقد كان رجلا عرف كيف يقهر الدنيا بالرضى والقناعة والتقوى والخلق الكريم ...

ثم وضع يده على كتفى وقال فى رفق شديد .

ـ لقد حدثنى المرحوم فى أمرك طويلا ... وطلب منى أن اجعل لك الحرية فى أن تبقى معنا معززا مكرما تواصل دراستك هنا ، أوتمضى الى العاصمة على بركة الله معتمدا عليه سبحانه وعلى جهودك . . وإذا اردت أن تعرف رأيى فى هذا الشأن ، فإنه ليس أحب الى من بقائك معنا ، فإن العاصمة بحر لجىّ متلاطم الموج قد يغرق فيه غلام مثلك .

فذكرت كلمات أبى الاخيرة حين نصحنى ألاّ اعتمد على غير الله ، وألاّ أعيش عالة أوعبئا على أحـد ، ولهـذا قلتُ من بعد أن

شكرت له دعوته :

ــ أرجو أن تأذن إلى بالمضى إلى القاهرة ... ولسوف يكون لى فى دعائك ودعاء أبى هداية وتوفيق .. فصمت الحاج برهة قبل أن يقـــول :

ــ حقا إنك لمن صُلب ابيك ... فما عرفتهُ قطمعتمداً على مخلوق أو حانياً رأسه لغير الخالق . عظيم جداً لك ماتريد ياابنى . لقد ترك والدكعقب وفاة المرحومةامك بضع أساور ذهبية كانت له وديعة عندنا وقيمتها فى الوقت الحاضر سبعة وعشرين جنيها وخمسة وأربعين قرشا . ولسوف أسلم هذا المبلغ اليك حالا . اما معاش أبيك الذى سيكون من نصيبك ونصيب أخيكالرضيع حتى تبلغا الواحدة والعشرينمن العمر ، ونصيب السيده منيرة حتى تتزوج مرة آخرى أويتوفاها الله ، فقد عرفتاليوم من الموظف المختصبقسم المعاشاتأنه يزيد قليلا عن خمسةجنيهات . وسيكون نصف المعاش كله من نصيبك انت . فثمة قانون المعاشاتالقديم ، يبيح لك أن تنال نصيبك ونصيب أمكالمرحومة فى وقت واحد ولقدحدثنى والدكقبل وفاته فىهذا الشأن ، انه يرجوأن يلازمك التوفيق فى القاهرةفلاتحتاج الى نصيبكومن ثمة تتركه اعانة لأخيك الطفل الرضيع حتىيكبر ويشبوهو فى غير حاجة الىاعانةمن أحد .

فأسرعت أقول :

ـ إن أبى على حق ... بل أرجو أن يتاح لى إرسال مايفيض عن حاجتى الى أخى ...

فصمت الحاج برهة ثم تناول منديله ومسح وجهه وقال :

ـ عظيم جدا ... ولكن عدنى وعدا أكيدا أن تكتب الى اذا احتجت الى شيء ... فانى بناء على رغبة والدك سأتولى الوصاية عليك حتى تبلغ سن الرشد ... واعتقد أن واجبى كوصى يحتم على رعايتك والنظر فى شئونك .

فوعدت له بما أراد ، ولكنى ابتهلت فى نفسى ألا تحوجنى ضرورة الزمن للوفاء بهذا الوعد . واخيرا قال :

ـ إن لى صديقا حميما يشتغل كاتبا « عموميا » بجوار محكمة الاستئناف ، ويقيم فى بيته بأول شارع « أمير الجيوش » من ناحية « باب الشعرية » وانى اقترح ان تنزل ضيفاً عليه مع « ابو على » الخولى وتستشيرانه فيما يجب أن تفعل لكى تنتظم أمورك فى القاهرة ... فإنه رجل مجرب يعرف لكل مأزق مخرجا ، ولقد رحل من المدينة شاباً واستطاع أن يستوطن القاهرة ... وليس هذا بالشيء القليل ... أما « ابو على » فسيبقى معك بضعة أيام حتى يطمئن عليك ثم يعود .

ولما وافقتُ على رأيه هذا الأخير ، نهض الى خزانة ثيابه ، فتناول من أحد أدراجها كيس نقود ثم أقبل عليّ به وقال :

- لقد جعلني والدك أقسم أمامه الا أزيد على مالك عندنا قرشا واحدا أو أقدم لك شيئا إلا من هذا المال . وليس يسعني الا البر بهذا القسم ... ويمكننا فى الغد أن نشترى لك ما يلزم لسفرك ... أما موعد هذا السفر فسأتركه لك ... وإنى لأرجو ان تعيد التفكير فى هذا الأمر ... فإن خالتك شفيقة تودّ من صميم قلبها أن تكون لك أما وأن ترعاك كما ترعى «أختك» أنسام ...

فتمتمت له بعبارات الشكر والاعتذار ثم قلت [ارجو ان تأذن لى بالسفر بعد غد صباحا ... كما ارجو ، ان تأذن لى بأداء بعض الزيارات فى المدينة قبل السفر ...]

فحدق فى وجهى برهة متسائلا ... ولكن نظرة التساؤل لم تلبث ان تلاشت وكأنما فطن إلى بعض هذه الزيارات التى أذنته لأدائها .

وقبل أن آوى إلى فراشى فى تلك الليلة بذلت خالتى شفيقة جهدها لإقناعى بالبقاء فى رعايتهم ؛أما أنسام فقدانفردت بى برهة وقالت فى صوت بين الحزن والرضا :

— هل ستسافر إلى العاصمة يا ممدوح ... بعد غد ... حقا ؟

فلما أومأتُ برأسي مجيبا قالت وفى عينيها الواسعتين هذه النظرة المستضعفة التى تشعر الرجل بجمال قوته والمرأة بسمو ضعفها :

— إنى واثقة بأنك ستكون ذا شأن كبير هناك . . .

ثم التهبت وجنتاها فجأة بحمرة قانية واسرعت فأردفت :

— ولكن . . . لا تنسى وعدك لى بالبحث عن أبى . . .

. . . .

جلستُ فى صبيحة يوم السفر فى احد مقاعد الانتظار بمحطة السكة الحديدية الحكومية وكانت خالتى شفيقة وأنسام جالستين بجانبى يودعاننى ...وكان « ابو على » الخولى واقفا غير بعيد منا بين ثلاث حقائب سفر كبيرة فى إحداها الثياب الجديدة التى اشتريتها ، مع بعض الثياب القديمة التى لا تزال صالحة للاستعمال ، وفى الثانية كتبى وأدواتى المدرسية وبعض الادوات الشخصية ، وفى الثالثة خبز قديد وفطائر ريفية دسمة وكمية كبيرة من البيض ، وأربعة ازواج من الدجاج المحمر ، وعلبة بها خمسة أرطال مسلى وأخرى للسكر ، وثالثة للشاى وبعض الأوانى المعدنية والخزفية وموقد « سبرتو » وأكواب للشرب . وكان نصف الفطائر الريفية الدسمة والبيض والدجاج المحمر هدية لصديق سيدى الحاج الشيخ ادريس الكاتب العمومى بالقاهرة .

كان « ابو على » واقفاً وعلى وجهه سمات من الثقة بالنفس والشعور بالأهميـــة ... أليس هو مبعوث الحاج ورائدى الى القاهرة ... ألم يحدّثنى كثيرا فى اليوم السابق عن زياراته للقاهرة فى صحبة الحاج ، وما كان له فيها من وقائع ومغامرات (لو انها سجلت فى كتاب) لتحدث بها الركبان ... وغير الركبان ...

وفيما نحن فى انتظار القطار كان الصمت يخيم علينا ... ولعل احدنا لم يجد ما يقوله فى هذه اللحظات التى تسبق فراقاً لا يدرى أحد مداه ، ومنْ ثم رُحْتُ أعود بالذاكرة إلى اليوم السابق الذى بدأته بزيارة قبر ابى وامى حيث ودعتهمـا بدموع غزار وحيث عاهدتهما أن أكون عند حسن ظنهما بى وأن يكونا فى مثواهما أول من أزور إذا جئت المدينـة وأول من أودع اذا غادرتهمـا .

ومضيت بعد هذه الزيارة الى كوخ عم عبد الله ... وهناك علمت أنه نُقل الى المستشفى بعدان اشتد به المرض إلى حدالخطر. فأسرعتُ الى هناك أحمل له بعض الفاكهة والطعام الخفيف ... وكنت أدرك حين ودعته أنه من الاشخاص الذين لن أراهم مرة أخرى فى هذه الحيـاة ... فقدكان الموت مرسوما على وجهه الشاحب المعروق ولكن آيات الأمن والطمأنينة والسلام الروحى

كانت أشد وضوحا على وجهه من الموت .

وانثنيت بعد ذلك لزيارة « نينا » حيث ذهبت لتقيم مع اخى الطفل فى بيت والديها العجوزين . ولقد رحبت بى أشد الترحيب وعاملتنى كأنى رجل صغير ، وصنعت لى بنفسها قدحا من الشاى بينما كنت اداعب أخى وأناغيه وأتلقى بسماته وبركاته . . . نعم . . . فقد خيل الى أنه كان يباركنى وهو يمسح بيديه الصغيرتين على وجهى وشعرى وصدرى . . . ولقد أحزننى وأسعدنى فى آن واحد أنه متعلق بى وبكى طويلا وأنا اهم بمغادرة البيت . . .وكأنما كان يشعر بروحه الطاهرة بما بينى وبينه من وشائج الحب وروابط الدم وعزة الاخوة .

ومررت بعد ذلك على الموضع الظليل الذى طالما جلست فيه انظر الى النيل الساجى والى المروج الخضراء الممتدة على ضفافه حيث أترك لأحلام اليقظة عنانها ولما سرت أمام البيت المهجور ... البيت الذى ولدت فيه وشببت ، ورأيت فيه وفاة أمى ثم ابى ومرحت لاهيا بطفولتى فى ارجائه ورنت ضحكات هناءتى فى انحائه ومسحت بلاطه أحيانا بدموعى وترددت فى جوه أناتى وصلواتى ؛ لم أملك نفسى من الوقوف ببابه والنظر الى نوافذه ، المغلقة وقد شعرت بأنى إذ أغادره كأنى أترك ورائى قطعة من حياتى لن تعود.

وأفقت من ذكريات هذااليوم على صوت القطار وهو يدخل المحطة... فلما توقف ، حمل « ابوعلى » الحقائب الى مركبة الدرجة الثالثة ، بينما نهضت خالتى شفيقة تضمنى اليها طويلا ، وقبلت جبينى ثم راحت تتمتم وهى تغالب دموعها بالدعاء لى . أما انسام فقد مدت يدها الى فى حياء وخفر وقالت وهى تشد على يدى مودعة :

ـــ لا تنس وعدك لى . . .

فقالت امها وقد سمعتها :

ـــ أى وعد هذا .. ؟

فأسرعت أقول :

ـــ أن أكون مستقيما فى حياتى ... مجدا فى عملى ودراستى ...

فقالت بصوت خافت :

ـــ اذا بررت بهذا الوعد ونلت شهادة عليا فستكون أنسام هديتى اليك . . .

. . . .

وسار القطار فى طريقه الى العاصمة . . . إلى المستقبل الذى يكمن فى حنايا الغيب .. والذى سيتفتح أمامى بين لحظة وأخرى وبين يوم وثان ، وبين عام وآخر ، كما تتفتح صفحات الكتاب . . . فيها الذى يسر ويبهج والذى يحزن ، ويشقى حتى ينتهى السرور والشقاء بانطواء الكتاب .

والقيت نظراتى الأخيرة على المدينة التى كانت مرتعاً لطفولتى وصباى والتى يرقد فى ثراها أبى وأمى والتى يعيش على ظهرها أحبابى ولداتى والتى تردد فى أجوائها أجمل وأشق ذكرياتى . .

ولما خلّفها القطار وانساب فى طريقه يطوى الارض طيا ، لم يبق فى ذهنى من كل هذا شىء يتردد غير هذه العبارة التى ملأت نفسى بأظهر وامس ما تمتلىء به نفس من شعور

« ستكون أنسام . . . هديتى اليك . . »

الفصل الثانى

(١)

خيل إلى ان قلبي سيقف بالروعة والذهول قبل ان يقف القطار وهو ينساب فى افنية المحطة الفخمة الضخمة ،التى فاقت كل ما كنت أتصور وأتخيل . . . ما هذا العجيج والضجيج ، وهذا الصخب العنيف وتلك الصيحات المرسلة من حناجر الحمالين والعمال؛ وما هذه الحشود الهائلة التى لم يخطر ببالى يوما أنى سأراها مجتمعة فى مكان واحد يكاد على سعته الهائلة المهولة يضيق بها ، وكأنها فى نظرى الشارد الذاهل جيوش من النمل تنساب من أحجارها مفزعة وتنطلق فى كل مكان . . .

وبقيت مشدوها مذهولا معجبا متعجبا وأنا أمضى متعلقا بذراع « ابو على » الخولى خطوة خطوة وراء الحمال الذى كان يحمل الحقائب الثلاث كأنها ثلاث كرات صغيرة . وكنت ألتفت زائغ البصر الى هذه الحركة الثائرة الغائرة التى تطالعنى فى كل مكان داخل المحطة وخارجها . وكنت أشعر أن ثقتى فى نفسى تتضاءل فى كل

خطوة أخطوها فى مدخل هذه العاصمة الكبيرة حتى عن خيالى، المروعة لغلام مثلى لم يبرح مدينته الريفية وما جاورها يوما .

لقد بدا لى فى نظراتى وخطواتى الاولى على أرض العاصمة. انها مدينة عاتية جبارة لاترحم صغيرا ولاتحترم كبيرا، ولا تأبه لفقير ولا تحفل بغنى.. وليس للرجال الأعيان حتى من كان فى مركز سيدى الحاج وزن فيها كبير...

لاريب أن الحاج كان على صواب فى قوله إنها كالبحر اللجى المتلاطم الموج.الذى قد يغرق فيه أمثالى دون أن يشعر أو يحفل به أحد . . . ومن ثم خطر لى فى تلك اللحظات الاولى أن أرجو ابو ع لبعود بى الى المدينة . . . حيث اعيش كما يتاح لى العيش بأى ثمن بعيدا عن هذا الضجيج العنيف وهذا الاصطخاب الثائر وعن هؤلاء الناس الذين يروحون ويغدون مهرعين متزاحمين لا تفتر شفاههم عن بسمات عطف أو حنان ، ولا تبدو فى وجوههم سمات من رقة أو تعاطف ، ولا تنطق السنتهم بتحية او بعبارة تهدئ النفس وتفرح الروع .

رأيت فى تلك اللحظات الكثرة الغالبة فيهم يمرّون أمام رجل مسكين مقطوع الساق الايمن والذراع الايسر ، فلا يحفلون به ولا ينظرون اليه ولا تأخذهم عليه شفقة . ورأيت غلمانا فى

مثل سنى وصبية يتواثبون على أفاريز الشوراع ومراقى الترام ، يعرضون خفيف السلع أو ينادون على أوراق « اليانصيب » دون أن يأبه لهم احداً أو يشترى منهم أحد شيئا بغير مساومة عنيفة .

فهل أستطيع أن اجد فى مثل هذه المدينة مجالا للرزق وموئلا للعيش ونبعا للعلم ؟

وقبل أن اهتدى الى جواب سؤالى هذا : سمعت « ابو على » يقول بعد ان صرف الحمال .

يحسن بنا ان نركب « تاكسى » الى حى الحسين . فقد أوصانى الحاج ان ننزل به . . . ولن نجد فى الترام أو السيارة العامة مكانا لنا ولحقائبنا هذه .

ثم أشار بيده ، واستوقف لدهشتى سيارة أجرة فاخرة انيقة رائعة تختلف كل الاختلاف عن هذه السيارات العتيقة الخربة التى تستأجر فى مدينتنا . فلما ركبتها معه احسست بالرهبة فى أول الأمر ، ولكى ما أن تراخيت فى المقعد الوثير وتحسست بيدى الجنيهات العشرين الموضوعة فى كيس جلدى مشدود الى وسطى حتى ، هدأت نفسى قليلا ثم ازددت هدوءا وأنا اتلو فى صمت آية الكرسى والصمدية والمعوذتين ؛ وأخيرا تلاشت مخاوفى تماما حين ذكرت أن الله الذى اعتمد على قدرته أكبر من

القاهرة ومن فيها جميعا ...

. . . .

وانطلقت السيارة بنا من شارع إلى شارع ومن حى إلى آخر وكلما نظرت الى الابنية المشيدة كالقصور ، والمتاجر العامرة الفاخرة وأنهار الخيرات التى تفيض فى كل ركن وفى كل مكان ووسائل النقل المختلفة وتزاحم الناس فى رواحهم وغدوهم وقد اختلفت مظاهرهم ومشاربهم وألوانهم ، كلما نظرت إلى هذا كله شعرت كأنى سائح فى عالم جديد هائل هو أقرب إلى الحلم منه الى الحقيقة . . .

ودلفت السيارة بنا فجأة فى حارات ومنعطفات وأزقة ضيقة ملتوية تضاعف الزحام فيها وبدت الابنية على جوانبها قديمة عريقة تكاد تتهاوى ، وارتفعت فى جوها الانفاس مختنقة لاهثة لقلة الهواء النقى .

وقال أبو على بصوته المرشد الخبير :

— نقترب الآن من الحى الحسينى ... وأنى لأعرف فيه فندقاً متواضعا كان اخى الأكبر يختلف اليه كلما هبط الى القاهرة ... وأجرة الغرفة الواحدة ذات السريرين لاتزيد عن أربعة قروش .

ووقفت السيارة بنا أخيرا أمام هذا الفندق المتواضع . فلما نقد « ابو علي » السائق أجره ، أشار الى حمال أمام الفندق كان يقترب منا ، وطلب اليه حمل الحقائب الثلاث فى لهجة السيد المطاع . ودلفنا وراء الحمال من باب الفندق الى دهليز ضيق مظلم رطيب واستقبلنا فى نهايته رجل فى جلباب بلدى لالون له ، يغطى رأسه — فيما عدا خصلة من الشعر فوق جبينه — بطاقية كانت بيضاء وكان أبرز ما فى شكله ، أنفه المكور وعينيه الجاحظتين ، وشفتيه المتهدلتين وعنقه الغليظ ، كأنه قطعة من جـــذع شجرة جميز . . .

تحدث هـذا الرجل مع « أبو علي » برهة ، ثم تقدمنا الى غرفة صغيرة فى منعطف من الدهليز . وهناك ألفينا رجلا ضخما فى ثياب افرنجية تكشف عن كرش منبعج يمتد أمامه شبرا أوشبرين . وكان جالساً إلى طاولة مستطيلة فى جانب منها بضعة دفاتر ، وعلى بقيتها صفت صحاف من البيض والطعمية والباذنجان المقلى وسلاطة اللبن الخاثر وصف من الارغفة لا أدرى لها عددا .

قال الرجل وفى فمه ربع رغيف يلوكه :

— شرفتم يا بكوات ... أية خدمة ... ياهادى

قال ابو علي وهو يخرج حافظة نقوده فى تؤدة ووقار .

— غرفة نظيفة هواؤها خالص ذات سريرين ...

فغمس الرجل بضع أقراص من الطعمية فى صحن السلاطة ثم قذفها الى فمه وقال :

— جميع غرفنا نظيفة ياحضرة الافندى ... وكلها جديرة بالباشوات ... كم يوما تشرفوننا ؟

— ثلاثة ...

— خمسة عشر قرشا عنها ... نصفها مقدما ... ياهادى ...

فلما دفع « أبوعلى » له ما أراد ، تناول الرجل مفتاحا من لوحة المفاتيح المعلقة على الجدار فوق رأسه ، وسلمه للرجل الاول الذى استقبلنا فى الدهليز وقال له :

— إذهب ياقورة بالبكوات إلى الغرفة المخصوصة ... غرفة الكبراء والعظماء . . .

وتناول الرجل (قورة) المفتاح ثم انتزع عينيه انتزاعا من صحاف الطعام المصفوفة أمام صاحب الفندق أو مديره — وتقدمنا فى دهليز آخر لايقل عن الأول ظلمة ورطوبة ، ثم صعد بنا على درجات حجرية لا تخلو من كسر هنا أو هناك . وكنت وأنا أصعد أمسك « ابوعلى » بيد وأتحسس بيدى الأخرى (درابيزون) السلم الذى كان يهتز ويتأرجح كلما ثقلت يدى عليه .

وبلغنا أخيرا ردهة يتسلل اليها نور الظهيرة من كوات فى أعلاها ، ثم دلفنا منها الى قاعة مستطيلة يتراقص الضوء والظل على ارضيتها — التى كانت فيما مضى مرصوفه بالبلاط الحجرى — وعلى جدرانها التى كان يغطيها من نسيج العناكب أكثر مما يغطيها من الملاط . وعلى جانبي هـذه القاعة ، صفّت « دكك » خشبية عارية ، بين كل دكتين باب يفضى الى إحدى الغرف « المخصوصة » وتحت هذه الدكك حُصر مطوية .

وقال « ابوعلى » هامسا بصوت المرشد الخبير :

— هذه قاعة نزلاء الدرجة الثالثة والرابعة ... فأجرة المبيت على الدكة قرش فى الليلة وعلى الحصيرة نصف قرش .

ووقف قورة بنا أمام باب احدى الغرف « المخصوصة » ففتحه بالمفتاح ، ثم دخل ودخلنا وراءه ومضى الى النـــافذة الوحيدة ففتحها — وحسنافعل — فقد كان الظلام . برغم الظهيرة. مخيما فيها والهواء فاسدا ثقيلا .

وكان بهذه الغرفة « المخصوصة » سريران صغيران ومقعدان من الخيزران ينقص أحدهما رجل ، وخزانة للثياب ذات أدراج ومفاتيح ، وترابيزة من الصاج (من الصنف الذى يطوى وينشر) وبقية من سجادة باهتة متآكلة ، وعلى الجدران مشجب

وصفوف من المسامير تعلّق عليها الثياب ـ إذا إزدحم المشجب بها ـ وحول هذه وتلك ترامت جموع من حشرات البق ، **أما** العنكبوت فقد كان كامنا وراء نسيجه وشباكه فى ركن السقف المواجه للباب . . . .

ونظر أبو على إلى الاغطية والفرش الموضوعة على السريرين نظرة الفاحص الخبير ، ثم دس أنفه فيها برهة ثم استقام ووضع فى يد قورة نقوداً وقال :

ـ هات لنا أغطية أخرى أكثر جدة ونظافة ...

ونظر الرجل إلى السريرين ، ثم إلى « أبو على » ، ثم إلى مافى يده من نقود ، ثم انفرجت شفتاه المتهدلتان فجأة فيما يشبه الابتسام ، ثم غمغم بكلمات خرج نصفها من فمه ونصفها لا أدرى من أين ، ثم دفع يده إلى رأسه فى احترام وغادر الغرفة ...

وقال «أبوعلى» وهو يشرع فى إفراغ بعض محتويات الحقائب داخل خزانة الثياب :

ـ لقدغمزته بقرشين .. وهومبلغ كبير يكاد يصل إلى نصف أجره اليومى . . .

ولما أحضر الرجل ما أردنا ، أغلق « أبو على » الباب ثم جهز لنا طعاما شهيا من البيض المقلى مع دجاجة محمرة وقطعة جبن

ونصف فطيرة . وبعد أن شبعنا وارتوينا ، رقد كل منا على سريره واستغرقنا فى نوم عميق .

---

(٢)

حمل « أبو على » هدية الفطير والدجاج والبيض الخاصة بالشيخ « إدريس » وغادرنا الفندق وقد غربت الشمس . وكانت أنوار المصابيح المختلفة تتلألأ فى الطرقات والمنعطفات.وفى نوافذ البيوت وفوق الأبواب وفى المتاجر والحوانيت ، وفى جوانب المركبات وعلى عربات الباعة الجائلين ، حتى أحسست كأنى أسير فى حقل بهيج ليس له حدود أو قيود .

وكنتَ وأنا ممسك بذراع «أبو على» أتلفت حولى كأنى أريد أن أشبع عينى من كل ما أرى .. وكان أشد مالفت نظرى وأثار عجبى، هذه الكثرة الكثيرة من الفتيات والنساء فى مختلف الازياء قديمها وحديثها ، يرحن ويغدين منهن الباسمات والغامزات ، والجادات المتحفظات المهتزات بالأرداف وبالصدور ومنهن الخليعات ذوات الثياب فوق الركبة والمتحشات ذوات الثيـــاب دونها ومنهن المؤتزرات بالملاءات السوداء وقد حرص بعضهن على إبراز الساق عارية كلما انفرج الإزار عنهـا . وأكثر هؤلاء جميعاً سافرات

وأكثر السافرات محمّلات بألوان من المساحيق والاصباغ .

ولما أبديتُ عجبي لصاحبي من خروج هؤلاء النسوة بمثل هذه الكثرة بعد الغروب ، قال وهو يتحسس شاربه :

— الله فى عون الرجل الذى لا يعرف كيف يتّقى غوايتهن . . أرجو ياسيّد ممدوح أن تكون على حذر منهن فلا تخدعك إحداهن وتفسد عليك حياتك . . .

وأرسلت عبارته هذه طيف «أنسام» أمام بصيرتى . . إن أنسام واحدة منهن . . ولكن أين هؤلاء منها إذا كان أكثرهن زهوراً غير ذات أريج ، فان أنسام وردة طيبة الأعراق فواحة الشذى ، فيها من فن الطبيعة بقدر ما فيهن من فن الصناعة ، وفيها من صفاء النفس بقدر ما يبدو على وجوه بعضهن من ظلال الاثم . .

. . . . .

وبلغنا بيت الشيخ « إدريس » الكاتب « العمومى » فى طرف شارع أمير الجيوش من جهة « باب الشعرية » وكان البيت من طراز عتيق : شرفاته مشربيات وخصاصات نوافذه تُرفع وتنزل - لا تفتح وتقفل - وللباب قبضة حديدية يُطرق بها عليه فيُفتح من الداخل «بسقاطة» ذات حبل يصل ما بين الباب وسكان البيت.

واستقبلنا فى الفناء المظلم الرطيب غلام - فى مثل سنى - ثم

تقدّمنا إلى الطابق الأول حيث استقبلنا الشيخ إدريس بنفسه عند باب المسكن . وكان رجلا فى نحو الخمسين أبيض الفودين شاحب الوجه يضع على أرنبة أنفه نظارات سميكة الاحجار ، ممتلىء الشفتين ، عريض الجبين ، متوسط الطول يرتدى قفطاناً من الشاهى ، قد شمر كميه حتى المرفقين ، وأسدل كمّ « الفانلا » إلى معصميه ، وحول كرشه الصغير حزام ملون عريض من الحرير المصنوع ، وفى قدمية مركوب أحمر يرتفع طرفاه إلى أعلا . . .

ورحّب الرجل بنا ترحيباً كبيراً وهو ينتقل بعينيه من فوق النظارة إلى وجهينا حينا ، ثم إلى السلة العامرة حينا آخر . ثم تقدّمنا عبر دهليز واسع ، على جانب منه بابان لغرفتين ، كان أحدهما على انفراج يسير ، أطلت منه عيون ترسل إلينا نظرات مختلسة . أما الآخر فقد دلفنا منه إلى غرفة الاستقبال صُفّت فيها ثلاث أرائك ذات مفارش بيضاء نظيفة يتوسطها « كليم » من الصوف الملون . وكان ثمة منضدتان : إحداهما صغيرة مستديرة ، والأخرى كبيرة مربعة عليها عمامة الشيخ وعلبة لفائف وطقطوقة رماد وكيس نظارة وكتاب وبضع أوراق وقلم بسط ودواة .

واتخذ الشيخ مقعده على الكنبة أمام هذه المنضدة ، ثم مضى فى الترحيب والاستفسار عن سيدى الحاج وعن المدينة ، وعمن

يعرف من أهلها وعن آخر الأنباء والاحداث فيها . فلما أشبعه « أبو على » أخبـــاراً وأحاديثا تنحنح وذكر له سبب تشريفنا بزيارته ، وعنـدئذ قال الشيخ وقد دخل ابنه الغلام حاملا أقداح « القرفة » :

هل سمعت يا زكريا - أيها الأبله الخائب - أن ممدوح افندى الذى يصغرك سناً يحمل الشهادة الابتدائية ويريد بأذن الواحد الاحد - أن يعمل وأن يتم دراسته .. وانت .. انت لاتزال جحشاً فى السنة الثالثة ... ؟

وأحمر وجه الغلام خجلا وكاد يتعثر وهو يضع قدحينا على المنضدة المستديرة أمامنا . فلما أسرع بمغادرة الغرفة مطرق الرأس، قال الشيخ إدريس وهو يتناول لفيفة ويشعلها ويرسل دخانهـا فى جو الغرفة حلقات :

ــ أخشى ياممدوح أفندى ألآ تستطيع البقاء طويلا فى القاهرة ... فكثير من أهل الارياف جاءوا وكلهم آمال كبار ... ولكن أكثرهم رجع باذن الواحد الاحد راضياً من الغنيمة بالإياب ... ولكن على كل حال ... قل يا باسط ...

فتمتمت وقد بدأت موجة الامل تنحسر فى نفسى :

ـــ ولـكن هناك يا سيدنا الشيخ من استطاع أن يبقى فى العاصمة ويصمد . .

أى نعم ... أى نعم ... قل ياباسط ... ولـكن أكثر هؤلاء يعيشون فى رهق ومسغبة ... آنفين من العودة إلى بلادهم فاشلين ...

ثم سوى نظارته على عينيه واستطرد وهو ينظر باسما إلى طرف لفيفته المتوهج :

ولـكن القلة . . . القليلة . . . القليلة جداً هى التى استطاعت باذن الواحد الاحد الصمود لتقلبات الحياة هنا ، وأصبحت نظراً لمواهبها الخاصة فخراً لأهل بلادها . . .

فغمغمت وقد إزدادت موجة الامل فى نفسى انحساراً :

ـــ عسى الله ياسيدنا الشيخ أن أكون واحداً من هذه القلة... القليلة جداً . . .

فهز الشيخ رأسه فى شك وريبة وقال :

ـــ أى نعم . . أى نعم ... قل ياباسط ـ من يدرى ... ليس على الله شىء ببعيد . . . إذن فأنت تريد أن تجد عملا يتيح لك بإذن الواحد الاحد الرزق . . ثم وقت فراغ لمتابعة دراستك .

أى عمل ...

ـــ أى نعم ... أى نعم ... قل ياباسط ... ولـكن الحصول

على وظيفة حكومية بشهادتك الآن عسير جدا ... وبناء عليه أقترح أن نوجه جهودنا بإذن الواحد الأحد للبحث عن عمل فى شركة أو متجر ... أو ... أو محل ...

فقال «أبو على» عندئذ [وسيكون الفضل لله ولك ياسيدنا الشيخ ...

فأسرع الشيخ قائلا — استغفر الله ... الفضل لله وحده ... قل ياباسط .

ثم وضع لفيفته على حافة «طقطوقة الرماد» وزاد من أكمام قفطانه تشميرا وقال وهو يعد على اصابعه :

— اذن فإننا نحتاج بإذن الواحد الأحد الى غرفة مناسبة لسكن ممدوح أفندى أولا ، وثانيا الى تأثيثها بالضرورى من المتاع ، وثالثاً الى الحصول على عمل مناسب يدرعليه ماتيسر من رزق ويتيح له الفرصة لمتابعة دراسته ...

فقلت أنا وابو على فى صوت واحد — نعم ... جزاك الله كل خير

فتابع حديثه وقدسره مابدا علينا من إعجاب به :

— قل ياباسط ... أما الغرفة فأمرها بإذن الواحد الاحد ميسورة ... ويمكن استئجارها غداً فى هذه النواحى لما تمتاز به من خفض الأسعار ، وسهولة المواصلات ، وطيبة قلوب الاهالى

أما المتاع الضرورى للغرفة ، فإن فى متاجر شارع الأزهر حاجتنا بأرخص الاسعار . . . أما العمل فقد ظهر لى فيه رأى الآن ... أعتقد بإذن الواحد الأحد انه سديد . . . قل ياباسط

ولما حدثنا برأيه هـــذا ، سرنى وأعاد الأمل الى نفسى ، إنى وجدته سديدا حقا . . .

. . . .

(٣)

فى مساء اليوم التالى ، كنا قد فرغنا من استئجار غرفة واسعة فى بيت نصف قديم يقع فى عطفة بحارة (المبيضة) المتفرعة من شارع الجمالية . وكانت الغرفة إحدى غرفات ثلاث فى شقة تطل على الحارة وكادت صاحبة البيت أن ترفض تأجيرها لى قائلة إنها لاتسمح بسكن شاب عازب بين العائلات . ولكن حداثة سنى وما كان يبدو على وجهى من سذاجة (ريفية) شفعا لى عندها . . .

وفى اليوم التالى من اكتراء الغرفة استطعنا بمعونة الشيخ إدريس ولباقته ومهارته فى المساومة أن نشترى من متاجر شارع الأزهر سريراً بأدواته ومفروشاته ومنضدة ومقعدا مريحا وخزانة ثياب صغيرة ،ومصباح (نمرة ١٠) وموقد كيروسين وملاعق وسكينين وأوان وصحافاً من النحاس والخزف وأكوابا وأقداحاً وحصيرا

ملونا للأرض وآخر للصلاة. كل هذا بثلاثة جنيهات وستين قرشا.

ولما وضعنا هذه الأحمال على (عربة كارو) شكرت « ابو على » للشيخ إدريس مابذل من جهد فى سبيلنا ولكن قاطعنا قائلا :

— قل ياباسط . . . موعدنا غدا بإذن الواحد الأحد فى الخامسة مساء لمقابلة الحاج مسعود صاحب المخبز . . . وارجو أن تتسلم العمل بعد غد صباحا بإذن الواحد الأحد .

وركب ابو على فى جانب العربة وركبت بجواره ، وسار الشيخ معنا قليلا يحدثنا وينصحنا حتى أفترقنا . وفى طريقنا الى الغرفة الجديدة عرجنا على الفندق وحملنا متاعنا من الغرفة « المخصوصة » ثم قضينا نحو ثلاث ساعات فى ترتيب المتاع كله فى المستقر الجديد وقد ساعدنا عبد الله الساكن فى احدى الغرفتين المجاورتين - حتى اذا فرغنا كان التعب قد أخذ علينا كل سبيل ، فالقى كل منا بنفسه فى جانب من الفراش ورحنا فى نوم عميق

. . . .

أما العمل الذى استلمته فى صباح اليوم الخامس من وصولى الى العاصمة ، فقد كان عبارة عن محل صغير فى شارع سوق الليمون أنفق فيه النهار من السابعة صباحا الى السادسة مساء، حيث أبيع أرغفة الخبز الطازج . ولم يكن بالمحل كله غير مقعد لى ، وثلاثة أرفف

للخبز وطاولة خشبية فى مدخله — ذات سطح من الصاج — وفى جانب منها درج أضع فيه المال المتحصّل من البيع .

وكنت قد علمت من الشيخ إدريس أن اصحاب المخابز الكبيرة ينشئون هذه المحال الصغيرة فى الأحياء المختلفة لتزويد أهلها بما يريدون من الخبز الطازج كل يوم على دفعتين الأولى فى الصباح والثانية قبيل الظهر. كانوا يجعلون فى كل محل عاملا مثلى لا يشترط فيه غير النظافة ومعرفة كيف يبيع الرغيف الكبير بخمسة مليمات والمتوسط بمليمين ونصف . والصغير بمليمين ثم التفطّن الى النقود المزّيفة من الأخرى الصحيحة . وكان على العامل — عدا هذا — أن يدفع جنيهين أو ثلاثة تأميناً عند صاحب المخبز . وبرغم استعدادى لدفع قيمة التأمين ، فقد رفض صاحب المخبز هذا الإجراء بسبب ما كان بينه وبين الشيخ ادريس من وشائج الود والالفة . وكان أجر العامل خمسة قروش فى اليوم ونصف جنيه فى آخر كل شهر .

ولما اطمأن «أبو على» الى هذا كله ودّعنى بحرارة واخلاص وعاد الى البلد. وهكذا استقر المقام بى فى هذه العاصمة الهائلة ، وحيدا ليس لى من ناصر أو معين بعد الله إلا كلمات أبى التى أوصانى بها قبيل وفاته...

كنت أبدأ يومى قبيل الفجر فأصحو على هذا الدعاء العذب الجميل الذى كان يردده كثير من المؤذنين فى كثير من المساجد فى

تلك المنطقة . فإذا فرغتُ من الصلاة وتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم ، استذكرت بضع صفحات فى مادة من مواد الدراسة المقررة على السنة الثانية الثانوية ثم مضيتُ الى محل عملى وأنا أشغل نفسى فى أثناء الطريق بتلاوة سورة ياسين ، كما كان يفعل أبى رحمه الله...

وأبدأ عملى فى المحل بتناول إفطار مكون من رغيف متوسط أضع ثمنه فى الدرج ، وكمية من الفول « المدمس » بالزيت الحار والليمون ، وأختتم هذا كله بكوب من الشاى يأتينى من مقهى قريب . وكان هذا الإفطار يكلفنى ثمانية مليمات لا أكثر. أما طعام الغذاء فكان يكلفنى فى الجملة خمسة عشر مليما . فأنا أتناوله حيناً فى مطعم للخضروات أو فى آخر للعدس والفول النابت ، أو فى ثالث للسمك — السمك الحقيقى وليس « الجزل » المصنوعة من لباب قشر البطيخ — أو فى (مصمت) تفوح منه رائحة الكوارع ورءوس الخراف والعجول وشذى المقانق المحمرة وأريج « الفت » بالارز والخل والثوم ... أما العشاء فكان لا يزيد عن صحن من اللبن الزبادى وقطعة جبن ونصف رغيف وكوب شاى .

وكنت أشعر فى خلال الاسابيع الاولى من حياتى هذه بلون من الترف والسعادة البالغة ، فكان كل شىء أمامى جميلا رائعا ، وكل حديث أسمعه حلوا عذبا ، وكل طعام فى فمى لذيذا سائغا وكل خطوة

أخطوهاأوعمل أؤديه يثير فى نفسى ألوانا من الرضاو المتعةو السرور أما سر هذا كله فلا أدريه تماما . . فلعله الشعور بالثقة بالنفس أولعلها الحرية التى نعمت بها لأول مرة ، أو لعله هذا الاحساس العذب الذى يملأ نفس الانسان حين يعيش لأول مرة فى حياته بعرق جبينه .

(٤)

بعد نحو ثلاثة أسابيع من إقامتى بالقاهرة ، وصلنى خطاب من سيدى الحاج يحمل تحياته ، وتحيات اسرته الكريمة مع أخلص التمنيات وصادق الدعوات . وان يسدد الله خطاى فى حياتى الجديدة ... وكان أرق ما فيه تحية خاصة كتبتها أنسام بخط يدها ، وكان ألطف ما فيه قول سيدى الحاج فى ختامه إن انسام تذكرنى بالبحث عن الكتاب الفرنسى الذى وعدتها به والذى عنوانه « مون با » . ولقد تبسمت لهذه اللفتة الرقيقة من أنسام التى تذكرنى فيها بوعدى لها بالبحث عن أبيها ... وكان من أثر هذه اللفتة أيضا أنها جعلتنى أبحث فى المكتبات عن كتب أدبية من القصص الفرنسى ، فأبعث بها اليها هدية متواضعة منى . ولقد أدى هذا شيئا فشيئا الى شغفى بجمع الكتب الرخيصة الثمن الغالية القيمة من مكتبات كثيرة لبيع الكتب المستعملة : بعضها فى شارع الامير

فاروق ، وبعضها فى احياء الازهر والجمالية . وكنت أجد فى هذه المكتبات المتواضعة « كنوزا » فى الآداب العربية والانجليزية والفرنسية . ولن أنسى يوم اشتريت معجم « المصباح المنير » وقاموس القرن العشرين الانجليزى وجميع مسرحيات شكسبير فى ثلاثة اجزاء، وسبعة مجلات فرنسية للقصص المهذبة : كل هذه الثروة بواحد وعشرين قرشا !

ولقد أفادنى هذا الشغف ـ الذى أصبح فيما بعد هوّية محببة ، فوائد لا تقدر بثمن فى كل ناحية من نواحى الحياة ... ذلك أنى كنت أشعر كلما فرغتُ من قراءة كتاب أو مجلة أدبية أنى أرى فى الحياة جوانب لم أكن أراها من قبل ، وانى أصبحت أقدَرَ على رد بعض الاسباب الى مسبباتها دون غلو أو خطأ كبير فى التقدير .

وكنت أحرص فى السنوات الأولى من دراستى الثانوية « المنزلية » على قراءة بعض ما أجمعه فى خلال العطلة الدراسية . أى بعد اجتيازى الامتحان بنجاح . ذلك أنه لم يكن لدى فى أثناء الموسم الدراسى وقت فراغ كاف استمتع فيه بقراءة كل ما اريد ...

ولقد شكر لى سيدى الحاج ـ وكذلك أنسام ـ هذه الهدايا المتواضعة من الكتب العربية والفرنسية التى كنت أرسلها اليها بانتظام فى كل شهر ... أما « ابو على » فلم أنس أن أتحفه بين الحين

والآخر ببعض القصص المصرية المطولة التى كنت ألتمسها رخيصة من باعة الكتب الجائلين . ولقد قال الحاج فى احدى خطاباته ان « أبو على » أصبح أديبا « شفويا » كبيرا ، وأن انسام أصبحت بعد أن استقرت فى البيت عقب نوالهـــا شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، أقل مشاغبة له ولجدتها . وذلك لإنفاقها معظم وقت فراغها مستمتعة بالقراءة ...

وكنت أكتب على هامش بعض الكتب المخصصة لأنسام عبارة فرنسية ركيكة أؤكد لها بها أنى أحاول — بقدر ما يتسع له وقت فراغى — البحث عن ابيها ...

ولكى أبر بوعدى . كدت أفتح اذنى وعينى كلما رأيت أو سمعت متسولا يستجدى الناس بالغناء أو بترديد المدائح النبوية ... ولكنى لم أر أو أسمع فى خلال الشهور الاولى إلا هؤلاء المادحين أو الزمارين أو بائعى « حب العزيز الربعة بقرش » .

ولهذا السبب نفسه كنت أتجوّل بعد الفراغ من صلاة العشاء فى المسجد الحسينى ، فى هذه المنطقة التى تمثّل مصر فى عصورها الوسطى ... وكنت فى خلال هذا التجوال أستمتع كثيرا بطوافى فى الازقة والمنعطفات والحارات فى سكون الليـل . وكنت أشعر فى كل خطوة أنى أسرى فى عالم مجهول مشوق ، أو انى

رجعت الى هذا الزمن الذى كان الشرق فيه سيد الدنيا ومهد الحضارة.

كنت أسير على غير هدى فى تلك المنعطفات والازقة الضيقة الملتوية التى بقيت كما كانت منذ مئات السنين . وكنت أشعر وأنا اخطو على اديمها كأن أرواح أولئك الذين أقاموها فيها يحفّـون بى ويرونـ مثلى هذه الأنوار الخافتة التى تنساب من النوافذ الصغيرة العتيقة كما كانت تنساب منذ مئات الاعوام ، ويسمعون هذه الاصوات المبهمة الغامضة ، وكأنها أصداء باهتة لما كان يصطخب فى تلك الاحياء من حياة قوية عنيفة .

ولكنى برغم هذا التجوال لم التق بمتسوّل يغنى تنطبق عليه هذه الاوصاف التى سمعتها أنسام فى حديث « الحلاق » مع جدها الحاج . ومن ثم كان يدور بنفسى احيانا أن الامر لايعدو تهاويل خيال من أنسام . أو أنها سمعت هذا الحديث فى ثنايا حلم حسبته ذات يوم حقيقة أو على الاقل لعل الحلاق كان يثرثر مع الحاج بما يعرف وما لا يعرف .

بيد أن هـــذه الشكوك لم تلبث أن تلاشت ذات يوم عند الاصيل ، أى حين سمعت نغمات موسيقية شاذة الإيقاع تنساب من حارة قريبة من المحل يصحبها ـ أى النغمات ـ صوت رجل يغنى على وتيرة واحدة « أنا اللى ضيعت بايدى حياتى... أنا ... أنا... اللى... »

وكان فى نبرات الصوت ، وفى شذوذ النغم الموسيقى ، ما جعلنى أغلق درج النقود بالمفتاح ثم أطلب من عامل محل البقالة المجاورة أن يجعل عينه على محلى ريثما أعود ، ثم أهرع الى هذه الحارة الضيقة التى كان الصوت والنغمات تنساب منها ...

أسرعتُ ماضيا فى الحارة وصوت المغنى يصل الى سمعى من بعيد ... فإذا انثنيت الى منعطف ووجدتُ الصوت يزداد بعداً ، عدت أدراجى وانثنيت فى منعطف آخر .. وبقدر ما كنت استمتع به أثناء سُراى الليلى فى هذه الحارات والازقة المتداخلة الملتوية التى تشبه ما يقال عن بيت « جحا » فقد ضقت بها ذَرْعاً وأنا أمضى وأدور من حارة الى عطفة الى زقاق الى شق دون أن التقى بالمغنى وجها الى وجه ...

ولما دخلت فى حارة ضيقة لا تكاد تتسع لاثنين يسيران جنبا الى جنب ، اختفى الصوت تماما . . فلما حاولت العودة ، ضللت طريقى ، ومن ثم رحتُ أسير على غير هدى حتى ألفيت نفسى فى شارع (بين السيارج) الموصل بين « باب الشعرية » وشارع (سوق الليمون)

وعدت أخيرا الى المحل والعرق يتصبب على جبينى ، فلما أغلقته مضيت الى صاحب المخبز فسلمته الايراد وتركت له المفاتيح شأنى كل

مساء — وتناولت اجرى اليومى ، وعدت إلى غرفتى كاسف البال محزون النفس لفشلى فى اللحاق بالرجل . . . ذلك أنى كنت موقنا تمام اليقين بأنه والد أنسام . . . فماذا أقول لها إذا عدت إلى البلدة يوما وكيف ابرر هذا الفشل ؟

---

(٥)

قضيتُ ثلاثة أيام بعد فشلى فى اللحاق بالمغنى المشرد وأنا مكتئب محزون . . وكان حزنى يشتدكلما فكرت فيما كان سيحدث من خير لو أنى لحقت بالرجل . . . ذلك انى كنت أحتفظ بالجنيهات العشرين الباقية معى آملا أن أستعين بها لشراء ثياب لائقة بوالد أنسام حين أعثر عليه وللعودة به الى البلد مع هدايا مختلفة . . . وكنت أتمنى فى ساعات الخيال لوأن معى بدل العشرين جنيها عشرين ألفا لأهبها له ، حتى يعود إلى زوجته وابنته وأهله جميعا مرفوع الرأس موفور الكرامة مستردا هذه الحياة التى ضيعها بيده . . .

ولكنى نسيت أحزانى هذه حين سمعت فى اليوم الرابع بمأساة جارى عبد الله جاد الاجتماعية وقبل أن أذكر المأساة يتحتم على أن اذكر المقدمات التى أدت اليها :

كانت الغرفة التى أقيم بها احدى ثلاث غرف كما ذكرت من قبل

فى شقة كاملة وكان عبد الله جاد وزوجته وولداه الطفلان يقيمون فى الغرفة الثانية المجاورة لى مباشرة ، وتقيم فى الثالثة سيدة أرملة فى نحو الخمسين من عمرهـــا تشتغل بحياكة الثياب لتعول نفسها واولادها الأربعة . . .

وكان عبدالله من ابناء الوجه القبلى ، استوطن القاهرة وتزوج احدى فتياتها الفقيرات وقنع بعمله كخادم فى عيادة طبيب كبير . . . وكنت اعلم من أحاديثى معه ان مرتبه كله ثلاثة جنيهات لاتزيد ولاتنقص ، ينفقها كلها على مدار الشهر . أما أكثر سكان الحارة ومنعطفاتها (وهم من العمال وصغار التجار وموظفى المحلات التجاريه) فكانوا كما عرفت من حديثى مع بعضهم ، يحرصون أو بمعنى أصح كانت زوجاتهم يحرصن دائماً على أتباع المثل القائل « مَنْ عنده العيش وبلّه : عنده الخير كله » ومن ثم كانت الواحدة منهن تسعد بعض السعادة مادام لدى الأسرة من الثياب مايستر الجسد ، وفى البيت من الدقيق ما يكفى لتعمير « المشنة » بالخبز أسبوعا مقدما ، وفى آخر الشهر مايكفى لدفع إيجار الغرفة أو الشقة الصغيرة . . . .

أما السعادة كلها فهى حين يكون للزوجة زوج مستقيم لا ينفق بعض دخله فى التدخين وفى المقاهى والحانات ، فنى هذه الحالة يتسنى لها أن تدخر على مدار العام مبلغا يكفى لشراء قطعة حلى

ذهبية ، فإذا ألم بالاسرة محنة (كمرض أحد أفرادها أو تعطل الزوج عن العمل بضعة أسابيع أو شهور) باعت الزوجة هـــذه الحلى الذهبية قطعة بعد أخرى حتى تنفرج المحنة ويعود الحال الى ما كان عليه ... وهكذا

أما إذا كان الزوج لا يتيح لزوجته — لسبب ما — فرصة الادخار فإن المحنة تشق الاسرة شقاء كبيرا وتُرغم الزوجة على بيع الأوانى النحاسية (سرا) قطعة بعد أخرى إلا الضرورى جدا ثم تتلوها ببيع ما يزيد عن الحاجة من الأثاث المنزلى . فإذا طالت المحنة ولم تسعفهم رحمة الله فى صورة قلب إنسانى نبيل ، تراكم إيجار المسكن ، فإذا كان صاحب البيت طيب القلب ميسور العيش انتظر حتى يغير الله حالا بعد حال ، وإذا لم يكن فانه ينذرهم بإخلاء المسكن ، وقد يشتد فى طلب حقه ويوقع الحجز على ما تبقى من متاع قليل ثم يطرد الاسرة خالية الوفاض من كل شىء الى الشارع...

فاذا كان لهذه الاسرة المنكودة أقارب ميسورو الحال، لجأوا اليهم الى حين وإلا ففى مزالق الآثام ومهاوى الشر وأحضان الرذيلة متسع لأمثالها ...

وأعود إلى مأساة عبد الله جاد ، فأقول إنى فوجئت حين عدت الى غرفتى فى مساء اليوم الرابع ، ورأيت آثار الدموع فى

عين زوجة عبد الله وهى تسلمنى المفتاح « فقد كانت تصر على تنظيف غرفتى أثناء غيابى بحكم الجيرة وصداقتى لزوجها ، وكنت مقابل هـــذا أحمل لوالديها بين الحين والآخر بعض الفاكهة والحـــلوى » .

ونظرت الى وجهها الشاحب المعروق ، وإلى عينيها المتورمتين لفرط البكاء ، وقلت وأنا اتنـــاول مفتاح الغرفة من يدها — كفى الله الشر يا أم جابر ... ماذا حدث . خيرا ... ! ؟

فعضّت المرأة على شفتها ، ثم أرسلت نظرات مختلفة الى غرفة جارتنا ام ابراهيم الخياطة . فلما اطمأنت الى انها مشغولة بعملها ، وأن صرير آلة الخياطة يمنعها من سماع الحديث ، قالت والدموع تجول مرة أخرى فى عينيها الخابيتين — (حجزت صاحبة البيت على عفشنا القليل ... قسمتنا ...)

فشحب وجهى وأحسست فجأة أن الأرض تميدبى، وأن روح أبى تلفنى فى سمائها، وأنى خرجت فجأة من رحمة الله والناس. وراحت الافكار تعصف برأسى عنيفة قاسية ، كيف أكون جارا لهذه الاسرة، لا يقوم بينى وبينها غير جدار واحد ، ثم لا أفطن الى هذه المحنه التى ألمت بها ! . . كيف غفلت أو خجلت عن الاستفسار من عبدالله عن سبب تناقص متاع غرفته حينا بعد حين، مع أنى كنت ألمح هذا التناقص كلما دعانى

الرجل الى تناول قدح شاى معه ! كيف لم افطن الى ما يعانى من شدة وأنا ألمح عوامل الحزن واليأس تتوضح فى عينيه يوما بعد يوم ، والى مايبدو على الزوجة والطفلين من هزال وضعف اسبوعا بعد آخر . . ؟ ثم كيف أخيرا أروح وأغد وممتلىء البطن راضى النفس حاملا فى صدرى عشرين جنيها كاملة بينما هذا الجار الودود الوفى يبيت مع زوجته الخدوم وطفليه الرقيقين أكثر الليالى على الطوى . . .

أمرت الزوجة البائسة ان ترسل الى زوجها عند حضوره ثم اسرعت الى غرفتى وأغلقتها على نفسى ووضعت رأسى بين يدى وشعرت ان قطعا من نفسى تتهادى ألما وحزنا كلما ذكرت احساس الطفلين البريئين حين يجوعان ، فلا يجدان مايشبع جوعهما واحساس الوالدين حين يريان شبح المصير المظلم القاسى الذى يتربص بهما . . .

ولما ذكرت عفة الرجل وصبره على المحنة دون ان يشكو لمخلوق أحسست بالدموع تطفو الى عينى إشفاقا واعجابا . وفيما أنا هكذا اذ بطرق خفيف على باب الغرفة ، فلما فتحته دخل عبد الله برأس مطرق ووجه شاحب فحيانى بصوت خافت ثم جلس فوق حصيرة على الارض دون ان ينبس بكلمة

وبعد ان شربنا معا قدحين من الشاى رحت اعتب عليه فى رفق موقفه منى وامتناعه عن ذكر محنته لى حتى نتعاون معا فى الخروج منها ، وقلت له إنه ما من محنة أو شدة أو معسرة يتعاون عليها اثنان متحابان فى الله ولله ويملأ الاخلاص قلبهما إلا أذن الله لهذه المحنة أن تنفرج أمامهما . . . واخيرا قال وهو يضع رأسه بين يديه :

كيف اطلب معونتك وأنا اعلم برقة حالك أما يكفى تنازلك بصداقتنا وهداياك لولدينا .

فقلت وأنا أحاول الابتسام :

— ومن أدراك انى لا أملك مالا يفيض عن حاجتى . . . ؟

وفيما كانت بوادر الأمل والدهشة تملأ وجهه ، كنت اتناول كيس نقودى المعلق فى خيط متين الى صدرى وأفتحه أمام عينيه الذاهلتين وأخيرا مسح جبينه وتمتم :

— هل . . . هل . . . هل ... يمكن .. أن تقرضنى سبعة جنيهات ...

— بل عشرة اذا شئت . . .

فرفع طاقيته عن رأسه وعبث بأصابعه فى شعره القصير الجعد مرتبكا وقال :

ـــ يا ألطاف الله . . . من كان يصدق هذا ... من كان ... سبعة جنيهات فقط يا أخى . . . إنهاستحيينى بإذن الله من جديد... فمنذ أن تعطلت بعد وفاة الطبيب الذى كنت اعمل عنـده ، وأنا أحاول عبثا الحصول على خمسة جنيهات كاملة . . . أدفع منها جنيهين (خلو رجل) لمحل صغير فى اول الحارة . . . وأسددبجنيه ونصف قيمة ايجار الغرفة المتراكم واشترى بالباقى سلع خفيفة كالسجاير والحلوى والفول المدمس والبليلة فأتجر بها فى المحل . . .

وما أحسبنى قادرا على وصف هـذا التحول المفـاجئ من اليأس القاسى الى الامل المحيي،من الحزن المروع الى الهناءة السابغة، من الحيرة القاتلة الى الاستقرار البهيج ... فكلما تمثلت فى وجه عبد الله وهو يتناول بيدمرتعشة الجنيهات السبعة ، ويتمتم فى ذهول ودهشة :

ـــ يا ألطاف الله . . . يا ألطاف الله . . .

ونهض عبد الله بقامته الفارعة ووجهه الأسمر الغائر الوجنتين وجسمه المفتول العضلات ، وشد على يدى شاكرا بعينيه ـ دون ألفاظ وكل خلجة فى وجهه ، إعتراف صارخ بالجميل .

أبى . . .

لقد قلتَ لى قبيل وفاتك إن النفس الانسانية مطبوعة على

الخـــير . . . وليس أدل على ذلك من احساسها العميق بالرضى والسرور كلما وفقت الى اسداء الخير للناس . . . وأنا أضيف أيها الوالد التقى ، وأقول إن فيض الهناءة الدافق فى نفس الانسان حين يصنع الخير ، يزيد أضعافاً مضاعفة عما تزخر به قلوب الذين أُسدى الخيرُ اليهم ؛ وأن هذا على الأقل هو ما شعرتُ به حين آويت الى فراشى فى تلك الليلة ، وأنا أشد هناءة وسعادة من جيرانى، هؤلاء الذين باتوا لأول مرة فى حياتهم — بعد شهور طويلة — وأطياف الأمل البسام ترفرف حولهم .

---

(٦)

ترددت كثيرا — يا أصدقائى — فى كتابة هذا الفصل الذى يتناول جانبا خاصا من مشاعرى واحساساتى ، ولكنى رأيتُ أخيرا أن واجبى نحوكم يحتّم علىّ أن أكون أمينا فى السرد . فلا يجوز بتّة أن أبرز النواحى الطيبة فى حياتى ، وأخفى ما دونها ..

كانت الفترة التى انصرمت منذ استقرارى فى العاصمة ، حتى اجتيازى بنجاح — امتحان الدور الأول للنقل الى السنة الثالثة الثانوية ، زاخرة بشىء غير قليل من الرهبة والخوف من الفشل ، والرغبة فى النجاح ، والعمل على ضمان الاستقرار ، واستغلال

اوقات الفراغ فى استذكار الدروس ، والبحث عن والد أنسام ساعة وبعض الساعة كل مساء ، ثم الوحشة التى كنت أعانيها برغم عطف الجيران والاصدقاء الجدد . فكان هذا كله سبباً لخفوت هذه المشاعر الجديدة العنيفة التى كانت تضطرب بهـا نفسى بين الحين والآخر ، والتى كانت تجعلنى أشتهى المرأة فى أية صورة اشتهاء ملحا عنيفا .

فلما فرغتُ من الامتحان — واثقا بالنجاح — بدأتْ هذه المشاعر العنيفةُ تجتاحُنى بضع مرات فى اليوم الواحد ، فتثقل على وتُرعد اطرافى وتدفعنى قَسْرا ألى الحملقة فى النساء والفتيات أينما رأيتهن . وكانت حملقتى مزيجاً من الاشتهاء واللهفة والانفعال العنيف .

ومما زاد حالتى هذه سوءًا أنى لم أجد من ألجأ اليه فألتمس منه عونا أو تفسيرا مقنعا لهذه الإحساسات الجديدة الطاغية يخفف به بعض عنائى منها ، ولكنى كنت أشعر بالراحة النفسية والبدنية فى الصباح عَقِب صلاة الفجر وتلاوة جزء كامل من كتاب الله . ثم أظل على هذه الحالة النفسية المريحة خلال انشغالى بحركة بيع الخبز فى ساعات الصباح الاولى . فإذا خفّ البيع عند الضحى أقبلت نبوية — ابنة بائع شراب الخروب فى المنطقة — فاشترت

كعادتها كل يوم عشرة أرغفة متوسطة بقرشين ونصف ، ثم وقفتْ تتحدث معى بشفتيها وعينيها وحواجبها وصدرها وكتفيها . وقد بدأتْ حديثها معى فى أول الامر قصيراً سريعاً ، ثم أخذتْ فتراته تطول حتى كانت الفتاة تقف تتَحدث معى نحو ساعة كل يوم . وكانتَ على فقرها جَميلة مشيقة القوام ممتلئة الجسم واسعة العينين ، ناعمة الشعر ، فى صوتها رخاوة وميوعة . وكان يستهْوينى من حديثها آخر الاخبار عن الحارة التى تقيم بها ... فهى تحدثنى عن احدث المعارك اللفظية والملاحم البدنية التى كان أهل الحارة من الجنسين يصطنعونها اصطناعا ليزْجوا بها وقت الفراغ . وهى تقص علىّ ما تم وما سيتم من خطوبات وحفلات زفاف بين شبان الحى وفتياته . وكان يبدو فى عينيها — وهى تتحدث عن هذا الأمر — نظرات حالمة ناعمة حينا ، قوية ثائرة حينا آخر ... وكانت تعليقاتها المرحة الساذجة عن هذا كله تزيدنى ميلا الى حديثها ...

وأعترف أنى كنت أستشعر بمتعة بالغة وأنا أسمع حديثها ، وأتأمل وجهها وحركاتها ، وانتشى برنين ضحكاتها . وكان يصحب هذه المتعة دائما هذا الإحساس العنيف الذى كان يشقينى فى فترات منقطعة أثناء النهار ، إلى أن تهدأ نفسى مرة أخرى حين

أفرغ من تلاوة جزء ثان من كتاب الله قبيل النوم ...

وكان يشوب هذه المتعة الثائرة التى استشعرها من حديث نبوية ورنين ضحكها ، ومن النظر اليها والاحساس بقربها ، نوازع مختلفة . فأنا أعتبر هذه المشاعر خيانةً عظمى لما أكنه لأنسام من حب واحترام واعجاب ، وخروجا على الخلق الكريم — الذى كنت أرجو أن أتسم به — ومخالفة للدين الذى ينهى عن النظرة غير الكريمة الى المحارم من النساء ، وامتهانا لكرامة المحل الذى جعله الله سببا لرزقى . ثم أنا لا أملك نفسى برغم هذا كله ، من الشعور بهذه المتعة بل وانتظار الساعة التى تأتى فيها نبوية بفارغ الصبر ...

وَنشَبَتْ فى جوانب نفسى حربٌ عاتية بين شعورى بهذه المتعة ولهفتى عليها ، وبين هذه النوازع المختلفة . وأخيراً شاء الله أن يشملنى برحمته ، فإذا نبوية تتخلّف عن الحضور يوميا إلى المحل ، وذلك بعد أن تمتْ خطبتها الى « سباك » شاب ، فأصبحت مشغولة مع أهلها فى تجهيز معدات الزفاف .

على أن خروجى من هذه الحرب بغير انتصار أو هزيمة ، دفعنى مرة أخرى الى هذا اللون العنيف من اشتهاء المرأة فى أية صورة ... ســـواء كانت صبية أم عجوزا ، فقيرة أم متوسطة (فأنى لم أكن رأيت الغنية فى تلك الايام) ، متحفظة فى

ملابسها أم مستهترة ... فقد كانت النساء جميعا هدفاً تتركز حوله مشاعرى هذه ... عليها اللعنة .

وكان أشد ما يلهب هذه ، المشاعر اللعينة ، ويزيدنى بها شقاء ومتعة ، رؤيتى بعض نساء الحارة التى أقيم بها ... فقد كن يجلسن على عتبات البيوت جلسات لا تمت الى الحشمة والتحفظ بسبب ... فإذا مر عليهن رجل استقمن واعتدلن ، أما إذا مررتُ أنا فإنهن يبقين فى أوضاعهن هذه وكأنى فى نظرهن غلام ساذج ريفى ، لا يفهم شيئا ولا يحسُّ بشئ ... والله يشهد أنى كنت أبذل أعنف الجهد لأغض بنظراتى وأشيح بوجهى ، ولكن هذه المشاعر الثائرة كانت تدفع بنظراتى اليهن دفعا لا سبيل الى مقاومته . . .

ولما عييت بهذه الحرب الضروس المستعرة فى نفسى بين النوازع الكريمة ، والمشاعر الطاغية ، آثرت أن أعرج على عبد الله عند عودتى من المحل ، فأبقى معه فى متجره الصغير حتى يفرغ ونمضى معا الى البيت .

. . . .

وكانت تجارة عبدالله المتواضعة قدازدهرت وبارك الله فى رزقه، فاستطاع فى بضعة أشهر أن يسدد الىّ الجنيهات السبعة، وأن يزين معصم زوجته ببضع أساور ذهبية ، وأن يسعد ولديه بأطايب الحياة . . .

وكان يجلس على باب محله كل يوم بعد الغروب شيخ معمم، له لحية بيضاء، ويبدو على وجهه سمات التقوى والصلاح. ولا تكف أصابعه عن تحريك حبات مسبحته ـ حمدا لله وتسبيحا وصلاة على نبيه الأمى وتسليما ...

وكان يتبادل وعبد الله فى ساعات الفراغ بعض الأحاديث، لاسيما ما يتعلق منها بالدين. وشاء حسن طالعى أن يتفرع الحديث ذات مساء الى المسائل الزوجية وعلاقتها بالدين ... فقال الشيخ ممتعضا :

ـ لقد علمت ياعبد الله ـ يا والدى ـ أن أحد سكان هذه الحارة ولا داعى لذكر اسمه حتى لانقترف الغيبة ، يغادر بيته فى الصباح أحيانا وهو (جُنُب) والعياذ بالله؛ كأنى به لايعلم أن هذا مخالف للدين وللخلق القويم وأنه يؤدى الى الفقر والعياذ بالله ....

ولما سألتُ الشيخ عن معنى كلمة « جنب »، رفع أصابعه الى لحيته يمسح عليها، وراح يحدق فى وجهى بنظرات فيها دهشة واستنكار. أما عبد الله فقد ضحك وأكد للشيخ أنى لا أقصد من سؤالى العبث أو السخرية، وانما أنا جاهل حقا بمعنى الكلمة ...

وعندئذ قال الشيخ :

ـ كيف هذا ياممدوح ياولدى ... أتكون فى نحو السادسة عشرة ولا تفهم هذه المسائل والعياذ بالله .

قلت ـ بل انى فى السابعة عشرة ...

قال ـ وهذا ألعن وأضل سبيلا ... بعد شهور معدودة ستتم الثامنة عشرة بالتاريخ الهجرى وهذا يعنى ـ ياممدوح ياولدى أنك ستكون مكلفا بأداء فرائض الله على وجهها الصحيح ...

ولمامضى يشرح بعبارات مهذبة معنى كلمة «جنب» ودلالتها تضرج وجهى احمرارا وأطرقت برأسى فى خجل شديد ، وذكرت فجأة انى كنت فى الأشهر الأخيرة أنهض فى صباح بعض الأيام وأنا أحس بشى من الانتعاش النفسى والبدنى ، ثم أجد فى ثيابى الداخلية آثاراً غريبة لم يكن لى بها علم ... ولشد ما كان فزعى وألمى النفسى حين قال الشيخ إنه لايجوز « للجنب » ان يمسك المصحف الكريم أو يؤدى الصلاة حتى يغتسل ويطهر . . .

ويبدو أن عبدالله لمح ماظهر على وجهى من اضطراب وانفعال ، فابتسم وقال للشيخ :

ـ ولكن لممدوح افندى عذره . . . فقد كان جاهلا بهذه المسائل ... وهو لم يبلغ بعد سن التكليف . . .

فقال الشيخ وقد لمح أيضا شدة ما أنا فيه :

ـ لاعليك ياممدوح ياولدى... إن الله غفور رحيم ... والدين يسر لاعسر ... ويحسن ياولدى أن تتردد بين الحين والآخر على المساجد التى يقوم فيها بعض الصالحين بالوعظ والارشاد ... كما يجدر بك أن تطّلع على بعض الكتب الدينية التى تصدرها وزارة الاوقاف وبعض الهيئات الدينية المعترف بها ... هداك الله وإيانا الى طريق الخير ....

. . . .

دفعنى هذا الحديث الى البحث عن بعض الكتب الدينية المبسطة والى مطالعة بعض الكتب العلمية المهذبة، التى تشرح وتعالج هذه المشاعر الجنسية . وأنى لأعتقد تماما ان هذا الحديث العابر فى تلك الليلة، كان نقطة التحول فى حياتى الصحية . فأنى لم أكن ادرى ماذا كان سيصير إليه أمرى لولم أقرأ هذه الكتب العلمية الطبية . ذلك أنى كنت أشعر بعد قراءة كل كتاب بقوة نفسية عجيبة تحد من هذه المشاعر الطاغية وتأسرها وتخفف من عبثها بى . وكان أبلغ وأروع ماقرأت فى كتاب من هذه الكتب قول المؤلف :

« إن عظماء بنى البشر وفى مقدمتهم الانبياء والمرسلون هم الذين عرفوا كيف يسيطرون بعقولهم وقوة إرادتهم على مشاعرهم الجنسية »

وكان في الكتاب نفسه ارشادات وتعاليم مختلفة تُعين من كان مثلي على ممارسة هذه السيطرة . وأذكر من هذه الارشادات وجوب اشتغال الشاب - فى وقت الفراغ - باحدى الهوايات المفيدة كالرسم أوالتصوير أوالخطابة ، أوالموسيقى أوالنشاط الاجتماعى، أوقرض الشعر ، أو التأليف ، أو الرياضة البدنية . . .

ولقد اخترت لنفسى هوّية الرياضة لما قرأت عن فوائدها المتعـــددة ؛ ومن ثم اشتريت كتبا تشرح لى بعض قواعدها . وأوكد لكم يا أصدقائى أنى غدوْتُ بعد ستة أشهر فى تمرينات صباحية بمصاحبة اثقال من الحديد - لا يزيد وزنها عن عشرة كيلوجرامات - شخصاً آخر - ... مفتول العضلات عريض الكتفين ، يترقرق فى وجهه ماء الصحة والحيوية والشباب المبكر، إذا سرت فكأنما أسير على أرض من المطاط أو على أديم من الهواء لفرط ما أشعر به من خفة وقوة ، وإذا نمت استغرقت فى نوم عميق وإذا أكلت خيل إلى انى لن اشبع أبداً ... وكان هذا الشعور الأخير هو النقطة السوداء فى اللوحة المضيئة .

---

(٢)

كنت جالساً فى عصر يوم الجمعة - وهو يوم عطلتى الاسبوعية -

مع صديقى عبد الله فى متجره . وكنا نتدارس معا بعض شئون هذا المشروع الجديد الذى فكر فيه عبد الله قبل ذلك بشهرين . وكان هذا المشروع بسيطاً فى مظهره جليل النفع فى جوهره . وكان يتلخص فى مساهمة كل منا بعشرة جنيهات ثم تخصيص هذا المبلغ (أى العشرين جنيهاً) لمنح قروض صغيرة للفقراء من أهل الحارة، بحيث لا تزيد قيمة القرض عن ثلاثة جنيهات . ولما انتشر نبأ هذا الموضوع بين السكان ، انقسموا فى أمره فرقا : فمنهم من شكر لعبد الله هذه الفكرة الخيرية النبيلة . وزاد على شكره بالمساهمة فى المشروع بمبالغ متفاوتة ، ومنهم من ظن أن وراء هـــذا كله أهدافاً يريد عبد الله بلوغها ، ومنهم من زعم أن عبد الله ، افتتح « بنك » رهونات بالربا الفاحش ، ومنهم من راح يسخر من المشروع ويتوقع فشله مؤكداً أنْ ليس فى هذه الدنيا من يعمل الخير لوجه الله .

على أن الاسابيع القليلة التى انصرمت على البدء فى هذا المشروع، أثبتت للجميع ان عبدالله ـ وأنا ـ لم نبغ إلا معاونة إخواننا فى الإنسانية بهذه القروض اليسيرة ، وإننا لانلتمس الشكر من أحد أو حتى الثواب فى الآخرة ...

وازداد رأس المال فى هذين الشهرين إلى أربعة وخمسين

جنيها ـ بعد أن ساهم فيه عشرة أشخاص من أهل الحارة الميسورى الحال شيئاً ـ وكنا نُقرض كل من تنزل به نازلة أو يُبتلى بمحنة لا يدرى كيف ينجو منها .

وفى خلال هذين الشهرين لم يحاول أحد المقترضين أن يراوغ فى دفع الاقساط الاسبوعية الواجبة عليه . وكانت هذه الاقساط لا تزيد عن عشرة قروش وقد تقل إلى قرشين .

ولما أوشكت الشمس على المغيب فى يوم الجمعة هذا الذى أتحدث عنه ، طوينا دفاتر الحساب التى نظمتها مع عبدالله وقلت له باسما مغتبطا .

ـ لن ينتهى هذا العام يا سيد عبد الله حتى تكون محاسباً بارعاً .

فقال إننى أظل أحياناً ساهراً أفكر فى أحسن الوسائل وأيسرها لتنظيم الدفاتر وترتيب الاسماء ومواعيد القرض وفترات السداد . فيا ألطاف الله على ما بلغنا من توفيق .

فقلت ـ أرجو الا يشغلك هذا الأمر عن النظر فى تجارتك . . .

فأشرق وجهه فجأة وقال :

ـ لعلك أحسست بالسعادة التى تملأ قلب الإنسان حين يفرج كرب مكروب ، وإنى وألطاف الله . لأخجل من نفسى حين يطغى

الفرح على كلما رأيت نظرة شكر فى عينى امرأة كاد الحزن يقتلها أو بسمة اعتراف بالجميل تتألق على شفتى رجل كاد المرض بصرعه، وهو لا يجد أجر العلاج .

ولماذا أسهب فى وصف مشاعرى وأنت أدرى بها بعد الذى كان منك إلى . . .

ثم وجم فجأة وبدت نوازع القلق والحيرة على وجهه وهو يستطرد :

— ولكن هناك أمر يقلقنى يامدوح افندى . . . إن أهل الحارة جميعاً أصبحوا يخصوننى بالمعاملة حتى صرت أخشى أن يكون فى هذا المشروع لون من الربا غير المباشر . فلولا اقتراضهم منى لما أقبلوا علىّ هذا الاقبال ، ولما راجت تجارتى كل هذا الرواج .

فقلت وقد وجدت فى نفسى صدى لمشاعره :

— ألم تستشر سيدنا الشيخ بيومى فى هذا الأمر ؟

— نعم . . . فعلت . . . قال إن اقبال أهل الحارة على معاملتى لا يعتبر ربا بأى حال مادمت لا أستغل هذا الاقبال وأفرض عليهم سلعاً بأثمان مرتفعة . . .

— وهل تفعل هذا ؟

ـ أقسم لك يامدوح افندى أنى أبيع بأقل ربح ممكن ، بل وبدون ربح فى بعض الاحيان . . . فابتسمت سعيداً وقلت :

هذا إذن بغير شك سبب إقبال الناس عليك . . . ومهما يكن من أمر فإن ما ينالك من خير هو بعض ما تسديه إلى الناس من خير . . . وهذا هو البون الشاسع بين القرض الحسن والآخر السيء . فأنت بالأول قد اكتسبت مودة ، وهو كسب لا يقدر بمال ، ونتيجة لهذه المودة راجت تجارتك . يضاف إلى هذا كله سعادتك الروحية إذ جعلك الله ملاذا للمكروبين من جيرانك وأهل حارتك .

فتمتم عبد الله وهو يشيح بوجهه قليلا :

يا ألطاف الله . . . من كان يصدق أن سبعة جنيهات تصنع كل هذا . . .

. . . . .

وقبل أن أرد عليه طرقت سمعي فجأة هذه النغمات الموسيقية ذات الإيقاع الشاذ ، مصحوبة بهذا الصوت الذى يردد على وتيرة واحدة « أنا اللى ضيعت بايدى حياتى . . . أنا . . . أنا . . . أنا . . . اللى »

فلما انتصبت واقفاً أتلفت حولى قال عبد الله مدهوشاً :

ـ يا ألطاف الله . . . ماذا حدث يا ممدوح افندى . . .

قلت وأنا أرهف السمع :

لا شئ . . . ولكن . . . ألا تعرف من أين يأتى صوت هذا المغنى . . . ؟

فارتسمت على وجهه الاسمر العريض بسمة هادئة وقال :

— إنه « الباشا » . . . ألم تره من قبل . . . ؟

— « الباشا » . . . ؟ لا . . . لم أره طبعاً . . .

— حسنا . . . انتظر . . . لسوف يمر أمامنا الآن . . . ان الصوت يقترب . . .

فاستندت الى عضادة البـاب وقلت وأنا أحاول جهدى ان اسيطر على نبرات صوتى :

— هل اسمه « الباشا » . . . أم . . . ؟

— هكذا يسميه الناس ... إنه رجل عجيب ... كله شذوذ ... فإنه برغم الفاقة الشديدة يبدو « ابن ناس » ويبدو أنه مصاب فى عقله أو فى أعصابه بما يجعله يدور فى الشوارع هكذا . . . يغنى مقاطع مختلفة من أغنيات معروفة وغير معروفة . . . وفى صوته المتهدج كما تسمع ، وفى منظره كما سترى ، ما يدفع الناس إلى الاحسان اليه . . . ولكن الغريب فى أمره انه لايمد يده إلى احد . . . ولهـذا السبب يضع المحسنون نقودهم فى جيب سترته .

فقلت فى ذهول — أى سبب . . . ؟ !

فصمت عبدالله برهة كأنما يحاول أن يعبر عن افكاره بعبارة مناسبة ، ولكن قريحته لم تسعفه الا بهذا المعنى »

بسبب تصرفاته التى تذكر الناس المثل القائل « حسنة وانا سيدك »

فلما أومأت اليه باسما استطرد يقول :

والعجيب أن الجميع مع هذا كله يحترمونه . . حتى «عفاريت» الحارة الذين يشاكسون طوب الارض لايحاولون أو لعلهم لايجرءون أن يمكروا به أو يركبوه بالعبث . وما من سيدة تسمع صوته حتى تترك مافى يدها وتسرع الى الباب أوالى النفذة وتنصت اليه . ولا أدرى وألطاف الله السر فى هذا ! وبينما عبدالله يتحدث كان صوت المغنى يقترب شيئا فشيئا . وفى مدخل إحدى الحارات المتفرعة من الشارع ، رأيته على ضوء المصابيح الزرقاء (فقد كانت قيود الاضاءة بدأت بسبب الحرب) شبح رجل فى ثياب افرنجية يحمل معزفا فى يده ، ويلعب عليه بيده الأخرى فى حركات منتظمة . وكدت أن اكذّب عينى وسمعى حين خُيّل لى أن شيئاً من الهدوء قدران على ضجيج الشارع وأن الناس يفسحون الطريق أمام الرجل وهم ينظرون اليه فى حب ورثاء . . .

ولقد صدق عبد الله حين قال إن فى صوت الرجل مايمس القلوب ، وفى منظره مايدفع الناس الى الاحسان اليه ، مع الشعور باحترام أحزانه وآلامه . . .

كان يسير فى وسط الشارع ذاهلا عن كل شىء غير حافل بأحد .. وكان المعزف الذى فى يده غريباً فى مظهره . . . فلا هو بالمزهر « العود » ، ولا هو بالكمان ، ولا هو بالقيثارة ، وإنما هو شىء من هذا كله . وكانت بين أصابعه ريشة تمر على الأوتار فى ضربات منتظمة ، أبعد ما تكون عن اصول العزف ، ولكنها كانت تتساوق مع نبرات صوته وطريقته فى الغناء . وكانت الألفاظ تنساب من شفتيه بنغمة موزونة على وتيرة واحدة ، وكانت المقاطع التى يرددها مقتبسة من أغان معروفة وغير معروفة — كما قال عبد الله — ولكنها كانت كلها تدور عن الذى ضيّع حياته بيده ، وعن الحب والتضحية فيه ، وعن الخمر التى هى داء ودواء ، وعن الهجر وعذابه ، والوصال ونعيمه ، وعن الدنيا المغرورة وتقلّبها ، وعن الفقر بعد الغنى ، والشقاء بعد النعيم ، وعن الآمال التى تهاوت ، والأمانى التى انهارت ، والأيام السعيدة التى ولت والأصحاب والأحباب الذين تقطعت بينه وبينهم الأسباب . . .

وكان يختم كل بضعة مقاطع بعبارة موزونة تتفق فى القافية

مع الكلمة التى يرددها دائمـــا

« انا اللى ضيعت بايدى حياتى ... انا ... انا ... انا ... اللى »

كان الناس ينظرون اليـه برهة وهو يمر أمامهم ، ثم يتابعون سيرهم وهم يهزون رؤوسهم أسفا وحزنا ، وكانت تلك أول مرة أرى فيها بعضا من أهل هذه العاصمة الكبيرة المتكبرة ، يبدون شيئا من الأسف والحزن على متسول بائس . . .

واقتربت من الرجل فى شيء من التردد . لأضع فى جيب سترته قطعة نقود ، كما فعل بعض الناس . ولما تأملت ملامح وجهه عن كثب ، زال كل ما كان يتردد فى نفسى من شك ضعيف . فقد توضح لى عن يقين لا سبيل إلى الريبة فيه ، أن هـــذا المخلوق المشرد . . . هو والد أنسام . . .

كان وجهه ناحلا ملونا بالشمس ، مغبرا يلمع جبينه بالعرق ، غير حليق ، عيناه نصف مغمضتين ، يشيع الذهول وشرود الفكر فى سماته ، تشبه ملامحه فى مجموعها ملامح أنسام إلى حد كبير . . . فلو أنهـا سارت بجانبه فى تلك اللحظة لأدرك الناس أنها ابنته ـ برغم مابين مظهريهما المادى من تفاوت .

لم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول له فى أول الأمر . ومن ثمة لم يسعنى إلا السير على مقربة منه ، حتى يفتح الله على بالقول المناسب .

أن عبد الله أدركنى وأمسك بذراعى وقال فى دهشة :

— يا ألطاف الله . . . هل سحرك الرجل يا ممدوح افندى؟

فقلت له فى صوت جاد حزين :

— سأخبرك فيما بعد . . . ولا تقلق إذا تأخرت الليلة عن موعد صلاة العشاء . . .

وحاول عبد الله أن يستأنف الحديث ولكن شيئا فى ملامح وجهى ، جعله يخلى ذراعى ويعود ادراجه وهو يتمتم مدهوشا « ياألطاف الله . . . »

مضيتُ فى طريق وراء شاكر «بك» أو « الباشا » المتسول وأنا أدبر فى نفسى ما يجب أن أحدثه . به ومالا يجب . وكنت المح دائماً خلال الطريق هذه النظرة الحزينة المشْفقة فى عين كل من يراه . وقد بلغ الذين «احسنوا» اليه فى المسافة بين حارة «المبيضة» بالجماليه الى ميدان « باب الشعرية » نحو أربعين شخصا . فلوان كلا منهم دفع اليه بمليمين فى المتوسط لبلغ ايراد « الباشا » فى هذه الفترة الوجيزة نحو عشرة قروش . . .

ولعله من هذه الناحية « باشا » حقيق .

وعند أول ميدان « باب الشعرية » بالقرب من شارع الخليج رأيته يتوقف ثم يطوى معزفه تحت ذراعه الأيسر ويضع الريشة

فى جيب سترته الاعلى ، ثم يبقى فى وقفته ينظر بعيون ذاهلة الى قضبان الترام . فلما انسابت قاطرة ترام أمامه ، رأيته يخفى وجهه بيده وقد انتفض جسمه انتفاضا شديدا .

ولست أدرى لماذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ، فأمضى اليه وأقدم له يد المعونة إنْ كان فى حاجة اليها ، ثم أشتبك معه فى حديث قد يؤدى فى النهاية الى المودة والتعارف . ولكن يبدو أنى كنت مشغولا بمراقبته ، فلم افكر انتهاز سوانح الفرص .

وتقدم اليه بائع يانصيب فتناول ذراعـــه بهدوء وعبر معه الميدان المزدحم المضطرب إلى أول شارع « الخراطين » ثم تركه ومضى فى سبيله . وعندئذ خطر لى أن اتقدم بدورى فأضع ذراعى فى ذراع « الباشا » كما فعل بائع اليانصيب . فما أن بدأت فى تنفيذ هذا الخاطر حتى التفت المسكين الىّ مفزعا مروّعا ، وحدق فى وجهى بعينين تصارع فيها الخوف والالم ، ثم جذب ذراعه من يدى فى عنف وانطلق مسرعا . . .

واسرعتُ أتبعه وأنا أخشى أن يظل ساريا فى شوارع المدينة ساعات متواصلة حتى يبلغ المكان الذى تعود فيه أن يبيت لياليه ولكنى أزمعت أن اتبعه ولو سريت معه الليل كله . . . على انى لم ألبث ان رأيته يدخل فى حى الرويعى بابا تكتنفه الظلمة وتشيع

منه رائحة كريهة ، كالتى تنبعث من حانات الخمر الرخيصة .

ووقفت بهذا الباب مترددا لا ادرى هل أدخل وراءه ام ابق منتظرا خروجه انكان سيخرج . وكنت فى خلال وقفتى المترددة أسمع غمغمة أصوات ثقيلة وأنات خافتة وضحكات مجفونة مضطربة ملتوية،وفيما أنا كذلك ، رأيت رجلا فى سن الكهولة عارى الرأس حافى القدمين ، يستر جسده الناحل بجلباب أزرق مهلهل يدخل الباب كأنه شبح مجسم للجهل والفقر ، ويختفى فى هذا الظلام الذى تنساب منه هذه الرائحة الكريهة وهذه الاصوات المختلفة المضطربة الثقيلة .

ولمحتُ بجانب الباب ـ خارج البناء نافذة لا ترتفع عن أرض الشارع الا قليلا ، عليها شبكة وقضبان حديدية فلما تسللت اليها واختلست النظر منها ، رأيت أنها لقاعة كبيرة شيئا ... يتكاثف فى جوها ضباب التبغ ورائحة الخمر والعرق ودخان المصابيح البترولية ذات الزبالات المرتعشة وكانت الأضواء التى ترسلها هذه الزبالات تتراقص خافتة على مناضد طويلة خشبية،جلست اليها مخلوقات آدمية ترمز فى صورة محزنة أليمة إلى أسفل ما قد يصل اليه إنسان فى رأسه عقل، وفى صدره قلب،وبين جوانبه روح ،هى قبس من روح الله .

كانت أمامهم أقداح الخمر الرخيصة مترعة أو فارغة، بجانبها صحاف

قذرة بها طعوم مختلفة أشد من الخمر رخصا ، يدور عليهم بها ساقى لا يختلف عنهم قذارة وبؤسا . وكان بعضهم يلهو بلعب الورق ، وبعضهم يرسل هذه الاصوات البغيضة المنكرة ، وهذا الغناء الثقيل الملتوى ، وبعضهم يطلق غطيطا مخموراً وهو من الخمر بين اليقظة والذهول ، وكان واحد منهم يفرغ ما فى جوفه تحت إحدى المناضد . . .

ورأيت « الباشا » جالسا بمفرده الى المنضدة فى شىء من الكبرياء يحسو الخمر من قدح زجاجى ويمد أنامله حينا بعد حين الى صحن من الخزف فيه شىء من الطعام الرخيص . وتراجعت أخيرا عن النافذة وبقيت منتظرا خروجه فترة لم أدر مداها على التحديد . فلما رأيته أخيرا يخرج من الباب المظلم مترنحا وبجانبه رجل قصير عجوز أشد ترنحا منه . تنفست الصعداء وسريت اتبعهما من حارة الى أخرى حتى اجتازا شارع الجيش ، ودخلا الى هذه الحارة التى عرفت فيما بعد أنها « كفر البرابرة » وفى زقاق مظلم يتفرع منها ، ولج الاثنان بيتاً صغيرا متداعيا يكاد يهتز كلما مر أمامه انسان ، وأمام مدخل هذا البيت وقفت برهة مترددا لا أدرى ماذا افعل ، وعندئذ أقبل علىّ شرطى الليل فأضاء مشعله الكهربائى الصغير وقال :

— هل تنتظر أحد هنا يا افندى . . . ؟

فرفعت يدى وحككت حاجبى وقلت :

— إننى ابحث عن صديق ... عن قريب لى ... أرأيت الرجلين اللذين دخلا الحارة سكرانين منذ لحظات .. ! ؟

ففتل الشرطى شاربه الغليظ وقال :

أتعنى عم يوسف الحلوانى و ... و « الباشا »

— أ أنت أيضاً تدعوه « الباشا » ... ؟

— لا نعلم إسما غير هذا ... هل هو قريبك ؟

فقلت بصوت خفيض كأنما أحدث نفسى :

— نعم ... يمت لى بصلة قربى ... ولكنى لم أكن أدرى أن الحال بلغت به هذا الحد من السوء .

ويبدو أن الشرطى كان أيضاً من المشفقين على الرجل المحطم ، ذلك أنه قال :

— هكذا الدنيا يا سيدنا الافندى ... منذ استلمت نوبتى فى حراسة هذه المنطقة رأيت اثنين من الناس الطيبين يحضران لزيارته ... إنه يقيم مع أم عزيزة ... صاحبة هذا البيت ... وهى أرملة عجوز ... إنها ترعاه كأنه ولدها ... وعم يوسف الحلوانى هو الساكن الثانى فى هذا البيت وهو الذى يقضى سهرته مع « الباشا » فى السلسلة . . .

— السلسلة ؟ ؟

ـ أقصد خمارة الرويعى . . . ثم يعود به إلى البيت . . . انتظر حتى أستدعى أم عزيزة لتستقبلك . .

وشكرت له هذه المعونة ، فلما قدمنى إلى العجوز «أم عزيزة» مضى يواصل أداء واجبه فى الحراسة . أما العجوز فقد رمقتنى بعينين خابيتين ، ثم قالت وهى تتقدمنى داخل البيت حاملة شمعة صغيرة راقصة اللهب :

ـ تفضل بالدخول ياضناى . . . أهلا وسهلا بأقارب شاكر بك . . . ربنا يتوب عليه ويشفيه . . . وتبعتها فى ممر ضيق تشيع الرطوبة منه برائحة القدم والتراب وكان لهب الشمعة الصغيرة يرتفع راقصاً مرسلا فيضا من الدخان وألوانا من الظلال المرتعشة على جوانب الممر حتى خيل لى أن الجدران نفسها تهتز وترقص معها لتنقض علينا .

وبلغنا فى نهاية الممر غرفة فتحت العجوز بابها ، فرأيت شاكر « بك » جالسا فى صدرها على مقعد مريح وقد ازدادت على وجهه المعروق سمات الشرود والذهول ، وكانت سترته قد علقت على مشجب فى الجدار ، وعلى مقربة منه ماء وقطعة صابون «وليفة» ومنشفة ، وفى جانب آخر من الغرفة الواسعة رأيت فراشا نظيفا إلى حد ما ومنضدة صغيرة ومقعدين . وعلى مقعد منهما جلست أرقب

العجوز وكأنى فى حـلم عجيب . . .

كانت المرأة عجوزا ضاوية مهزولة يكاد المرء يجمعهـا فى قبضتيه . . . شعرها كخيوط القطن ، ووجهها ينطق بما عليه من غضون وخطوط أنها ذرفت على المائة عام ، وفى عينيها الضعيفتين الخابيتين ومضات من العطف والاستسلام ...

وكان هذا العطف واضحاً فى كل حركة تأتيها ، وهى مقبلة على شاكر « بك » تغسل وجهه ويديه وقدميه بالماء الفاتر والصابون، ثم وهى تفض عنه قميصه ، وتلبسه جلبابا نظيفا ، ثم وهى تعينه على الوقوف ليخلع سراويله . . .

وكان هو بين يديها كطفل وليد يستجيب لرعاية أمه فى دعة واستسلام .

ولما فرغت من هذا كله ، ساعدته حتى رقد فى فراشه ، ثم سوت فوقه الغطاء . وماهى إلا دقائق معدودة حتى أرتفع غطيطه فى جوانب الغرفة .

وعادت فأشعلت موقد « سبرتو » ، وجعلت فوقه إناء شاى، وقالت بعد كلمات من الترحيب والتأهيل :

— أمن ابناء عمومته ياضناى أم من ابناء خؤولته ؟؟

فلما فهمت معنى سؤالها قلت :

ـ من البلد . . . أمت بصلة قرابة له . . . لزوجته . . . شفيقة هانم . . .

فندت عن العجوز تنهيدة هادئة وهى تقول :

ـ ربنا يعوض صبرها خيراً . . . كيف حال ابنته «أنسام» ياضناى . . ؟

فلما تمتمت لها بصوت مدهوش إنها بخير ، قالت وقد لمست ما فى صوتى من دهشة :

ـ سمعت ياضناى كثيرا عن أهل زوجته وابنته . . . إنهم ياضناى قوم كرام . . . ويكفى أن تبقى شفيقة هانم زوجة له كل هذه المدة حتى يظهر أصلها الطيب . . . إن كرائم الناس ياضناى لا يعرفون طريق المحاكم الشرعية . . . إه ربنا يتوب عليه ويشفيه . . .

فلما سألتها هل تمت إليه بأصرة قربى ، هزت رأسها نفيا وقالت وهى تقدم إلى قدح الشاى :

ـ لا . . . أبداً . . . ولكنى رأيته منذ سنوات لا أعرف عددها ، واقفاً أمام بيتى ياضناى ممزق الثياب دامع العينين، وكأن هناك من يطارده . . . فأخذتنى الشفقة عليه ، فآويته وأطعمته وهدأت ياضناى من نفسه ، ومنذ ذلك الحين وهو يعرفنى ـ كما

تعرف الحمامة صاحبها ـ ولكنه لم يبادلنى كلمة واحدة كل هذه المدة . . . إه . . . ربنا يتوب عليه ويشفيه . . .

وأمسكت العجوز برهة عن الحديث ريثما ترشف جرعتين من الشاى ثم قالت مستطردة :

ــ إنه يخرج فى الصباح كل يوم بعد الإفطار ومعه آلته الموسيقية . . . ثم يعود ياضناى فى المساء سكرانا ـ ربنا يتوب عليه ـ فأصنع به كما رأيت الآن . . . وقد حاول كثيراً من أقارب والديه أن يغروه بالإقامة معهم أو فى مستشفى ، فإذا أرغموه ياضناى على ذلك . أقام الدنيا واقعدها بالصياح والعويل حتى يفرجوا عنه ... فيعود إلى تجواله فى الطرقات عازفا مغنيا ، ثم يأوى فى المساء إلى الخمارة . . . فيشرب كثيراً ويأكل قليلا . . . وأخيراً يأتى إلى هنا وكأنه ياضناى مدفوع إلى هذا كله بقوى خفية ... إه ربنا يتوب عليه ويشفيه .

ويبدو أن العجوز قرأت ما يجول بذهنى وأنا أتأمل مظاهر الفاقة والإملاق البادية فى الغرفة ، فقالت :

ــ إن بعض أقاربه يكافئوننى ياضناى فى كل شهر بمبلغ معلوم نظير خدمتى له . . . ولما سكن عم يوسف الحلوانى فى الغرفة الأخرى . . . التقى به ذات ليلة فى الخمارة ومنع السكارى عن

معرفة ما يبقى معه من نقود ، فيعود بها إلى . وبذلك أصبحت ياضناى فى غنى عن معونة أقاربه . . . ولقد خففوا زياراتهم له فى الشهور الأخيرة يائسين من حالته . إه ربنا يتوب عليه ويشفيه . . .

وساد الغرفة سكون لم يكن يقطعه إلا غطيط الرجل البائس. وعندئذ راحت تطوف بذاكرتى بعض الاحاديث التى كنت قد سمعتها من والدى وعن بعض أهل البلد عن شاكر « بك » هذا :

كان وحيد أبويه ، يتيم الأم ، ويقال إن أباه الثرى الذى كان يملك نحو مائتى فدان وبضعة آلاف من الجنيهات، وأسرف فى تدليله إسرافا شديدا . كان لا يزجره إذا أخطأ ولا يسمح لأحد يزجره . وكره الغلام المدرسة فأخرجه منها وتركه يستمتع بما تمليه عليه نزواته وأنانيته . . وهكذا نما شاكر وهو يرى أن كل شىء فى الدنيا يجب أن يكون طوع بنانه بفضل ثراء والده . ولم يكن ثمة عجب أن يمضى الشاب فى الحياة محتفيا لذائذها منتهبا متعها مسرفا فى اللهو إسرافا لم تشهد له المدينة التى يقيم بها مثيلا . ويقال إنه كان يختلس من أموال أبيه مبالغ تتراوح بين المائة جنيه والألف فينفقها فى ليال معدودة على موائد الخمر والميسر ، وعلى راقصات الملاهى فى العاصمة . فإذا عاد وجد أباه الشيخ يستقبله مخضل

العيون بالدمع قائلا: «كل شىء يهون مادمت تعود إلى أبيك ياشاكر».

ولما كانت شفيقة فى صباها أجمل فتيات البلدة، ومن أكرم الأسر فيها محتداً، فقد اختارها الوالد الثرى لابنه شاكر عروسا وإن ذكرى ليالى زفافها لا تزال تتردد على ألسنة الناس لما انفق فيهامن مال، ومانحر من ذبائح؛ وما وزع من صدقات، وما أقيم من احتفالات سبع ليال متواليات... ولكن العروس التى حسدتها أوغبطتها عذارى البلدة كلها، لم تلبث أن غدت مثار العطف والرثاء من الجميع. فما أن توفى الوالد الثرى بعد حفلات الزفاف بخمسة شهور، حتى اندفع شاكر معربدا فى الحياة... وفى أقل من أربع سنوات كان قد أتى على كل ما ورث عن أبيه من مال وعقار قبل أن يجد من يردعه أو يحجر عليه. ثم اختفى تماما من حياة زوجته وابنته وعاش فى القاهرة على هذا النحو الذى لا أعرف سببه أو الدافع إليه..

وأخيرا قطعت حبل ذكرياتى وقلت للعجوز.

ألم تعلمى ياست ام عزيزة سبب حالته هذه الشاذة..؟

فاعتدلت العجوز فى جلستها، ثم راحت تقص علىّ ما علمت به من «سمير بك» ابن خالة شاكر: فقالت: إن «شاكر» انفق الجزء الأكبر من أمواله على راقصة معروفة فى ملهى كبير... فلما فقد ماله جميعا رفضت الراقصة ذات ليلة أن تستقبله كعادتها فى

غرفتها الخاصة بالملهى ، وراحت نوازع الغضب والحسرة والندم واللهفة ـ أيضا ـ تأكل قلبه ، وهو ينتظر خروجها بعدمنتصف الليل من الملهى . فلما خرجت كانت فى صحبة « وجيه » آخر متلاف وكانت تتجه معه إلى سيارته الفاخرة . فأسرع شاكر وراءها يهتف بها بصوت مختنق بالغضب والحب والغيرة ، وراح يذكرها بما ضحى فى سبيلها ، وبما انفق عليها من مال ، وبما بذل لها من قلبه ونفسه وحياته ، ولكنها نظرت إليه مشمئزة كأنه حشرة كريهة المنظر ، ثم تابعت سيرها مع صاحبها الجديد إلى السيارة الفخمة وانطلقا بها . ولما حاول شاكر أن يلحق بهما، تعثر وسقط وصدمته مركبة ترام فجرحت رأسه جرحا بالغا . وما أن غادر المستشفى وقد شفى من الجرح ، حتى صنع هذه الآلة الموسيقية بيديه وراح يجوب الطرقات مرددا هذه المقاطع المختلفة من الأغانى ومنذ ذلك الحين وهو لا يتحدث مع أحد أو يتعرف على أحد .

ولما فرغت العجوز من حديثها ، اعترتنى حيرة بالغة . ذلك أنى كنت آمل بعد أن اهتديت إليه أن أتعرف به ، وأن أكتسب مودته ، ثم أعمل فى هدوء على إنقاذه من هذه الحالة ، ثم العودة به إلى زوجه وابنته . . بل لقد أسرفت فى آمالى هذه وأنا اتبعه فى تلك الليلة من طريق إلى آخر ، فتصورته وقد بعث من جديد

رجلا مجدا نافعا جديرا بزوجته وبأبوته لأنسام ...

وقطعت العجوز على خيط أفكارى هذه بقولها :

هل أرسلتك يا ضناى شفيقة هانم لتطمئن عليه .؟

فقلت متسائلا — ولماذا شفيقة هانم بالذات ... ؟

فأجابتنى — لأننى سمعت أن والدها الحاج عبدالحميد لايحب أن يذكر أحد اسمه أمامه . . إنه معذور فى كراهيته له . . فقد شقيت ابنته شفيقة هانم كثيرا بسببه . . ولكن ما حيلة الانسان مع القدر ... إه . . ربنا يتوب عليه ويشفيه . .

فرأيت أن أصارحها بالأمر لأظفر بعونها فقلت :

الواقع أن أنسام ابنته هى التى طلبت منى . سرا أن أبحث لها عنه ولاريب أن من حقها ما دام أبوها على قيد الحياة ، أن تراه وتتمتع بعطفه إذا أمكن . ولكنى لا أدرى كيف يتم هـذا . . وشاكر « بك » على هذه الحالة ؟

فأجابت العجوز بعد فترة صمت . . وكان صوتها متهدجا بالتأثر وهى تقول :

— عسى الله يا ضناى أن يستجيب الله لرجائها بمعجزة من عنده ، ليس على الله شىء بعيد

فنهضت ومددت يدى إليها أحييها وأناولها بعض النقود وأقول .

هل تسمحين بزيارتى له بين الحين والآخر ... فعسى أن ننجح فى إغرائه بالحديث .. و .. فردت النقود إلى وقالت .

إن بيتى مفتوح لأصحاب وأقارب شاكر «بك» دائما .. ولكنى فى غير حاجة إلى هذا المال يا ضناى فإن الله يرزقنى وإياه بما يزيد عن الحاجة ...

(٩)

وغادرت الغرفة والعجوز تشيعنى إلى الباب الخارجى بشمعتها الصغيرة . وكانت الظلال هذه المرة — والعجوز ورائى - تتراقص أمامى مهتزة مرتعشة فلا ألقى إليها بالا .. ذلك أنى دخلت هذا البيت وأنا آمل أن أحقق لأنسام أكثر مما ترجو من أبيها .. وها أنذا أغادره وقد انحسر هذا الأمل إلى درجة اليأس .. إلا قليلا ..

وسريتُ فى طريق العودة إلى مسكنى وليس فى ذهنى غير صورة « شاكر بك » ، الرجل المحطم الذى يعيش فى رعاية عجوز فقيرة مهدمة .. غريبة عنه ... بينما زوجته وابنته تفكران فيه ليلا ونهارا .. وترجوان لو قصرت أعمارهما إلى النصف على أن يقضيا الباقى فى رعايته وحدبه ..

وبلغت المسكن أخيرا بعد أن استوقفنى شرطة الليل أكثر من مرة ، وهناك وجدت عبد الله وزوجته ساهرين فى غرفتهما ينتظرانى . فأكبرت لهما هذا الشعور الذى جعلهما يسهران حتى يطمئنا علىّ ، ثم ذكرت لعبد الله بإيجاز أنى وجدتُ «الباشا» يمت إلى بأصرة قربى ، ولهذا تبعته حتى عرفت أين يبيت . . .

ورقدتُ فى فراشى أتقلب برغم التعب الشديد — مسهدا أفكرَ فى هذا الأمر أو ذاك من أمور الحياة . وكان شاكر يتراءى لى دائما فى كل شِعْب ينفذ اليه فكرى . . فكنت أتخيله غنيا فى غير تدليل أو ميوعة أو فساد، يستثمر أمواله فيما يعود عليه وعلى بلاده بالنفع الجزيل ، ثم « أتفلسف »وأقيم على هذهالصورةالنتائج المحتملة . . فأرى شاكر « بك » رجلا عظيم الشأن حقا . . وأرى أنسام تعلو بعلوّه فإذا هى زهرة من زهرات المجتمع « العالى » تملأ الحياة بهجة وابتساما وضحكا ، وبجانبها أمها لا تكاد الدنيا تسعها لفرط ما تحس به من سعادة وفخر بزوجها وابنتها . ثم « أتفلسف » مرة أخرى وأحاول أن أرى بعين خيالى مكانى من هذه الصورةالمشرقة ، فإذا بى أرانى ظلا باهتا لا تكاد أنسام تشعر به أوتراه وهى فى مكانها الرفيع ، فأبتسم لنفسى وأزداد « تفلسفاً » وأقول إنى ما كنت أحفل بها أو أحبها كما لا أحب أو أحفل بأية

واحدة من زهرات هذا المجتمع « العالى » اللائى أقرأ عنهن أو أرى فى الصحف صورهن . ولكنى مع هذا أشعر بالخيال « المتفلسف » أن أيام طفولتى وصباى كانت ستغدوا خالية من هذه الروح اللطيفة المحسنة التى خففت عنى كثير من الشقاء وينتهى الأمر بإلقاء هذا السؤال على نفسى .

« هل لا بد لكل شاب فى صباه من عذراء تدور حولها آماله وأحلامه وطهارة أفكاره ؟!! ثم أجيب أو يجيب قلبى بأن هذا أمر لا مندوحة عنه لكل إنسان فى صباه . . فإذا لم تسعفه الحياة أو الظروف بفتاة معينة لآماله وأحلامه ، فسوف يخلقها بخيالها . ويبعثها حيّة نابضة من أعماق وجدانه ، فيدير عليها هذه الآمال والأحلام »

وأخرج من هذا التفلسف لأعود مرة أخرى الى شا كر « بك » فأرى مأساته واحدة هذه المـآسى التى لا يخلو منها يوم من أيام الحياة فى كل قطر وفى كل جيل ... إنها مأساة الشاب الذى أنعم الله عليه بالمال والبنين فكفر بنعمة ربه فإذا هو يعرف الفقر بعد الغنى ، والذلة بعد الكرامة والبؤس بعد الهناءة ، والتشرد بعد الاستقرار ، فيكون عذابه فى هذه الحالة أضعاف ما يحس به الفقير المسكين الذى ينفق حياته مجاهداً فى سبيل رزق يسير .

ذلك أنى كنت أرى فى تلك السن المبكرة ـ أن العذاب الأكبر فى الدنيا والآخرة هو لأولئك الذين يركلون نعمة ربهم بأقدامهم فيحل عليهم نقمته .

وعندئذ ألفيت تفكيره يتحول إلى خالتى شفيقة فأسائل نفسى ماذنب هذه الزوجة التى شقيت بماجنت يدا زوجها . . إنها لم تكفر بنعمة الله ولم تفعل ما تستحق من أجله هذا المصير . فتضطرب نفسى لهذا الخاطر ؛ وأشعر بموازين الحياة تختل فى ذهنى . فأقول لنفسى إن هذا نتيجة « التفلسف » فيما تجرى به المقادير . على أنى لاألبث أن أثوب إلى رشدى فأرى فى حياة خالتى شفيقة لوناً من الهدوء والصفاء الروحى الذى يحس به الراضى بقضاء الله وقدره . وحسبها أنها تعيش فترى ابنتها الحبيبة أنسام تشب أمام عينيها ، وأنها لا تحس فى أعماق نفسها بوخزة للضمير أو ندم على شىء . فهى من هذه الناحية أسعد حالا من بعض الذين يتقلبون فى أحضان الترف المادى ، وضمائرهم ـ إن كانت لهم ضمائر ـ تشقيهم بوخزاتها ليل نهار . . .

وعندئذ تهادى سمعى هذا الدعاء العذب الجميل الذى راح يردده قبيل أذان الفجر مؤذن فى مسجد قريب بصوت رخيم جميل يزيده سكون الليل رخامة وجمالا .

يا رب . . يا حى . . يا قيوم . . يا غافر الذنب . . يا ساتر العيب . . . يا رب . . .

(١٠)

غفوتُ بعد صلاة الفجر نحو ثلاث ساعات ، ثم أسرعت الى محل عملى . فلما انتهيت فى المساء هرعتُ بعد العشاء إلى نافذة « خمارة الرويعى » التى سماها « الشرطى » « السلسلة » وهناك رأيت « الباشا » فى جلسته المعتادة ، يحسو الخمر فى كبرياء ولا يكاد يحفل بما يطرب حوله فى جوانب المكان . فلما غادر الحانة بعد ساعتين تقريبا ـ فى صحبة المعلم يوسف الحلوانى ، أسرعت فلحقت بهما وسرت بجوارهما كأنى ثالثهما . ولقد احسستُ بسرور بالغ حين سمح شاكر « بك » لى بالمسير على مقربة منه دون أن ينفر أو يفزع . وكان يكفى أن أذكر أنى أسير بجانب « والد أنسام » حتى يتضاعف حبي له وعطفى عليه ، ويزداد احساسى بالغبطة لهذه المعونة اليسيرة التى أسديها اليه . . . .

واستقبلتنا العجوز « أم عزيزة » فى هدوئها المعتاد ، وسمحت لى ـ فى كرم ونبل ـ أن أعاونها فى خدمة الرجل المسكين قبل أن يأوى الى فراشه .

وبعد ليال كثيرة أمضيتها على هذا النحو أصر عبدالله أن يصحبنى ذات ليلة وقد حسب ـ غفر الله له ـ أنى انزلقت بدافع من طيش الى مهاوى الرذيلة ؛ وانى أتخذ من حديث « الباشا » المتسول ستاراً أحجب به نزوات طيشى .

فلما أطمأن تركنى أمضى كل ليلة بمفردى وقدجعلنى أشعر أنى كبُرْتُ فى عينه أضعافا ...... ولهذه المناسبة كنت أعجب كثيرا حين أسمع عبد الله . أو غيره ـ يثنون على كلما أديت عملا من الاعمال التى تواضع الناس على تسميتها بالخير . ذلك انى لم أ كن أرى وجها للثناء على من يستجيب للطبيعة المتأصلة فى نفوس الناس ... ألم يقل أبى لى قبيل وفاته ، إن النفس الانسانية مطبوعة على الخير .. فما وجه الثناء على من يؤدى بعض مايجب عليه نحو إخوانه فى الانسانية . !

. . . .

لم أترك وسيلة ممكنة لم ألجأ إليها لإغراء شاكر « بك » على الحديث . لقد كنت أردد على مسمع منه الحديث عن شفيقة هانم وعن أنسام وعن آمالها وعن احترام شفيقة هانم لذكراه ، وعن أمنية أنسام فى رؤيته ، وعن الحياة التى لاتزال مبسوطة أمامه فى رعايتهما ، وعن العيش الهادىء المثمر فى عزبة « الحاج » بعيدا

عن ضجيج المجتمع الصاخب .

ولكن هذا كله لم يجد نفعا ... فقد كان يجلس أثناء هـــذا الحديث شاردا كعادته ، ذاهلا عن كل شيء كأنه ، يعيش فى عالم آخر ، لم تكن ترتسم على وجهه خلجة واحدة أو يبدو فى عينيه لمحة واحدة من لمحات الفهم والإدراك .

وكانت الأسابيع والشهور تتوالى حتى اقترب موعد امتحان « الثقافة » ، وكانت الحرب قد دخلت فى عامها الثالث ، واشتدت المعارك جيئة وذهابا فى صحراء الوطن الغربية حتى بلغت ذروتها فى تلك الوقفة الخالدة امام « العلمين » وكان الناس قد ألفوا ماتفرضه الحرب من قيود بهذه الروح التى اتسمت بها مصر على السنين ، والتى جعلتها تخرج من كل محنة وهى أشد ماتكن صلابة وقوة وحيوية .

وكانت القاهرة العظيمة التى روعتنى يوم جئتها أول مرة ، والتى بهرت عينى بتألق أنوارها ، قد غدت مع قيود الاضاءة ذات طابع هادىء ، رقيق ، يسير الناس فيها ، وتتحسس المركبات الطريق خلالها كأنهم أشباح ......

وكان من أثر هذا أن صار شاكر « بك » يأوى الى مسكنه مبكرا فلا تتجاوز سهرته فى الحانة الساعة التاسعة . فكنت أمضى إليه

فى تلك الساعة فأطمئن عليه ، ثم أعود لأنفق فترة وجيزة مع الصديق عبد الله .

وكانت تجارة هذا الصديق الودود قد ازدادت رواجا بسبب الحرب وكانت الاسعار ترتفع يوما بعد يوم ارتفاعا جنونيا . . . ولكنى أشهد أن عبد الله وأمثاله ممن يتقون الله كانوا يجاهدون بقدر ما يستطيعون لالتزام جانب التسعيرة الجبرية ... مدركين تماما أن الارباح القليلة بالحلال خير من الكثيرة بالحرام .

ولما عقد الامتحان أديته أداءً شرح صدرى . وأذكر أن الفضل فى هذا بعد توفيق الله يرجع الى هذه الأسباب :

١) الثقة التامة فى النجاح : لم أكن أدع للشك يوما سبيلا الى نفسى ! كنت اردد دائما لماذا أرسب وأسئلة الامتحان لن تتجاوز بأى حال المنهج المقرر وإذا هى تجاوزته قليلا ، فإنما تتجاوزه إلى ماهو متعلق به متصل بنواحيه ، حتى يعرف الممتحن سعة أفق الطالب وما يزخر به ذهنه من معلومات خارجية تتصل بالمنهج من قريب أوبعيد ... »

٢) القراءة والاطلاع : كان شغفى بالقراءة قد بلغ مداه . . . فصرت أقرأ فى كل شهر كتابين أو ثلاثة ، وكنت كثيراً ما أقحم نفسى فى قراءة بعض مايقع فى يدى من كتب الادب الانجليزى

التى ترتفع كثيرا عن مستوى ثقافتى . . . ولقد سهل لى هذا الاطلاع وسائل استذكار المواد المقررة حتى كنت أشعر قبيل الامتحان أنى فوق مستوى المنهج المقرر . . . .

٣) القدرة على التعبير. كان من أثر شغفى بالقراءة والاطلاع أن زاد محصولى فى اللغة . . ومن ثم تيسر لى التعبير عن أفكارى بسهولة ووضوح ودقة . . وليس من شك فى أن ثمة فارقاً كبيرا بين إجابتين صحيحتين : الأولى فى أسلوب واضح ينم عن ثقافة الطالب وقدرته فى التعبير عن أفكاره وسرد معلوماته . . . والثانية فى أسلوب متهافت ركيك مفعم بالأخطاء النحوية والإملائية مما يدل على أن صاحبه ركز اهتمامه كله فى استذكار ماهو مقرر عليه فراح يردده كالببغاء » .

ما أن فرغت من الإمتحان حتى بدأت اهتم بعض الشىء بما تضطرب به الحياة فى تلك الفترة العصيبة . ذلك أن الإغارات الجوية راحت تشتد على مدينة الاسكندرية وبعض مدن الوجه البحرى اشتداداً جعل الناس يجمعون أمرهم على هذا القول السديد « إنها حرب ليس للشرق فيها ناقة ولا جمل » ثم انقسمت آراء الناس فيما عدا هذا إلى مذاهب مختلفة . فمنهم من رأى فى هذه الحرب الضروس يداً جبارة للقدر ، شرعت تهز الشرق هزا عنيفا

لينهض بروحانيته وسمو حضارته، الغابرة فيعلّم الدنيا كيف يكون الإخاء والمساواة وكيف تشرع الحروب لنصرة مظلوم أو لتأديب ظالم، وليس لاستعباد الناس وامتلاك موارد بلادهم . ومنهم من رآها ناحية طبيعية من نواحى الحياة على هذه الأرض . . . مثلها فى ذلك مثل الزلازل والبراكين والأوبئة . ومنهم من رآها ثمناً باهظا يدفعه الجنس البشرى نظير هذه الوثبات السريعة فى مدارج الحضارة بما تتفتق عنه فى أثنائها — عقول العلماء من مختلف الاختراعات والابتكارات التى لولا الحرب ما كانوا يصلون إليها إلا بعد عشرات أو مئات السنين » . . .

وكان يلذ لى فى تلك الآونة أن أبادل بعض جنود الحلفاء مختلف الأحاديث . . فكنت أدرب لسانى على النطق الصحيح للغة الانجليزية ولبعض لهجاتها المختلفة ، وكانوا يسرّون كلما التقطوا منى بضع كلمات عربية أو عبارات دارجة .

والعجيب أن الغالبية العظمى منهم كانوا يبدون دهشتهم البالغة كلما رأوا مظاهر المدنية والحضارة تطالعهم أينما ساروا. لم يشذ واحد منهم فى القول إنه كان يحسب مصر أرضا صحراوية يعيش أهلها فى خيام من الشعر ويقصرون طعامهم على ثمرات النخيل وألبان الإبل وإن أنس لا أنس جنديا استراليا وقف ذات يوم أمام تمثال «ابراهيم باشا»

الفاتح ،ثم شرع يتلفت إلى دار الاوبرا وإلى حديقة الازبكية وإلى القصور المشرفة على الميدان ، ثم قال لى فى دهشة بعد أن حدثته عن حضارة مصر .

— أهذه هى البلاد . . التى يزعم الانجليز لنا أنهم دخلوها لينشروا الحضارة فيها ؟ ؟ فقلت فى تهكم وابتسام :

— نعم . . هذا مايزعمونه للعالم،أما مايفعلونه حقافهى مشروعات أخرى تدل على عبقريتهم الفريدة فى فنون الاستعمار والاستغلال .

— ماذا تعنى . . . . ؟

— أعنى أن الذين جاءوا لينشروا الحضارة فى بلادنا كما زعموا ، نسوا هذا « الهدف النبيل » ونشروا بدلا منه الفقر والمرض والجهل . . وذلك بما أقاموه من مشروعات للرى جعلت من أرض مصر الخصيبة حقلا للأمراض المتوطنة التى تفتك بأهلها، ومزرعة قطن تغذى مصانع لانكشير . وبما جلبوه من سموم المخدرات وأنواع الأمراض الخبيثة التى لم يكن للبلاد بها عهد قبل «تشريفهم» وبما ينهبونه الآن من خيرات البلاد نظير أوراق مالية يصنعونها بأيديهم ويوزعونها علينا .

فحدق الاسترالى فى وجهى كأننا لا يصدق ما أقول ثم تمتم :

— ولكن يبدو لى أن بلادك لاتعانى من هذا كله . . وإلا

فما معنى هذه الحضارة . . وهذا الترف ؟

ـــ كان من الممكن أن يبلغ الانجليز أهدافهم كاملة بمثل هذه الوسائل مع شعب آخر . . أما مع شعب مصر . . فإنى سأهديك بعض كتب التاريخ الخاصة بها والتى وضعها مؤلفون انجليز . . . . ولسوف تعلم منها أن الشعب الذى علم العالم كيف تكون الحضارة والمدنية ، لا ينحنى أمام الغزاة المستعمرين إلا ريثما يتأهب للوثوب مرة أخرى إلى مقدمة الصفوف . . ولسوف تعرف أن مصر فى تاريخها القديم ، كانت منار العلم والعرفان والمدنية فى نفس الوقت الذى كان يعيش فيه الانجليز داخل الكهوف والمغارات ، وأنها كانت فى العصور الوسطى البلد الوحيد الذى حافظ على تراث العرب من علم وحضارة ودين وآداب ، وأنها فى هذا العصر الحديث القوة التى يخشى الانجليز منها على نفوذهم فى الشرق الأوسط . . إن موقف الانجليز منها فى خلال قرن كامل هو موقف الملاكم العجوز الذى يخشى على مجده . من ملاكم شاب انحدر من صلب أبطال شهد لهم العالم فى مختلف عصوره بالقوة والحيوية.

فتبسم الجندى من حماستى وقال فى هدوء :

ـــ إنى أتمنى لكم أن ترفعوا يد الانجليز أو غيرهم عنكم . . كما أتمنى هذا لبلادى . . . .

والعجيب أنى وجدت هذه الأمنية نفسها تتردد فى صدور الجنود المالطيين والقبرصيين والكنديين والهنود والنيوزيلانديين والفلسطينيين (من عرب ويهود) والجنوب أفريقيين . لقد أجمع كلهم حتى المنحدرون من أجداد انجليز على كراهية الاستعمار فى أية صورة وفى أى وضع .

ولكن الذى ضاعف عجبى ودهشتى ، ما كنت أسمع به عن السرقات التى كان يرتكبها الجنود من مختلف الجنسيات انجليز وغير انجليز . ذلك أن أحد رؤساء العمال المصريين فى معسكر انجليزى كبير أقسم لى أنه لم يجد جنديا واحدا من الحلفاء يعرف معنى الشرف أو العفة أو الترفع أو الشهامة . فقد كان كل واحد منهم يحاول أن يسرق كل ما يقع تحت يديه فى المعسكر . حتى الذخيرة التى لا غنى عنها فى إحراز النصر . . .

ولقد حاولت أن أرد هذا إلى الانحلال الخلقى الذى يشيع فى أثناء الحروب والذى يدفع الجندى إلى انتهاب أكبر مايستطيع من اللذات المادية قبل أن ترديه رصاصة . وكان من الممكن أن أطمئن إلى هذا الرأى ، لولا ماعرفت فيما بعد من مواقف جنود بلادى فى ربوع فلسطين . . هذه المواقف التى أعادت إلى الجندية مكانتها الرفيعة ومعناها السامى . . .

وأعود إلى شاكر « بك » فأقول : إن اليأس فى شفائه بدأ يتسلل فى نفسى خلال هذا الصيف ، ومن ثم رحت أبادل عبد الله الرأى فى هل نخبر أنسام بمكان أبيها وهو فى هذه الحالة التى تؤكد ما سمعته عنه ؛ أم نلجأ إلى كذبة بيضاء . . فأؤكد لها أن ما قيل عنه محض اختلاق وأن المطرب المتسول الذى تحدث عنه « أبو المعاطى الحلاق » ليس أباها قطعا وإن كان يشبهه قليلا .

وانصرمت بضعة أسابيع وأنا فى حيرة شديدة بين هذا الرأى وذاك . . فقد كنت أرى أن من حقها أن ترى أباها مهما يكن أمره ما دام على قيد الحياة . . بل كنت أشعر أن حالته هذه المحزنة قد تزيدها عطفا عليه وحبا له . فقد قيل إن كل فتاة بأبيها معجبة مهما يكن هذا الأب فى نظر الآخرين ...

وكان يخامرنى أمل خفيف فى أن رؤية شاكر « بك » لابنته وزوجته قد تؤثر فى نفسه تأثيرا شديدا فينفعل وجدانه ويحطم هذا الستار السميك الذى يغلف ذهنه . . ولكنى كنت أخشى من جهة أخرى أن تصدم أنسام برؤية أبيها على هذه الحال صدمة تترك فى نفسها أثرا يلون حياتها بالحزن إلى آخر العمر ... فمن المرجح أن فتاة مثل أنسام نشأت فى عيش مبسوط ورعاية ممدودة ستحزن أشد الحزن وتتألم أبلغ الألم حين ترى أباها يسير مشردا فى الطرقات

يستجدى الناس بالغناء ، وينفق أمسياته فى هذه الحانه الرخيصة الكريهة ويبيت لياليه فى هذا البيت المهدم ..

وشاء القدر الرحيم ان يخرجنى من هذه الحيرة بوسيلة لم أكن أتوقعها ... أو أتخيلها .

(١١)

فى مساء يوم من الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ، ذهبت مع عبد الله لانتظار شاكر « بك » أمام « خمارة الرويعى » فلما غادرها فى صحبة المعلم يوسف الحلوانى ، سرينا معهما فى الطريق إلى بيت العجوز « أم عزيزة » وفيما نحن نتأهب لاجتياز شارع « الجيش » إذ بشاكر يستمر فى جانب الطوار ويحدق بنظرات مروعة فى وجه سيدة كانت فى سيارة أنيقة فاخرة .. وكانت السيارة واقفة أمام متجر كبير للحلوى وعقدت الدهشة لسانى حين رأيت الحياة والحيوية تتخايلان فى عينى شاكر لأول مرة . لقد بدا أمامنا فجأة صورة مجسمة لرجل تتنازعه عوامل مختلفة متناقضة . منها الغضب الشديد والفرحة العنيفة . ومنها اليأس القاتل والأمل المحيي .

وفيما كان شاب أنيق يغادر متجر الحلوى حاملا لفافة فى يده

ويتجه نحو السيارة ليجلس إلى عجلة القيادة فيها ،إذا بشاكر ينفلت من بيننا ويهرع إلى جانب السيارة . . ويهتف للسيدة الجالسة فيها .

ـــ رفيعة . . رفيعة أتهربين منى بعد . . الذى كان . .

فأسرعنا اليه وأمسكنا به قبل أن تمتد يداه إلى عنق السيدة . . أما هذه فقد تراجعت داخل السيارة شاحبة الوجه جاحظة العينين وأما الشاب الأنيق فقد التفت الينا بين الغضب والدهشة، فهتف عبد الله به أن يمضى بالسيارة . . ولكن شاكر استطاع بقوة لاأدرى من أين أتى بها أن يفلت منا وينطلق وراء السيارة هاتفاً:

ـــ لن تكونى لأحد غيرى يا رفيعة . . سأقتلك وأقتل نفسى.

وكاد أن يلحق بالسيارة وهى تدور فى الجانب الآخر من الشارع ، لولا أن تعثر فى قضبان الترام فانكفأ على وجهه بعنف وراح يتدحرج والدماء تسيل من جرح عميق فى جبينه . فأسرعنا اليه وانتشلناه قبل أن تدهمه قاطرة ترام كانت منطلقة نحوه ... وحملناه مغشيا عليه ـ وقد تجمع حولنا بعض المارة فى سرعة عجيبة وكأنما انشقت الأرض عنهم ، ـ إلى أقرب صيدلية، فلما ضمد جرحه وهو لايزال فى غيبوبته ، حاول الشرطى استدعاء مركبة الاسعاف فأكدت له أنى سأعنى بأمره ، وسأحمله إلى طبيب ليشرف على علاجه .

وكان عبد الله فى تلك الفترة قد أوقف سيارة أجرة، فحملناه فيها وهرعنا به، إلى أقرب عيادة طبية وهناك فحصه الطبيب الكهل بعناية وقال بعد أن ذكرت له طرفا من أمره ...

— من المحتمل جداً أن يسترد ذاكرته حين يتنبه . .

فتفتحت نفسى بالأمل وأنا أقول

هل ثمة رجاء فى أن يشفى تماما . . ويعيش ؟ »

فتردد الطبيب برهة، ثم قال بعد أن أكدت له أنى قريبه ومعنى بأمره أشد العناية :

— إنه قد يشفى إلى حد ما . . . .

ثم ابتسم فى حزن وأردف ...

— أما حياته فهى فى يد الله.. ولكنى أرى سمات واضحة لتضخم الكبد واعتلاله بسبب الافراط فى شرب الخمر . . كما أن حالة القلب ميئوس منها . . وأنى لأعجب كيف عاش إلى هذا السن مع حالته هذه ...

وصمت برهة كتب خلالها الدواء فى بطاقته ثم قال :

— إن الأعمار بيد الله . . ومادام هناك حياة . . فهناك أمل . . فى هذه البطاقة الدواء اللازم مع التعليمات . . واعتقد أنه سيبدأ فى

التنبه لنفسه بعد ساعات معدودة .. ويمكنك استدعائى فى أى وقت إذا ارتفعت حرارته . . .

وبعد أن أجرى له بعض الاسعافات اللازمة ، حملنا « شاكر » فى سيارة واشترينا الأدوية والحقن التى وصفها الطبيب ومضينا إلى المنزل. وهناك أصر عبدالله أن نخصص للمريض الغرفة الثالثة فى المسكن، وكانت الحائكة الكهلة قد أخلتها فاستأجرها عبد الله وجعلها غرفة استقبال . فحملناه اليها وقد هيأنا له فراشاً مناسبا ثم استدعينا ممرضاً من الجيران كان يعمل بمستشفى « الملك » ليتولى حقن المريض فى المواعيد المقررة . . . .

وما أن بلغت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى كان كل شىء قد تم حسب تعليمات الطبيب ، ومن ثم ألححت على عبد الله أن يأوى إلى غرفته ليستريح ، وأما المعلم يوسف فقد استأذن للعودة إلى بيت العجوز « أم عزيزة » على أن يعود فى الصباح المبكر معها ، وأما الممرض فقد عاد إلى بيته ، بعد أن أظهر استعداده لتلبية النداء فى أى وقت . .

وبقيت بمفردى فى غرفة المريض ، وراحت الخواطر فى سكون الليل تتوالى فى ذهنى سريعة مضطربة فأنا حينا أتخيل « شاكر » وقد تحققت آمالى عنه ، فإذا هو يسترد نفسه الضائعة وذاكرته

المفقودة ويبدأ حياته من جديد مع زوجته وابنته، وأنا حينا آخر أتخيّله وقد عاد إلى ما كان عليه أو إلى أسوأ مما كان عليه . . .

وفيما أنا كذلك إذ غلبني النوم على أمرى . . ولم أدر هل غفوت دقيقة أم بضع ساعات ، ولكنى فتحت عينى فجأة وقد خامرنى شعور ذاتى مبهم . . ثم إذا بى أجمد فى مكانى رعبا وفزعا .

لقد رأيت «شاكر» يخطو من ناحية فراشه نحوى فى خطوات مختلسة يحدق فى وجهى بعينين جاحظتين مجنونتين ويمد ساعديه وقد تقلصت أصابعه الطويلة النحيلة كالمخالب ، وكان يغمغم بصوت أجوف رهيب :

لقد وقعت فى يدى أخيرا يا مرسى . . أيها الشيطان الغادر ...

واستطعت قبل أن يثب على أن أرسل صيحة استنجاد عالية ثم إذا بأصابعه وأظافره تنشب فى عنقى بقوة حديدية مجنونة ، وإذا الزبد يطفو على شفتيه المنفرجتين عن أسنانه الصفراء، وإذا بأنفاسه اللاهثة تلهب وجهى ، وإذا أنفاسى أنا تختنق فى صدرى فأخال كأن لهباً من النار يتراقص أمام عينى الجاحظتين ثم احس كأن الغرفة تدور بى وتهوى وانى أهوى معها فى قرار مظلم

ولما تنبهت لنفسى ، رأيت عبد الله وزوجته وأحد الجيران يتآزرون على حمل «شاكر» إلى فراشه ويعملون جهدهم على تهدئته...

فبقيت فى مكانى ألهث فى عنف وأتحسس جراح عنقى وقد خيل إلى أن الأمر كله حلم مروع . فلما تمالكت نفسى شيئا ، نهضت أسوّى ثيابى وقد خامرنى حزن شديد .. ذلك أنى خشيت أن تكون حالة « شاكر » قد ازدادت سوءا .

وغادرت الغرفة إلى مقعد فى الردهة ، فجلست واضعا رأسى بين يدى وبعد برهة أقبل عبد الله يقول لاهثاً :

يا ألطاف الله ، إن حرارته مرتفعة جدا . . سأسرع لاستدعاء الطبيب . .

فوثبت من مكانى ، وقد عادت إلى بارقة الأمل . . ذلك أن الحرارة المرتفعة جدا كثيرا ما تفقد المريض صوابه ، وكثيرا ما يأتى بتصرفات غريبة قد لا تخلو من عنف ، ولكنه لا يذكرها عند شفائه . .

فهكذا رأيت أمى فى بعض حالاتها عند اشتداد المرض عليها... والتفت أخيرا إلى عبد الله وقلت :

لا . . . ابق أنت معه . . سأمضى الآن الى الممرض محمود ، ليكون معك حتى آتى بالطبيب .

فأسرع عبد الله إلى غرفته ، ثم عاد ودفع إلى بجنيهات خمسة وقال وهو يحاول الابتسام :

هذا المبلغ من « القرض الحسن » . . . ألا يستدعى الأمر هذا
فأومأت إليه ، ووضعت المبلغ فى جيبى وانطلقت من البيت
ودعاء الفجر يتردد فى سماء العاصمة .

« يا أكرم الأكرمين . . يا أرحم الراحمين . . يامالك الملك
يابارىء الخلق . . . يارب . . . »

(١٢)

فحص الطبيب الكهل شاكر « بك » فترة غير قصيرة ثم ألقى
إلى الممرض « محمود » بتعليماته ثم قال وهو يسوى نظارته
ويبتسم مطمئنا :

لقد ازداد الاحتمال فى عودة ذاكرته . . وأعتقد أن حالته
ستتحسن كثيرا بعد هبوط درجة حرارته ، وقد يتم هذا فى مساء
اليوم . . ويحسن أن يتولى العناية به اثنان فى أثناء النهار وغيرهما
فى أثناء الليل . .

ثم غادرنا وقد وعد بالعودة فى المساء وصار شاكر موضع
رعايتنا جميعا . ذلك أنى استأذنت صاحب المخبز فى أجازة لمدة أسبوع
واستطاع « محمود » الممرض أن يظفر بأجازة ثلاثة أيام من إدارة
المستشفى ، وأقبلت « أم عزيزة » تساهم فى تمريض «ولدها شاكر »

وكانت تحمل كيسا به نحو ثلاثين جنيها قدمته إلى قائلة :

ـ هذا المبلغ ياضناى فائض ما كان يأتى به من نقود . . والله يعلم أنى كنت احتفظ به لأنفقه يا ضناى على جنازته بعد عمر طويل إه . . ربنا يتوب عليه ويشفيه . .

ولما تبادلت الرأى مع عبد الله . . وافقنا على قبول المبلغ بعد أن أقسمت العجوز ألا تمسه بيدها ثم رأينا أن نصلح ببعضه حال شاكر . ومن ثم اشتريت له فى ذلك اليوم نفسه ثلاثة أطقم من ثياب داخلية . وثلاثة منامات حريرية و « شبشبا » أنيقا ، ثم جهزنا الغرفة ببضع مقاعد ومناضد للدواء وباقات الزهور حتى بدت جديرة برجل له مكانته واحترامه . . .

وكانت اللمسة الأخيرة فى هذا كله أن استطاع حلاق الحى « الأسطى غالى » بمعونة الممرض محمود أن يسوى شعر شاكر ويحلق ذقنه ، ويهذب شاربه . وكان المسكين قد عاد إلى استسلامه ووداعته وإن كانت مظاهر الحياة قد بدأت تدب فى وجهه وعينيه

ولما رآه عبدالله حين عاد إلى البيت قبيل الغروب ـ هتف وهو يحملق فى وجهه :

ــ يا ألطاف الله ... انه الآن « باشا » صحيح ...

أما الطبيب فقد وقف ، حين أقبل فى المساء كما وعد ، فى مدخل

الغرفة ينتقل بنظراته من المريض فى منامته الحريرية إلى . أغطية الفراش النظيفة الجديدة ، وإلى مناضد الدواء وباقات الزهور ، ثم بدا فى عينيه شك مبين فى أن هذا المريض الذى كان يمثل بالامس صورة للبؤس واضحة ، ليس هو نفس المريض الذى يراه الآن حليق الوجه مهذب الشارب مرجل الشعر ، فى كل سمة من ملامح وجهه مايدل على كرم منبته .

ولما فحصه مرة ثالثة وقاس حرارته وألقى بتعليماته الجديدة إلى الممرض ، انفرد بى خارج الغرفة وقال :

ـــ اعتقد أنه سيسترد ذاكرته الليلة تماما ...

ثم هز رأسه وأردف :

ولكن حالة قلبه تحتاج إلى فحص طبيب إخصائى كبير مثل الدكتور ...

ثم ذكر اسم طبيب يحمل رتبة عالية كان معروفا بخبرته الفائقة فى أمراض القلب ، ثم استطرد :

ـــ إن الأجر الكبير الذى ستدفعونه لهذا الطبيب لن يضيع هباء ... فسوف يخبركم بحقيقة الحالة كأنه يرى القلب بعينيه ويفحصه بيديه ...

ولما أقبل هذا الطبيب الكبير فى صحبة عبد الله ، أحسست

أمامه برهبة بالغة .. وشعرت وهو يفحص شاكر « بك » أنه حقاً ـ كما قال زميله ـ يرى القلب بعينيه ويفحصه بيديه ... فلما فرغ بعد نصف ساعة كاملة قال لى خارج الغرفة :

ـ أين نحن من أيام الأسبوع . ؟

ـ الثلاثاء...

ـ إذا مرت عليه الساعة العاشرة من مساء السبت القادم وهو على قيد الحياة... فإن عمره سيطول وإلا ...

ثم هز كتفيه واستعد للرحيل ..

وبعد ساعة واحدة كنت قد أرسلت إلى « سيدى الحاج » برقية اخبرته فيها أن شاكر « بك » مريض فى ضيافتى وأنه يريد رؤية زوجته وابنته ، وأنى سأستقبلهما فى محطة القاهرة فيما بين العاشرة والحادية عشرة من صباح اليوم التالى .

وفى خلال عودتى من مكتب البرق عرجت على الحلاق فسويت شعرى القصير ، وحلقت ذقنى واطمأننت على مظهرى العام الذى سأفاجىء به أنسام فى اليوم التالى . ذلك إنى كنت فى خلال الأعوام الثلاثة التى أمضيتها فى القاهرة قد ازددت مقدار شبرين طولا ، واتسع صدرى واستعرضت كتفاى ونبت شاربى ، وأصبحت بفضل الرياضة والاعتدال فى كل شىء شابا سليم الجسم

مقبول الشكل ...

ولما بلغت المسكن ، هرع عبد الله إلى وانفرد بى وهمس متوتر الأعصاب :

ــ يا ألطاف الله ... لقد أفاق شاكر « بك » : إنه يردد اسم ابنته أنسام وزوجته شفيقة هانم ... يا ألطاف الله ... إنك حين تراه ... فلن تعرفه ...

أسرعت إلى غرفة المريض فد خلتها مع عبد الله بعد أن طرقت بابها أولا ؛ وهناك رأيت شاكر « بك » جالساً فى فراشه يتحدث فى هدوء مع العجوز « أم عزيزة» وزوجة عبدالله . وكان التغيير الذى جد على وجهه ، جعلنى أقف فى مدخل الغرفة مدهوشا لا أكاد أصدق أن هذا الإنسان النبيل الذى يجلس ويتحدث فى هدوء هو نفسه ذلك « الباشا » الذى كان قبل يومين مشردا فى الطرقات يستجدى الناس بالغناء وينفق أمسياته فى حانة حقيرة ، ويبيت لياليه فى بيت متهدم، وهو فى هذا كله لا يكاد يشعر بما يفعل ...

كان وجهه فى تلك اللحظة نبيلا فى شحوبه ... تتوضح فى عينيه المتعبتين لمسات من الحياة والفهم والاستسلام للقدر، وتبدو فى خلجاته وحركات يديه ونبرات صوته أطياف من الدهشة

والحيرة ولـكنه كان يحاول إخفاء هذه الاحساسات حتى لايزعج السيدتين الجالستين معه ..

فلمارفع عينيه ورآنى، ابتسم فى عذوبة بالغة وقال بصوت رقيق رخيم.
أكبر ظنى إنك ممدوح افندى ... قريبى ... الذى حدثونى عنه ... اهلا .. اهلا ... دعنى اتشرف فأزيد معرفتى بك ..

وعندئذ رأيتنى أمضى إليه مدفوعاً بقوة غامضة ، فأضمه إلى صدرى وأقبل جبينه وقد امتلأت عيناى بالدموع . فقدشعرت فى تلك اللحظة بروعة هذه المعجزة الإلهية التى جعلت فى ساعات معدودة من الشريد الذاهل إنسانا آخر كله رقة وعذوبة و ...

وجلست بجانبه على الفراش أنصت إليه وهو يقول :

— قالوالى ... إن زو ... آه ... شفيقة هانم هى ابنة عم ... ابنة خالة والدتك ... أى فى مركز خالتك ... وأنا .

ورانت على وجهه سحابة خفيفة من الاضطراب والتردد وهو يستطرد قائلا:

— وأنا ... زوج ... خالتك ...

فغمغمت بالفاظ مضطربة أعبر بها عن سرورى وتشريفى بهذه القرابة ، ولـكنه استمر يقول كأنما لم يسمع شيئا :.

— وأنسام ... ابنتى ... ترى كيف حالها ... أهى تذكرنى...

وكان فى صوته المتهدج رنة حنان ولهفة شديدة ، ومن ثم اسرعت إلى غرفتى الخاصة وعدت منها بخطاب من هذه الخطابات القليلة التى كانت أنسام ترسلها إلى بين الحين والآخر ... وكانت هذه الخطابات موجزة دائما ... تبدأ بالسلام والسؤال عن صحتى والدعاء لى بالتوفيق وتنتهى بترديد ، أمنيتها الأولى فى الحياة ... ألا وهى رؤية أبيها والتمتع بعطفه وحنانه ولو مرة واحدة فى حياتها .

وتناول الأب خطاب ابنته بيد مرتجفة ، وأخذ يطيل النظر فيه وما أشك فى أنه كان يردد فى نفسه عبارات ابنته عنه مرة بعد أخرى . فلما طواه قال وهو يجاهد ليسيطر على نبرات صوته المرتعش :

— أتسمح لى بالاحتفاظ به ياعزيزى ممدوح ... أكبر ظنى إنك لن تبخل على ...

فعبرت له عن سرورى بتحقيق رغبته ... وكانت «أم عزيزة» العجوز تقول فى تلك اللحظة :

— إن شاكر « بك » يقول إنه لم يرنى من قبل ياممدوح افندى ... أبعد كل هذا ...

فغمزت لها بعينى وأسرعت أقول :

- وهو لم يرنى أيضاً مع قرابتى له ... بل إن لى أقارب كثيرين لم أرهم طول حياتى. . . بل ولا أعرف أين يقيمون وليس فى هذا ما يدعو إلى الدهشة ... أو ... المؤاخذة . . .

ولما التفت إلى شاكر « بك » باسماً ، رأيت فى عينيه هذه النظرة المدهوشة التى تقول اين أنا الآن ... وأين كنت ...وكيف جئت إلى هذا المكان ... ومن أنتم جميعا ، ولذلك مضيت أقول له لكى أشغلى ذهنه عن هذه الاسئلة .

- ستكون شفيقة هانم .. وأنسام ... فى القاهرة صباحا إن شاء الله ...

فالتمعت عيناه بفرحة عبقرية وأشرقت ملامح وجهه فجأة كأنما تفتحت فى نفسه ينابيع من نور الهناء وبدت فى نبرات صوته اروع نغمات اللهفة وهو يقول ...

- وهل . . . وهل . . . سيأتيان هنا . . . وأراهما . . ؟

فأومأت اليه وقلت :

إنهما سيأتيان خصيصا لزيارتك والاطمئنان عليك . . .

وعندئذ لمحت مظاهر التعب والاسترخاء تشيع فى كيانه كله... وكأنما كان يرجو أمراً مستحيلا فكانت أعصابه من ثم مشدودة فلما أدرك أن هذا المستحيل ممكن اطمأنت نفسه وتراخت أعصابه

وشاع التعب فى عضلات جسمه المكدود . . .

ولما رقد فى الفراش وأغمض عينيه وانتظمت أنفاسه ،غادرت الغرفة فى هدوء مع « أم عزيزة » ثم مضيت بها الى غرفة عبد الله وزوجته وقلت لهم :

ـــ يحسن ألا تذكرله شيئا من حياته المشردة ... وأرجو أن ينسى هذه الفترة الحزينة من حياته حين تحضر زوجته شفيقة هانم وابنته انسام غداً ... ومن يدرى ... فلعله يبدأ معهما حياته من جـــديد ...

ولما ذكرت لهم حديث الطبيب الكبير والموعد الذى حدده فاصلا بين الموت والحياة ، أردفت قائلا :

ـــ هذا إن قدرله عمر طويل ... وإلا ... فحسبه ساعة هانئة مع زوجته وابنته تكون أطول من عمر كله شقاء ...

وعندئذ تساقطت دموع العجوز « أم عزيزة » وهى تقول :

ـــ إنه لايذكرنى ابدا . . . ابدا ياضناى . . . كأنى غريبة عنه . . . ولكن يكفى أن أراه سعيدا مع زوجته الهانم وابنته .

وفيما هى تتحدث دوّى فى فناء البيت صوت ساعى البرق . فلما أسرعت اليه واستلمت البرقية منه ، وجدتها من سيدى الحاج وقد ذكر فيها انه سيصل إلى محطة العاصمة فى العاشرة والربع من

صباح اليوم التالى ومعه شفيقة هانم وابنتها أنسام ...

. . . . . .

وفى نحو الحادية عشرة مساء اقبل الطبيب مرة أخرى وقال لى بعد أن فحصه :

ــ إن حالته فى تحسن مستمر ... ولسوف يسترد قواه العقلية تماما فى الصباح ...

فسألته ملهوفا :

ــ وهل سيذكر شيئا من حياته ... حياته المشردة ...

ــ لا ... مطلقا ... ولا لحظة منها ...

ولما تسلم محمود الممرض نوبته المسائية بجانب المريض الذى كان مستغرقا فى نوم هادىء ، سعيت إلى فراشى لأختلس فترة من النوم استعد بها لما ينتظرنى فى اليوم التالى ...

(١٤)

لن أنسى نظرات الدهشة التى بدت فى عينى «أنسام» حين رأتنى وأنا استقبلهم فى محطة القاهرة ، ولن أنسى هذه الحيرة التى شاعت فى وجهها وهى تطرق برأسها فى خجل . أما الحاج فقد شد على يدى بقوة وقبل جبينى فى عطف اكيد ؛ ثم ضمتنى خالتى شفيقة

الى صدرها ضمة الأم لابنها البار . ولكن أنسام التى كنت أرجو أن تحذو حذو والدتها مدت يدها الى متمتمة بألفاظ غامضة ونبرات الخجل لاتزال تلتهب فى وجنتيها . . .

ولما كان الموقف لا يدعو الى تبادل حديث طويل فقد مال « سيدى الحاج » إلى والسيارة منسابة بنا إلى المسكن وقال هامسا :

ـــ أرجو ألا يخيب ظنى فيك . . .

فلما رأى الدهشة على وجهى أردف قائلا :

ـــ لا ريب أنك لم ترسل البرقية إلينا إلا وأنت واثق بأن «شاكر» فى حالة . . لا تدعو إلى الاشمئزاز . . . أو النفور . . .

فتنهدت فى ارتياح وقلت : ـــ إنه مريض فقط . . وهو ينتظركم بفراغ الصبر . . .

ولما توقفت السيارة فى مدخل الحارة ، نزلت منها شفيقة هانم وهى تتجلد ، وتبعتها أنسام فى شيء من الاضطراب أما الحاج فقد كان يزم على شفتيه حتى لا يبدو على وجهه ما تنفعل به نفسه . واستقبلنا عبد الله وزوجته على باب البيت فى شيء من الرهبة التى تبعثها شخصية الحاج ثم تقدمانا فى هدوء الى غرفتهما حيث جلس المسافرون يستريحون ويهدئون أعصابهم .

ولما دخلت على «شاكر» بك رأيت عينيه على الباب وسمعته

يهمس مضطربا .

— أين ... أين هم ... لماذا ولماذا ... لم يأتوا ... معك ...

هل ...

فجلست إليه وشرعت أهدىء من نفسه وأهيىء أعصابه للقاء المنتظر ... فلما اطمأننت الى هذا الحد غادرت الغرفة وأومأت الى عبد الله وهمست له :

— إن الجو مناسب للقاء الآن ... دعهم يدخلوا إليه ...

ثم أسرعت الى غرفتى وجلست على حافة فراشى أرتجف لفرط اهتياج نفسى . وبعد قليل جاء عبد الله وهو يبذل جهدا عنيفا حتى لا ينفجر باكيا . وكان يردد بين لحظة وأخرى «يا ألطاف الله !! هل نحن فى حلم» ثم أقبلت زوجته «وأم عزيزة» العجوز فجلستا ساكنتين صامتين لانكاد نشعر بمرور الزمن فى غرفة قريبة منا كانت زوجة صابرة عطوف تلتقى بزوجها الذى بعث من جديد وكانت ابنة ملهوفة مشوقة إلى أبيها ، ترى هذا الاب لأول مرة فى حياتها ...

ولم أدر هل انصرمت لحظات أم انقضت ساعات ، حين سمعت صوت شاكر «بك» ينادى على .. وكان الصوت لرجل سعيد لا يهمه إن عاش يوما أو عمر ألف سنة ...

ودخلت الغرفة وأنا أحاول الابتسام. فرأيت شاكر جالساً فى الفراش ، وقد ضم أنسام اليه وجعل رأسها على صدره ، ولف ذراعه حول كتفها ... وراح يمسح على شعرها بيده الأخرى . . . وكانت شفيقة هانم جالسة على مقعد بجانب الفراش ، تحدثه فى هدوء وكأنهما لم يفترقا غير أيام معدودات . . . أما الحاج فقد كان واقفا إلى نافذة يتظاهر بمراقبة بعض الدواجن التى تمرح فى الفناء ، ولكنه كان كما لحته يحاول أن يخفى دموعا راحت تنساب على وجنتيه بغير انقطاع ...

وكانت تلك أول مرة أرى فيها الحاج يبكى . . .

(١٥)

كانت الأيام الثلاثة الباقية على الموعد الذى حدده الطبيب الكبير ، كأنها لحظات خاطفة فى عمر الزمن ولكنها كانت أعماراً مديدة من الهناءة المركزة فى حياة انسام ووالدتها . . . فما أذكر أنى رأيت وجه شفيقة هانم يتألق بالبشر كما رأيته فى تلك الايام .. . وما أذكر أن السعادة توضحت فى وجه أنسام كما كانت فى وجهها وهى تعيش بجانب أبيها . وكان يخطر لى احيانا أنهما يحسبان الامر حلما سعيدا بهيجا من أحلام اليقظة . . .

وكان الحاج قدنزع وجهه الصارم هذا القناع المهيب ، فإذاهو حنان خالص ، واذا به يطلق نفسه المفعمة بالحب والعطف على سجيتها. فهو يمازح شاكر فى لباقة ويداعب أنسام ويلاطف ابنته ويجالس سكان المنزل وبعض أهل الحارة الذين توافدوا للترحيب به ،وينفق عن سعة ويسخو بمال غير قليل على الفقراء. ويتنازل عن فارق السن بينى وبينه فيؤاخينى ويعبرلى عن إعجابه وتقديره لحسن تصرفى، وعن دهشته لما بدا على من تغيير .

وكان هو الوحيد — دون ابنته وحفيدته — الذى سردت عليه تفاصيل ما حدث منذ التقيت بشاكر أول مرة . ولقد تأثر كثيرا لما عاناه المسكين من بؤس الحياة ، بعد هذا النعيم الذى التى به عند أقدام الراقصات وفى أقداح الخمر ...

وكانت أنسام لا تفارق أباها لحظة واحدة إلا عند استغراقه فى النوم أما شميقة هانم فكانت تبقى بجانبه تروح على وجهه حينا ، أو تنظف الفراش من حشرات البق التى كانت جزءا من حياة الطبقات الفقيرة فى تلك الاحياء والتى ارجو (بهذه المناسبة) أن يكون الـ (د . د . ت) قد أتى عليها . . .

وكانت انسام فى لحظات إغفائه تأتى الى غرفتى فتبدى اعجابها بكل شىء فيها ، وأبدى أنا فى صمت إعجابى بها هى . . فقد كانت

مفاجأتى برؤيتها أشد فى رأيى من مفاجأتها برؤيتى . . . ذلك أنها فى خلال تلك الأعوام قد ازدادت طولا وأصبح قوامها مثلا للرشاقة والأناقة ، ونضجت فى ملامحها سمات الفتنة العذواء وبدا لى أن أطيافا من نور خفى تتبعها أينما سارت . . .أما عيناها فكانتا كعهدى بها . . . توحى نظراتها للرجل بجمال قوته وللمرأة بسمو ضعفها . . .

وكانت تلقى على بعشرات الاسئله عن الوسائل التى تبعتها فى البحث عن أبيها . . . فكنت أقول لها دائما إنى التقيت به مصادفة فراعنى الشبه الكبير بينه وبينها فلما تبعته الى مسكنه فى بيت العجوز « أم عزيزة » عرفت منها انه فاقد الذاكرة وأن اسمه شاكر « بك » وأن له أبناء عمومة وخؤولة كانوا يترددون عليه ويسلمونها فى كل شهر مالا يكفى لحياة هادئة هانئة له . . . فإذا بلغت هذه المرحلة من حديثى سألتنى فجأة :

ــ ولماذا لم يكن يقيم مع أقاربه . . .

وعندئذ يشيح عبد الله مبتسما لهذا المأزق الذى أوقعت نفسى فيه ، ولكنى لا ألبث ان أجيب عليها قائلا :

ــ إنه بسبب فقد انه الذاكرة لم يكن يعرف أقاربه هؤلاء . أما « أم عزيزة » فإنه كان يألفها ويستريح الى عنايتها به . . . ومن

ثم كان يعود دائما للحياة فى بيتها كلما حاول أقاربه أن يبقوه فى أى بيت لهم . . .

ثم استطرد بعد ذلك فأقص عليها كيف سقط على قضبان الترام وكيف استرد ذاكرته حتى أرسلت البرقية اليهم . ولكنى حرصت على إخفاء بعض الحقائق عنها . كمسألة الثياب الجديدة التى اشتريتها له ، وموقفه مع السيدة التى كانت فى السيارة والتى حسبها الراقصة « رئيعة » ، ومحاولته قتلى اثناء هذيانه ، والموعد الذى حدده الطبيب الكبير لموته أو شفائه .

فاذا نجوت من هذه « الضريبة » التى كنت أؤديها كلما جلسنا نتحدث . مضينا فى أحاديث أخرى أكثر إمتاعا . فكنت أذكر لها جوانب من حياتى فى العاصمة وأسوق اليها بعض الطرائف التى لا تخلو منها الحياة فى الاحياء الفقيرة ، وكانت هى تقص على بعض انباء البلد فعلمت منها أن « نينا » لم تزل مقيمة مع أخى الطفل فى بيت والديها . وأن ثمة همساً يدور عن احتمال زواجها مرة ثالثة من صاحب مقهى ميسور الحال ولكنه معروف بالقسوة والشدة . وكنت عندئذ اسألها فى إشفاق — وهل سيقيم معها أخى . . . ! فتقول

— سمعنا إنها ستجعله مع والديها . . .

ليطمئن قلبي وأدعو الله أن يطيل فى عمر والديها حتى يبلغ اخى سن الرشد . ولما سألتها ذات مرة عن « أبو على الخولى » قالت إنه ترك العمل فى العزبه ولا تعرف اين ذهب ، ولكن بعض الناس قالوا إنهم شاهدوه يعمل فى معسكر للانجليز بالاسماعيلية .

وكنت فى خلال هذه الأحاديث أشعر كأن أبواب النعيم قد تفتحت لى لاسيما كلما تلاقت عيوننا فى نظرات مختلسة ، تلتهب وجنتاها بالخجل وتغض ببصرها فى حياء يجعل قلبي يتواثب فى صدرى راقصا ...

. . . .

وأقبل أخيراً يوم السبت الذى حدد الطبيب الكبير مساءه فاصلا بين موت « شاكر » « بك » وحياته ... وكنت قد لمحت فى اليومين الأخيرين أعراضاً مرضية على جسمه فثمه ورم وانتفاخ فى مواضع مختلفة من قدميه وساقيه وبطنه ، وازدياد فى أنفاسه اللاهثة ومظاهر التعب الشديد التى كانت تبدو عليه كلما تحرك أو تحدث . . .

ولما عدت فى أصيل ذلك اليوم الى المسكن بعد أداء بعض المهام فوجئت بمظاهر الكآبة والوجوم تسود المكان ، ووجدت شفيقة هانم وأنسام فى غرفتي تنتحبان فى صمت، أما عبدالله فقد همس لى:

ـ أصيب شاكر « بك » بنوبة أغماء حادة ... ربنا يلطف ... الطبيب معه الآن .. وكذلك الحاج ... وأحسست بموجة من الانقباض تغمر نفسى ، فجلست ، مطرقا ساكنا لا أدرى كيف اخفف عن الزوجة والابنة وقع المصاب إذا حدث ... وأقبل الحاج أخيرا فى هدوء وأشار الى ابنته وحفيدته ليتبعاه الى غرفة المريض . فنهضنا فى سكون وقد بدت لهما ولى بارقة الامل ... غير أنى لم ألبث أن سمعت نشيجهما وهما ينتحبان ... فأيقنت أن كل شىء قد انتهى ...

ولما لم استطع صبرا ، اختلست الخطا الى باب الغرفة لألقى نظرة أخيرة على أخ لى فى الانسانية أسرف فى إقباله على الدنيا فاسرفت عليه فى إدبارها .. ثم انقضى كل شىء فى هدوء ...

رأيته فى فراشه ساجيا ... لا تزال على شفتيه الجامدتين آثار بسمة خفيفة ... وبجانبه زوجته وابنته تشيعان روحه الذاهبة الى بارئها بفيض آخر من هذه الدموع ... الدموع التى كثيرا ما سكباها من أجله وهو على قيد الحياة ...

الفصل الثالث

(١)

فى شهر يوليه عام ١٩٤٥ كنت قد فرغت من أداء امتحان النقل بنجاح إلى السنة الثالثة بكلية الزراعة. وكنت قد آثرت الدراسة بهذه الكلية لأسباب كثيرة. منها شغفى الغريزى بالريف وما فيه من حياة وادعة، وهواء طلق ومزارع مبسوطة وخضرة لا تشبع العين منها. وليس من شك فى أنه كان لأنسام أثر واضح فى هذا الشغف، ففى الريف نبض الفؤاد بحبها لأول مرة. وفى الريف قضيت أسعد يوم فى حياتى بعد وفاة أمى، وفى الريف عاشت انسام أجمل سنوات حياتها، تعطره بأنفاسها، وتشيع فى زهوره رقتها وعذوبتها، وتفعم زرعه الأخضر بحيويتها وشبابها، وتعلم الماء كيف يبتسم للنبات والشمس ولمسات القمر، وتلقن الطير كيف يغرد بصوت رخيم على أفنان الشجر.

ولهذا كنت أعرف هيام أنسام بالحياة بالريف.. حيث البساطة والرضا والقناعة أعم منها فى المدن، التى يتزاحم الناس فيها فى سبيل العيش تزاحما لا يخلو أحياناً من قسوة وعنف..

وكنت أيضا زاهدا فى الوظائف الحكومية بعد الذى لمسته بنفسى خلال فترة الحرب . فقد عانى الموظفون الشىء الكثير من الشظف والعنت والارهاق . ومن ثم كنت آمل فى نهاية المرحلة أن أظفر بإقطاعية زراعية أستغل فيها ما تلقنته من علم ومعرفة ، وأسكب من روحى فى الأرض الميتة ما يجعلها جنة تجرى خلالها الجداول والقنوات ، فأساهم من ثم بنصيبى المتواضع فى زيادة الثروة الزراعية فى البلاد .

وكنت فى خلال هذه السنوات الثلاث التى انصرمت منذ وفاة (شاكر بك) حتى شهر يوليه من عام ١٩٤٥ ، قد لقيت من صور الحياة وفنونها ما لقيه عامة الناس فى تلك الفترة العصيبة . . فقد ازدادت موجة الغلاء إلى حد أرهق ذوى الدخل المحدود كالموظفين ـ حكوميين وغير حكوميين ـ إرهاقا جعل زوجات الغالبية العظمى منهم يبعن ما يمتلكن من حلى وما يفيض عن الحاجة الضرورية من متاع ، حتى سماهم الناس والصحف بحق (فقراء الحرب)

أما العمال فقد رأوا فى تلك السنوات عهدهم الذهبى ، فإذا هم يكسبون من المال ما لم يكونوا يحلمون به ، وإذا وفود من شباب ورجال الريف الفقراء يهرعون إلى القاهرة والاسكندرية ومنطقة القنال ليعبّوا من المورد الذهبى ، وإذا هؤلاء وأولئك ينفقون ما

يكسبون بإسراف شديد ضاعف من موجة الغلاء، وإذا أكثرهم يهجر هذه الغرفات التى كانوا يسكنونها فى الأحياء الفقيرة إلى مساكن بالأحياء المتوسطة غير مبالين بالإيجارات المرتفعة، وإذا صغار الموظفين الذين تحايل ملاك البيوت على طردهم من مساكنهم يحتلون هذه الغرفات الضيقة المظلمة فى الأحياء الفقيرة فيدفعون فى الغرفة الواحدة نفس الايجار الذى كانوا يدفعونه فى شقة كاملة بالماء والكهرباء.

واشتط العمال فى الأخذ بأسباب الرفاهية - النسبية - التى كانت حلما يراود أذهانهم فى حوالى الستين، ولم يجدوا للأسف الشديد من يقدم لهم الارشادات والتوجيهات العلمية (لا النصائح الافلاطونية) ولكنهم وجدوا بدلا من هذا من يبتز أموالهم فى دور السينما، حيث الأفلام الرخيصة التى أنتجت خصيصا لهم، وفى المساهر الوضيعة التى ترقص على خشباتها فتيات من خدم المنازل وجامعات أعقاب اللفائف، وفى الحانات والمشارب والمقاهى التى تكاثرت وازدهرت كالنباتات الطفيلية التى لم تجد من يستأصل بذورها.

وفيما كان التذمر يشيع فى نفوس أكثر الناس من الطبقات الأخرى لما يبديه العمال من زهو وخيلاء وإسراف، كنت كغيرى

ممن ينظرون إلى الواقع بإنصاف لا أجد فيما يأتيه العمال ما يدعو إلى العتب أو التذمر وإن كان يدعو إلى كثير من الأسف. فقد كان العمال قبل عهدهم هذا كالطفل اليتيم المحروم الذى تسعده كسرة خبز يخفف بها ألم الجوع. فهل يلام مثل هذا الطفل إذا هو وجد نفسه أمام مائدة مثقلة بفنون وألوان الأطعمة الشهية فأقبل عليها إقبالا عنيفا.

وهل كانت النصائح الافلاطونية والخطب المنبرية تكفى لانتزاع هذا الطفل عن مثل هذه المائدة !!

لقد كان السؤال الذى يتردد على ذهنى خلال تلك السنوات دون أن أجد له إجابة مقنعة هو: « لماذا لم يسن قانون — وما أكثر القوانين والأوامر التى صدرت فى تلك الفترة - يحتم على أصحاب المصانع والسلطات العسكرية أن يخصم من أجر كل عامل مقدار الربع شهريا (أى ما يبلغ نحو خمسة ملايين جنيه فى العام). لتودع فى خزائن الحكومة، ثم يقام بالمبلغ المتجمع (أى ما يزيد عن عشرين مليون جنيه مصانع مختلفة ومشروعات مثمرة تستوعب جميع العمال الذين سيتعطلون بعد الحرب وتهيىء لهم نظاما للتأمين الاجتماعى يطمئنهم على مستقبلهم، ويحول بينهم وبين هذه المبادىء الهدامة! ألم يكن فى مثل هذا القانون ما يخفف من إسراف العمال. وما يهدىء بالتالى من موجة الغلاء. وما يعود بالنفع فى النهاية على جميع أفراد الشعب عمالا وغير عمال ؟!

فإذا تركنا هذا السؤال المعقول ، قلت إن عبد الله قد انتقل بعد وفاة شاكر « بك » ببضعة شهور إلى مسكن لائق بمركزه كتاجر ناجح . وبقيت أنا فى غرفتى المتواضعة حتى أتممت دراستى الثانوية . ولما توفى صاحب المخبز الكبير ، وأغلقت فروع البيع بالتجزئة . اقترح عبد الله على ـ وقبلت ـ أن أشتغل فى متجره ست ساعات كل يوم بعد العصر . نظير خمسة جنيهات شهريا . فلما انتهت الحرب وبدأت موجة الرواج العنيف تنحسر مخلفة وراءها كثيرا من الضحايا ، رأيت أن مرتبى يثقل موارد عبد الله ، فأعفيته من خدماتى ، والتحقت بمصنع نسيج فى إحدى ضواحى القاهرة حيث رحت اعمل فيها مراقبا للإنتاج ثمانى ساعات كل يوم ، تبدأ من الثالثة حتى الحادية عشرة مساء ، وذلك نظير تسعة جنيهات ونصف شهريا ..

. . . . .

وفى شهر يوليه هذا سنة ١٩٤٥ تلقيت فى الأسبوع الأخير منه خطاباً من سيدى الحاج يطلب إلى فيه السفر إلى البلدة لانجاز بعض المهام الضرورية الخاصة بأخى الصغير وبحياته مع أمه وزوجها « المعلم عطوة » القهوجى . وبرغم أنى لم أزر البلدة منذ قدومى إلى القاهرة ، فقد كنت أتتبع بانتظام أنباء أخى ومراحل

دراسته الأولية . ولا أقصر فى إرسال الهدايا المناسبة له من حين إلى آخر ولكن انباءه فى الشهرين الأخيرين كانت قد انقطعت عنى تماما ...

فلما قرأت خطاب الحاج ، أحسست على رغمى بشىء من القلق . فقد كانت صيغة الخطاب تنم على أن أحوال أخى فى حياته مع أمه وزوجها ليست كما ينبغى . ومن ثم طلبت من إدارة المصنع أن يسمح لى بعطلتى السنوية ـ وكانت لا تتجاوز اسبوعين ـ ثم احتقبت كثيرا من الهدايا المناسبة لأخى « ونينا » وأنسام وخالتى شفيقة وسيدى الحاج ، أما ستى الحاجة فكانت قد انتقلت إلى جوار الله ...

وودعت أصدقائى وزملائى الثلاثة الذين كانوا يقيمون معى فى مسكنى الجديد : هـذا المسكن الذى استأجرته عند التحاقى بالكلية . . . وكان يقع فى نهاية شارع يشرف على النيل فى حى متوسط بجزيرة الروضة ، ثم أخذت سبيلى إلى البلدة فى صباح يوم طاب هواؤه ورق نسيمه .

كان أبى أوصانى ألا أعود إلى البلدة زائراً أو مقيما إلا وأنا إنسان له قيمته واحترامه فى الحياة . فإذا لم تسعفنى الاقدار بهذا الخير ، فيحسن أن أبقى بعيدا عنها حتى لا أكون موضع رثاء

أو سخرية أحد فيها . وكنت أعلم أن الطالب الجامعى له مكانته المرموقة فى نظر أهل البلدة جميعا ..ولكن هذه المكانة المرموقة لا تتم حتى يبدو الطالب فى مظهر لائق بكرامته . ومن ثم أوليت مظهرى فائق العناية . ولقد أعانى على هذا تجنبي للمظاهر الجوفاء كالتدخين وكثرة التردد على دور السينما والمنتديات الليلية . ذلك إنى كثيرا ما رأيت بعض زملائى الجامعيين يبدون على شىء غير قليل من الضعف البدنى وسوء المظهر الخارجى . ولو كانت رقة الحال هى السبب لما كان ثم لوم أو عتاب ، ولكنى كنت أراهم يسرفون فى التدخين وفى الإقبال على دور اللهو حتى ليفخر الواحد منهم بأنه ينفق فى الشهر أكثر من أربعة جنيهات فى هذه السبيل

. . . . .

وبلغت البلدة أخيرا والنوازع المختلفة تعصف بنفسى . ولكن هذه النوازع لم تلبث أن تلاشت إزاء حسن الاستقبال ومظاهر الحفاوة التى لقيتها من الجميع ، حتى خيل الغرور إلى أنى قائد صغير عاد إلى مسقط رأسه بعد أن فتح عكاء !!

وبرغم ما كان يبدو على سيدى الحاج من شيخوخة مفاجئة ، وما كان يكمن فى عينيه من حزن عميق فقد شملنى بألوان من التقدير والتكريم جعلت رأسى تدور . ولو كانت أمى على قيد

الحياة لما أسبغت على من عطفها أكثر مما فعلت خالتى شفيقة .أما أنسام... ويحي... فقد أحسست بقلبي ينتفش فى صدرى وينتفخ إلى درجة الانفجار لفرط ما أبدت نحوى من إعجاب وحب وتقدير... فقد كان وجهها الخجول يفيض بالإشراق وهى ترحب بى ، وكان فى نظرات عينيها الواسعتين حديث ممتع لا تقوى الشفاه على التعبير عنه ، ولا تدرك معانيه غير القلوب .

وبعد أن استرحت من عناء السفر استدعانى سيدى الحاج إلى غرفته الخاصة وأخبرنى أن الشيخ عبد العاطى المحامى الشرعى يستطيع بنفوذه أن يجعل إدارة المعاشات بوزارة المالية تستمر فى صرف نصيبى من معاش أبى برغم تجاوزى سن الواحدة والعشرين ، وذلك حتى أتم دراستى العالية . فشكرت له ـ لسيدى الحاج ـ اهتمامه بهذه الناحية وقلت إن هـذا الرأى مقبول لو لم أكن أعمل وأكسب أكثر من حاجتى ، ولو لم أكن متمتعا بالمجانية فى الكلية . ولما كان نصيبى من المعاش يئول برضاى إلى أخى الأصغر ، فقد أكدت له أنى سأرسل إليه ما يفيض عن حاجتى فى القاهرة ، أى أكثر من هذا النصيب ...

ونظر الحاج إلىّ فى صمت برهة ثم ابتسم وقال :

ـــ عظيم جدا ... ستعيش يا ممدوح طول حياتك وأنت أغنى

الأغنياء مادمت مستمراً فى الاعتماد على نفسك وفى التعفف عن كل ما ليس لك حق فيه ...

ثم تلاشت البسمة فجأة وتضاعف الحزن فى وجهه وهو يقول :

إن السيدة منيرة « نينتك » قد طلبت إلينا أن نسعى لانتزاع الوصاية على أخيك أحمد منها وتعيينك أنت وصيّاً عليه فى جلسة مستعجلة بالمجلس الحسبى ...

فقلت فى دهشة وقد عاد القلق إلى نفسى ...

لماذا ؟... ماذا حدث ... ؟

— تقول إنها تخشى أن تعجز عن الإنفاق عليه حتى يتم دراسة عالية مثلك .

— وهل ستوافق هى بنفسها على هذا الإجراء فى الجلسة ... ؟

— نعم ... لقد أكدت لنا هذا ... وهى تريد أن تراك فى أقرب وقت بعد وصولك ...

ولما أحسست أن سيدى الحاج لا يريد أن يصارحنى بحقيقة الأمر ، حملت الهدايا الخاصة بها وبأخى وانطلقت مسرعا إلى حيث تقيم (وكنت قد عرفت عنوان المنزل). فلما أخذت فى الاقتراب منه ، راح قلقى يزداد فى كل خطوة . ذلك أنى ألفيت

نفسى أخوض فى حارة موحلة ضيقة فى حى فقير من أحياء البلد، لا يفترق كثيرا عن تلك المنطقة البائسة التى كان يقيم فى كوخ بها عم عبد الله المقعد العجوز .

وكان البيت الذى قيل لى إنها تقيم فيه لا يزيد عن حجرتين مشيدتين بالحجارة والطين ، يتحدث كل حجر فيها عن الفاقة والبؤس أبلغ حديث .

فكيف تقيم « نينا » مع أخى فى مثل هذا البيت وقد قيل لى إنها تزوجت من صاحب مقهى ميسور الحال وكيف سمح سيدى الحاج أن يعيش أخى فى مثل هذه البؤرة دون أن يخطرنى بالأمر ؟ ثم كيف تصبر « نينا » على هذه الحياة وهى التى كانت فى عيشها مع أبى معززة مكرمة لا يرضيها إلا الكثير من كل شىء ... ؟

وخطرلى أنى ضللت الطريق . . . ولكن ... ماذا ؟ ... إنى أراها ... أرى «نينا» نفسها ... « نينا»ذات الوجه الأسمر والعيون الحولاء ، والجسم الذى كان بدينا . إنها تفتح الباب وتلقى خارجه بماء قذر من وعاء أشد قذارة ، ولولا أنى وثبت جانبا لانصب الماء على ..

ووقفت هى بالباب تنظر إلى بعيون مشدوهة جاحظة ...

ووقفت أنا أرنو إليها بنظرات فيها حزن وإشفاق ورثاء — وفيها خوف أيضا — وكان بعض سكان الحارة من النساء والصبية قد وقفوا فى جوانبها وعلى أبواب البيوت وفى النوافذ ينظرون إلى وكأنى « مخلوق عجيب » أو كأنهم لم يروا « افنديا » أنيق المظهر فى حياتهم . وأخيرا أفسحت « نينا » الطريق وتمتمت :

— تعجبنى . . . أهلا وسهلا ... تفضل بالدخول . . .

وأقسم أنى أحسست فجأة بالفزع وقدخيل إلى أن فى داخل البيت عصا ذات عقد وندوب تنتظر جسدى المسكين . . .

---

(٢)

لولا أنى تمرست بضع سنين بالحياة فى الأحياء الفقيرة ، ولما صبرت على البقاء ساعة كاملة فى هذه البؤرة القذرة التى تسمى « بيتا » والتى يمتلىء جوها بروائح النتن والعفونة .

كان البيت كما ذكرت مكوناً من غرفتين غير مرصوفتين بالبلاط ، يفصل بينهمالوح من الخشب ، تتواثب فى الغرفة الأولى ثلاث دجاجات وزوج أرانب حول زير ماء وبعض الأوانى الفخارية والمقاعد الخشبية وموقد عليه إناء طعام . وفى الغرفة الثانية حصير عليه فراش قذر تمرح فوقه ألوان من الحشرات

وتناثر حوله بضع ثياب خلقة .

وأحضرت « نينه » مقعدا خشبيا ودعتنى للجلوس ثم جلست هى على الفراش أمامى وأخفت وجهها المغضن النـاحل الأزرق بين يديها برهة وأخيرا رفعت رأسها المشعث وقالت :

— لم أر يوما واحدا يعجبنى بعد وفاة والدك يا ممدوح ... رحمه الله ...

وأثار صوتها الحزين المتهافت موجة من الحزن فى نفسى ، فمضيت أواسيها وأبعث العزاء إلى قلبها حتى هدأت قليلا وقالت :

هذا ما كنت أنتظره منك ... تعجبنى ... فإن إحسـانى إليك وتربيتى القومية لك وعطفى عليك و...

فأسرعت أقول :

— نعم ... نعم ... يا نينة أنا لا أنسى أياديك البيضاء ... وهل ينسى الجميل غير ابن الحرام ؟ ! فازدادت نفسها هدوءا وطاف على وجهها ظل ابتسامة ، ثم انطلقت تذكرنى بما كانت تؤديه إلى من خدمات ، وبما كانت تتحفنى به من طعام بعد أن تحرم نفسها وابنها منـــه ، وبما كانت تسبغه على من عطف . والعجيب أنها كانت تذكر هذا بصوت ملؤه الإيمان واليقين ، حتى خطر لى أن بعقلها مسًّا من الجنون . وأخيرا قلت لها متسائلا

وأين أحمد أخى . . . ؟

فماتت البسمة الباهتة على وجهها وغمغمت:

إن . . . إنه . . . مع المعلم . . . فى القهوة . . . .

فهتفت فى شىء من الغضب :

مع المعلم . . . ! ؟ فى القهوه . ! ؟ ما ذا يفعل هناك . . . ؟ !

فمدت يدها النحيلة المرتعدة وأمسكت بطرف سترتى كأنما تخشى أن أهرع إلى حيث هو ثم قالت وهى تغص بريقها :

— بحق إحسانى إليك . . . وتربيتى لك أن . . . أن ترحمنى . . فبعد أن فقدت أباك . . . ثم أبى وأمى لم يعد لى فى الدنيا من يشفق بى . . . إننى يامدوح . . . أتعذب . . . كما لم تتعذب أم إننى أرى ابنى بعينى يجوع فلا أجرؤ على إطعامه إلا خلسة . . وأراه يكاد يموت تحت ضربات المعلم فلا أقدر على إنقاذه . . . وأراه يرتعد من البرد فى ليالى الشتاء فلا أستطيع تدفئته . . . إن المعلم يامدوح . . . رجل مجنون . . . يتعاطى المخدرات وينفق أرباحه على هذا الداء وعلى زوجتين أخريين . وأنا الزوجة الثالثة ؛ وهو يستولى منى على نصيبك ونصيب أخيك من المعاش والويل لى إذا اعترضت . . . انظر . . .

وأعترف أنى كدت أفقد صوابى حزنا وغضبا حين سمعتها

تصف عذاب أخى مع هذا الوحش الآدمى وكأنى نسيت مشاعرى هذه حين كشفت البائسة عن ذراعيها وساقيها وما بين كتفيها ... فإذا آثار زرقاء دامية لألاهيب سوط . وإذا جراح طويلة لم تلتئم بعد.. فأشحت بوجهى متألما مستنكرا بينما استطردت هى تقول :

— هذا جزائى كلما اعترضت على أفعاله ... والآن فقدت القدرة تماما فى مقاومته .. فاستسلمت لقضاء الله ...

فتمتمت فى ذهول :

ولماذا تصبرين على هذا ؟ لماذا لم تلجئى إلى القضاء لينتصف لك ... ؟ !

فترددت برهة قبل أن تقول

إنه ... إنه ... يهددنى بالقتل وبقتل ابنى إذا فعلت هذا ، وماذا أصنع بحياتى إذا انفصلت عنه... إننى لن أجد زوجا آخر وقد بلغت هذه السن ، وهذه الحالة ليس لى أمامها غير الصبر ...أما ابنى فإنى ...

فأسرعت أقول :

نعم ... يجب أن يعيش بعيدا عن هذا الجو ... فى أسرع وقت .. فحاولت أن تبتسم ، وهى تقول :

تعجبنى حماستك لإنقاذ أخيك .. ولكن تعجبنى أكثر إذا لم تنس شعورى وأنا أحرم من ولدى الوحيد .. من ولدى الذى

يخفف عنى بوجوده معى بعض الشقاء برغم ما ألقاه ويلقاه . . .
ولكن حياته أغلى من حياتى ومستقبله أهم من مشاعرى . . ولهذا
يجب أن ينعم بالحنان والعطف فى رعاية سيدة نبيلة مثل شفيقة هانم .

— شفيقه هانم ؟

— نعم ألم يخبرك الحاج بالأمر ؟ !! إن شفيقه هانم أبدت رغبتها
فى حضانة ولدى ورعايته وتولى شئونه حتى تتفرغ أنت لدراستك
ولولا خوفى أن يرغمنى المعلم على استعادته منها بصفتى وصية عليه
لسلمته إليها منذ سنة كاملة . . ولكن يجب أولا أن تتولى أنت
الوصاية عليه . . وسوف أعينك على هذا برضائى . . ولقد اتفقت
مع الحاج على أنه تتم إجراءات نزع الوصاية منى إليك فى هدوء
حتى لا يعلم بها « المعلم » . ولسوف أوطن نفسى على ما سألقاه
منه بعد نجاة ولدى . . وقبيل الجلسة بيوم سأحتال على تهريب
ولدى إلى بيت الحاج . . ويؤكد الشيخ عبد العاطى أن هذا الإجراء
لن يستغرق من المجلس الحسبي أكثر من أسبوع واحد .

فلما طلبت منها أن تذكر لى اسم هذا المعلم ومكان مقهاه ،
أسرعت تقول ضارعة :

لا لا ، أرجوك يا ممدوح أبتهل إليك ، إنك لو ذهبت إليه ورأيت
أخاك وهو يقوم على خدمة الصعاليك من زبائن القهوة لحدث

بينك وبين المعلم مالا يعلم عاقبته غير الله ..

فأومأت لها برأسى ، وأنا أحس بموجة عارمة من الغضب الأرعن تجتاح نفسى ، وتكاد تدمر عقلى . ثم وثبت قائما وحملت الهدايا الخاصة بأخى المسكين ، وتركت فى يد المرأة البائسة مبلغا صغيرا من المال ؛ وغادرت البيت وأنا لا أكاد أرى طريقى لفرط الغضب والألم والحزن .

لقد لقيت فى حياتى ما يدعو إلى الغضب فى أحوال كثيرة .. ولكنى كنت فى كل مرة أسيطر على زمام نفسى بالتفكير السليم ؛ ولم أدع ريح الغضب تطفىء ـ كما يقال ـ نور العقل مرة واحدة ، بيد إنى شعرت وأنا أسير فى طرقات البلدة هائما ذاهلا عن كل شىء ، إننى فقدت زمام نفسى تماما بسبب ما سمعته عن أخى الطفل وما يلقاه على يدى زوج أمه الوحش .

كنت أردد لنفسى أن زوجة الأب قد يكون لها بعض العذر فى كراهيتها لأبناء زوجها .. لأنها كامرأة تطمع دائما فى أن يكون زوجها بخيراته وأمـــواله وعواطفه وأفكاره ، خالصا لها ولأولادها منه .

هى كامرأة أيضا تبخل بجهودها فى تربية أولاد لا يمتون إليها بسبب . ولكن كيف يسمح رجل كهذا المعلم مثلا أن يمتهن

الرجولة، بتعذيب طفل ليس له حول ولاقوة، وكيف رضى ضميره — إن كان له ضمير — عن اغتيال مال هذا اليتيم، ثم حرمانه بعد هذا — من حقه فى حنان أمه ؟

الله يعلم ماذا كان سيحدث منى إذا ما عثرت فى ذلك اليوم على مقهى ذلك المعلم ورأيت أخى الحبيب يقوم على خدمة الصعاليك من زبائنه . لقد كنت أنظر فى خلال تجوالى إلى المقاهى التى تكاثرت فى البلدة كالوباء ... وأظن أن احتقارى فى ذلك اليوم بلغ ذروته لأولئك الذين ينفقون نصف أعمارهم جالسين فى تبلد وخمول يدخنون أرخص التبغ ويشربون فى أقداح كلها جراثيم وميكروبات، ويقامرون بلعب الورق والنرد أو يتابعون بنظراتهم الوقحة الرائحين والغادين، لاسيما النساء أو يتبادلون أحاديث تافهة لا تخلو أبدا من الغيبة والنميمة والحسد . .

ولما هدأت نفسى قليلا، توجهت إلى بيت سيدى الحاج؛ ثم مضيت فورا إلى الغرفة التى خصصت لى؛ فاستلقيت على أقرب مقعد فيها، وجعلت رأسى بين يدى وبذلت مجهودا عنيفا حتى لا أنفجر باكيا .

لقد أخذت أنظر بعين الخيال إلى شريط حياة أخى الطفل وهو يتعذب على يدى وحش آدمى : رأيته وهو يتلوى بالآلام

الدامى مستغيثا فلا يجد من يعينه . . وهو يشعر بالجوع القاسى يقطع أحشاءه فلا يجد يداً رحيمة تمتدإليه بالطعام . .وهو يرتجف فى ليالى الشتاء بردا فلا يجد صدر أم أو أب يضمه إليه ويشيع فى جسده المقرور الدفء والحنان .

ولما أحسست أن قلبي سينفجر لهول مشاعرى ،رفعت وجهى فجأة كغريق يلتمس نفحة هواء يخفف بها عن صدره المعذب . وعندئذ رأيت أنسـام تأتى فى رفق وعلى وجهها أبلغ آيات العطف والاشفاق .

(٣)

وقفت برهة بجانبى لا تتحدث . وأخيرا وضعت يدها على كتفى فى هدوء وتمتمت !

ـــ هل رأيت أخاك . . .؟

ـــ لا ...

ـــ إذن لماذا ... ؟

ـــ أخبرتنى « نينه » بكل شىء ... وانى لأعجب ...

ثم أمسكت فجأة حتى لا تندعنى كلمة عتاب جارحة ، فأدركت هى ما أعنى وقالت :

— تعجب لأننا لم نرسل إليك بحقيقة الحال :

فلما أومأت فى صمت استطردت تقول :

— لم يعرف جدى ما يلقاه أخوك من عذاب إلا فى الشهرين الأخيرين ... لقد كان يرسل نصيبك من المعاش إلى والدته على يد « نبوية » الخبازة ، ولقد حاولنا كثيرا أن نغريها بإرسال الطفل إلينا ولو مرة واحدة كل أسبوع . ولما رآه جدى فى المقهى أخيرا أرسلنى مع « ماما » إلى السيدة منيرة . وهناك بذلنا معها جهودنا لتتنازل عن وصيتها عليه ... ولما رفضت ، استطاع الشيخ عبد العاطى المحامى أن يقابلها وأن يؤكد لها أن بقاء الطفل على هذه الحالة سينتهى به إلى المرض ثم الموت العاجل ، وإنها إذا لم تتنازل عن الوصاية طوعا ، فسوف يثبت للمجلس الحسبى سوء عنايتها به وعجزها عن حمايته ورعايته ... وبعد أسبوعين من حديث المحامى معها ؛ سعت هى إلينا وأبدت استعدادها للتنازل عن الوصاية لك ، على أن يبقى الطفل معنا ... هنا .

فقلت بعد أن شكرت لها هذا الإيضاح :

— بل سيكون أخى معى ...

فبدا الألم واضحاً فى صوتها وهى تقول :

أولا تأمننا عليه ... ؟ !

— لا ... لا ... ليس هذا ما أعنى ... بل أخشى أن ...

— لو تعلم مقدار حزن « ماما » حين رأته فى المقهى ، وما سكبت لأجله من دموع ، ثم لهفتها على تكريس حياتها لتربيته وإسعاده ، لما ترددت فى الموافقة على بقائه بيننا ...

فنظرت إليها دون أن أحير جوابا ... ذلك أنى لم أجد عبارات مناسبة أعبر بها عن شكرى لها ولأمها الشفوق ...

. . . . .

ولكنى مع هذا بقيت شارد الذهن حزين النفس ، لا يستقر لى قرار خلال الأيام الخمسة التالية . فلما استطاعت « نينه » فى اليوم السادس أن ترسل أخى إلينا مع جارة لها عطوف ، أحسست بقلبى يتمزق بالفرحة والحزن معا ـ وأنا أضم جسده الصغير المضطرب إلىّ وأغمر وجهه بقبلاتى ودموعى ... وكان المسكين ينتحب بالبكاء وقد بدا على وجهه الشاحب الصغير أمارات الخوف والرهبة والحيرة ، وكأنه حيوان وليد انتقل من بيئة إلى أخرى ...

ولم تهدأ نفسه المضطربة ولم يكف عن البكاء ، حتى ساعة متأخرة من الليل .. بدأ فى تناول ما قدمناه إليه من طعام وحلوى فلما أويت بجانبه فى فراش واحد ، طفقت أحدثه بما سيلقاه من

حنان وعطف ونعيم ، وبما سيكون من أمره حين يكبر ويصبح «أفنديا» طويلا عريضاً مثلى ، حتى استغرق فى النوم وقد شاعت فى وجهه البرىء بسمة هانئة .

واستيقظت بعد نوم مضطرب قبيل الفجر كعادتى بقليل ... فلما ألفيت أخى لا يزال مستغرقا فى نومه الهادىء بجانبى ، خفق قلبى بأصدق آيات الشكر لله . ثم رحت أتأمل وجهه الساجى الذى كان صورة مصغرة من وجه أبى ، وأنصت إلى أنفاسه المنتظمة . ثم أعود بالذاكرة إلى أيام صباى حين كنت أنام بجانبه هكذا وهو فى ذروة العام الأول من عمره ...

ذكرت بسماته الطاهرة التى كانت تخفف ما ألقاه من عذاب ، وذكرت تعلقه بى واطمئنانه إلى ، ثم بكائه الغريزى يوم ودعته قبيل رحيلى إلى القاهرة ... وأخيراً آمنت بأن ما فى الدنيا من مال ومتاع لا يساوى شعورى بهذه الأخوة الخالصة التى يزخر بها قلبى لأخى هذا الطفل ، وأن مالقيته . من عذاب وهوان على يدى والدته ، ليتضاءل بجانب هذه المتعة الروحية السامية ... متعة شعور الإنسان بأن له فى الحياة أخا ... تجرى فى عروقه دماء والد واحد أو أم واحدة أو كليهما معا ...

ومرة أخرى سمعت من بعيد مؤذن الفجر يرسل دعاءه العذب

الجميل فلا أتبينه بأذنى وإنما أسمعه بقلبي الشاكر لله ، وأتفهمه بروحى السعيدة بأخى هذا الحبيب .

وفى خلال الأيام الثلاثة التالية نسيت بسبب قرب أخى كل ما عانيته من أجله فى الأيام السابقة على حضوره . ولقد انتهت اجراءات نقل الوصاية من « نينا » كما نحب ونشتهى بفضل ما أبداه الشيخ عبد العاطى من مهارة وحسن تدبير ...

وفى اليوم الرابع بدأ أحمد يألف حياته الجديدة ، وغدا يرتع لاعباً فى الحديقة ، ويرسل ضحكاته الحلوة البريئة فيكون لها فى أذنى أجمل النغم ، ثم بدأت مظاهر هزاله وضعفه تختفى شيئا فشيئا . أما خالتى شفيقة فكانت أسعدنا جميعا بهذا الطفل الذى جدد شبابها وجعل فى حياتها هدفا جديدا . . .

كنا نخرج جميعاً ـ خالتى وأنسام وأخى وأنا ـ فى بعض الأمسيات نسير متنزهين فى شارع « البلدية » المشرف على النيل ، وندور حول حدائقها قليلا ، ثم نعود وقد انشرحت صدورنا وقرت عيوننا .

وفى خلال هذا الطواف ، وفى ساعات النهار كذلك ، كنت أرى أن الحياة فى المدينة لم تكن كعهدى بها قبل أن أغادرها إلى القاهرة . لقد كانت من قبل زاخرة بالحياة وبالحركة . . . وكانت

موسيقى البلدية تصدح فى أيام معلومات بحدائقها الأربع، وكانت دار السينما فيها تعرض أحدث الافلام ، وكان المشرفون على النادى الرياضى بها يقيمون بين الحين والآخر حفلات غنائية يحييها أشهر مطربى ومطربات العاصمة، فكان الأهالى يقضون فى كل شهر تقريبا ليلة ساهرة تخفف عن النفوس بعض ما يعتريها من سأم وكلال. وكانت الاحتفالات العامة فى الأعياد القومية والمواسم الدينية والمناسبات الوطنية تمتاز بألوان وفنون من البهجة والمرح والنشاط... فالسرادقات تقام هنا وهناك ، والمشارب الصغيرة تتناثر فى كل مكان وأنوار الزينة تتلألأ فى جنبات النادى وفى الشوارع العامة وعلى أغصان الشجر ، وفرق الموسيقى تعزف أجمل مقطوعاتها فى الحدائق فتحييها الجماهير بالتصفيق بين كل مقطوعة وأخرى ، وراقصات «الغجر» يتوافدن من ناحية «سنباط» فيؤدين رقصاتهن فى المقاهى «البلدية» . فكان لهذا كله أثره العميق فى الترفيه عن نفوس العاملين الكادحين فى سبيل الرزق ، وتلوين حياتهم بألوان بهيجة مشرقة، تخفف عنهم كثيرا من عنت الحياة...

أما الآن... فقد انكمش هذا كله إلى لحظات قليلة تعزف موسيقى «البلدية» خلالها مقطوعة أو اثنتين فى حديقة النادى

مرة كل اسبوع ، وكان العزف ينم عن هذه الملالة التى يشعر بها العازف حين لا يجد جماهير تنصت إليه . وساد الاحتفالات العامة روح الخمول وقلة المبالاة . . . وكأنى بسنوات الحرب قد تركت فى نفوس الأهالى شعورا عميقا بتفاهة الحياة وعقمها وقلة جدواها .
ولقد تبينت من أحاديثى مع المثقفين من أهل البلدة أن هذه الحالة ترجع إلى أسباب كثيرة : منها صيحات الساخطين ، الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب ، بسبب الأموال التى تنفقها البلدية فى إقامة الزينات ، قائلين إن الفقراء والمعوزين أحق بها وكأنهم نسوا أو تناسوا أن حاجة الفقراء إلى شىء من التسلية والترفيه لا تقل عن حاجتهم إلى الغذاء والكساء ، وإلا لما كان ثمة فارق بينهم وبين الحيوان الذى يعمل ويأكل وينام .
ومنها نشوء طبقة من أثرياء الحرب الذين جعلوا النادى الرياضى منتدى للميسر والخمر والمظاهر الجوفاء . ومنها إصرار «المأمور» وسكرتيرى البلدية الذين عينوا خلال الحرب على إغلاق الحدائق العامة فى وجوه الكثرة الغالبة من أبناء المدينة بحجة المحافظة على رونقها ورواثها ، بينما هم ـ فى الوقت نفسه ـ يفتحونها لأبناء الاجانب وكبار البلدة وأثريائها . ونشأ عن هذا الإجراء انقطاع التجاوب الروحى بين الحاكمين والمحكومين ، دون أن يبذل أعضاء المجلس

البلدى المنتخبون أى جهد لإعادة هذا التجاوب إلى ما كان عليه...

وفيما أنا جالس ذات ليلة فى النادى مع لفيف من طلبة الجامعة سمعت حديثا قصيرا يدور بين كهلين على مائدة مجاورة ، وكانا يتحدثان عن الحاج عبد الحميد — أى سيدى الحاج — ولشد ماروعت حين عرفت من نثار حديثهما أن الحاج غامر - فى السنتين الأخيرتين - بالتجارة فى القطن آملا ان يربح بضعة آلاف جنيه يشترى بها مزرعة الفاكهة المجاورة لعزبته ، والتى لاتزال معروضة للبيع .. وكانت النتيجة أنه خسر بضعة آلاف جنيه . ثم أنذره « البنك » الذى كان يغطى له صفقات القطن بتسديد المبالغ المدين بها فى خلال ستة أشهر ، وإلا عُرضت عزبته فى المزاد العلنى .

وغادرت النادى ولبعض هذا الحديث رنين فى سمعى قاسٍ رهيب . . . فقد عرفت حينئذ سر هذا الحزن العميق الكامن فى عينى الحاج ، وسبب هذه الشيخوخة المفاجئة التى ركبته فى خلال عامين : ولا عجب .. فأى إنسان لا يهده الحزن هو يرى فى خاتمة حياته كل ما أقامه بيديه يوشك أن ينهار عند قدميه ! ؟ وأى إنسان لا يألم وهو يترك إبنة كشفيقه هانم ، وحفيدة كأنسام لتقلبات الأيام ! وأى إنسان لا يمتزج حزنه العميق بلواذع الندم المرير لإقدامه على مغامرة فاشلة ولّدها الطمع فى

الثراء العـــاجل من أيسر السبل ! ؟

ولكنى مع هذا شهدت له — وأنا أفكر فى أمره — أثناء ذهابى إلى بيته ، بالقوة على احتمال الصدمة ، والقدرة على التظاهر بأن كل شىء كما ينبغى ، وأن شبح الفاقة لا يهدد حياة أحد فى بيته . فهو يمضى فى المدينة — رغم شيخوخته المفاجئة وحزنه العميق — رافع الرأس هادئ النفس صُلب العود يشارك الناس فى مسراتهم . ويواسيهم فى أحزانهم ، ولا يرد عن بيته سائلا أو محتاجا ثم هو أخيرا لا يغضب أو يثور أو يسخط لأتفه الأسباب كما هو حال الكثيرين ممن تقلب لهم الأيام ظهر المجن .

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب حين بلغتُ البيت ورأيت أنسام تلاعب أخى أحمد فى حديقته . فلما رآنى هرع إلى باسطاً ذراعيه ، فضممته إلى ورفعته عن الأرض وقبّلت جبينه ، ثم أعطيته عشرة قروش وطلبت اليه أن يشترى لنا ست قطع من الحلوى المثلجة من مقصف النادى . فلما هرع مشرق الوجه نظرتْ انسام إلى وقالت وهى تفسح لى مكانا بجانبها .

— هل نويت على السفر غدا ؟

فأومأت وقلت :

— لو كان الأمر بيدى لبقيت معكم إلى نهاية العطلة المدرسية .

ويبدو أنها — باحساسها المرهف — لمحت في وجهي ونبرات صوتي ما تنفعل به نفسي من حزن وقلق ومن ثم قالت :

— هل . . هل بلغك شيء عنا ، إن الناس أحياناً يبالغون في أحاديثهم . . .

فهدأت نفسي قليلا وغمغمت .

إذن فالأحوال ليست قائمة كما يظن بعض الثرثارين . . ! ؟

فتنهدت وقالت :

— لماذا لا يحاول كل إنسان إن يُعنى بأموره الخاصة . ماذا يهمه إذا كان جدي في شدة أو في رخاء . . أهكذا يثرثر الناس في القاهرة ؟ !

— إلى حد ما . . ولكن الأحاديث والإشاعات تتناول أكثر ما تتناول الشخصيات البارزة التي تنشر في الصحف انباءها في المناسبات وفي غير المناسبات أحياناً . . ولو أن بعضهم عرفوا مايقال عنهم . . لآثروا الانزواء وعدم الظهور . . .

— إن الذي يحيرني ويدهشني هو الدافع الذي يجعل أكثر الناس يتناولون بعضهم بعضا بالتشريح والنقد . . ألا يعرفون أن عيوب المجتمع هي مجموعة مافي نفوسهم جميعا من عيوب . . . ؟ !

فابتسمت لحماستها وقلت :

لا تنسى أن كل واحد يرى نفسه — دون غيره من خلق الله — قد أوتى الحكمة وفصل الخطاب . .

— حاشا انت ؟ ! .

فاحمر وجهى لسؤالها المفاجىء وتمتمت مطرقاً برأسى :

— لعلى أكثر الناس غروراً . . فى هذه الناحية . . ؟ !

فهزت رأسها وقالت .

لا . . إن اعترافك بالغرور دليل على أنك تعرف ما هو الغرور . . وأن شغفك بالقراءة والاطلاع خير عاصم لك عن هذه الآفة . . فإن الغرور وليد الجهل . . ألا ترى هذا ... ؟ !

فأومأت وقلت : لأعيد الحديث إلى مجراه الأول !

— إذن أستطيع أن أسافر غداً وأنا مطمئن النفس بعض الشيء عن . .

فوضعت يدها على ظاهر يدى وقاطعتنى بصوت خافت :

إذا طلب منك أن تضحى بشىء من سعادتك الشخصية لإنقاذ رجل . . رجل مثل جدى . . مثلا . . من

فأسرعت أقول مؤكداً :

— لو كانت حياتى كلها تخفف قليلا من ضائقة سيدى الحاج لبذلتها راضيا . . سعيدا . فضغطت بيدها على يدى فى شكر عميق وقالت :

— إن فى نبرات صوتك استعدادا للتضحية . . لقد اسعدتنى وارحت نفسى بهذا الإخلاص والتفانى . . وإنى لأرجو ألا ننسى حديثنا هذا . .

فتقبّض صدرى فجأة وخيل إلى أن وراء حديثها شيئا غامضاً رهيبا فقلت بصوت مضطرب :

— ألا توضحين لى . . معنى حديثك . . قليلا . . إنى . .

فنهضت وقالت باسمة .

ستعرف كل شىء فى الوقت المناسب

فأمسكت بيدها وقلت وقد طار صوابى :

— أنسام . . ما معنى هذا . . إنك . . إنك تعرفين ما أكنه لك . . من . . من . .

فوضعت يدها على فمى وقالت وقد ظللت عينها سحابة ألم عميق :

— أرجوك ... أرجوك ... لا تقل شيئا يامدوح ... انى ادرك تماما ما تكنه لى ... أليس هو ... بعض مما أشعر به نحوك ...

وعندئذ أقبل أخى يحمل الحلوى المثلجة ...

(٥)

رجعت إلى القاهرة وفى نفسى نوازع مختلفة ... فقد غادرت

البلدة وأنا سعيد أشد السعادة من جهة ، محزون أبلغ الحزن من جهة أخرى . . . سعيد لاطمئنانى على أخى أحمد فى حياته الجديدة بين قوم كلهم قلوب مشفقة ، ونفوس حانية ، ومشاعر نبيلة طاهرة . . . وليس أدل على هذا من أنه نسى تماما فى خلال أيام معدودة أكثر ما لقيه من عذاب فى حياته السابقة مع أمه وزوجها القاسى . وكنت سعيداً بعد أن آمنت إيمانا ليس فيه شك بأن حبى القوى فى عذريته العنيف بطهره ، الجياش بسموه ، قد وجد طريقه مفتوحا إلى قلب أنسام ... فأى شاب لا يسعد كل السعادة حين يبادل الحب فتاة كأنسام فيها من الطبيعة جمالها ، ومن السماء نقاءها ، ومن الماء عذوبته ، ومن الزهر ابتسامته ، ومن الطير أنغامه ، ومن الشمس ضياؤها، ومن القمر نوره وحنانه .. ؟!

وكنت محزوناً أبلغ الحزن لشبح المحنة الذى يخيم بظله الثقيل على حياة هؤلاء الذين أحببتهم بكل ما يتسع له قلب من حب ومودة واعتراف بالجميل . وكان هذا الحزن يشتد وبعنف كلما ذكرت حديث أنسام الغامض عن تضحية الفرد بسعادته فى سبيل أسرته ... فلو انها كشفت لى عن نوع هذه التضحية ومداها ، لعرفت كيف اقنعها لتشركنى فيها . ولو كنت أعلم الغيب ،لعرفت

حينئذ أن الاقدار كانت قد فرضت على هذه المشاركة من حيث لا أعلم . . .

كنت أذهب إلى عملى فى سيارة المصنع التى تجمع العمال والموظفين فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وتمضى بهم إلى مكان العمل فى الثالثة تماما . وهناك أجد العمال الذين فرغوا من نوبة العمل الصباحية جالسين إلى طعام الغذا . . وكنت عادة أشعر بالغبطة والرضا كلما رأيت أكثرهم بدافع غريزى يتناولوا طعاما على رخصه ـ مفيدا غزيرا بعناصر التغذية . . . كان الواحد منهم يجلس متربعا أمام صف من الارغفة ـ قد يزيد عن ثلاثة ـ وكومة من الفول الأخضر « الحراتى » وكومة من الطماطم الناضجة ، وقطعة كبيرة من الجبن الدسم وبرتقالتين أو ثلاثة، وفى أقل من ربع ساعة يكون الواحد منهم قد أتى على كل هذا ثم « يشبشبه » بجرعة كبيرة من ماء مبرد فى أوان فخارية . . .

ودقت أجراس العمل فدخلت مع العمال قاعة الآلات الخاصة بنا ، ووقف كل عامل فى مكانه أمام آلات النسيج الضخمة يشرف على عمله المنوط به . وتحركت تلك الآلات ، وبدأ كل منا يؤدى عمله . . وبعد ربع ساعة كاملة قضيناها وقوفاً على أقدامنا فى عمل متواصل لا يتسع لحك أذقاننا ، توقفت

الآلات لاستراحة مقدارها عشر دقائق . فتهالك كل عامل فى أقرب مكان يسترد أنفاسه ، وقد شحبت الوجوه ، وغارت الأعين ، وتفصد العرق على الجباه . وكانت الذرات المتطايرة من النسيج ، والتى تدخل إلى رئاتنا مع الهواء ، عامل من عوامل التعب والجهد والإرهاق . وبرغم معلوماتى عن وجود آلات خاصة لامتصاص هذه الذرات وتنقية الهواء ، فقد كان هذا المصنع — ومصانع أخرى كثيرة ولا شك — لا يستعمل هذه الآلات وقاية للعمال .

وانصرمت مهلة الاستراحة ونهض العمال لتمضية أربع ساعات أخرى كأنها — بالنسبة للمدة الأولى — أربعة أيام كاملة . فإذا انتهى العمل ، تنفس الجميع الصعداء ، وغادروا القاعة مغبرى الوجوه محنيي القامات كأنهم أشباح تطاردها سياط غير منظورة وأنا لا أعترض على هذا الجهد الذى يبذله الإنسان فى سبيل خبزه اليومى . فقد كنت أجهد مثلهم أو أكثر قليلا . ثم أعود إلى مسكنى وأنا أصفّر لحنا يعبر عن سعادتى ورضائى . ذلك أنه ليس أهنأ فى هذه الدنيا من شعور الانسان بقدرته على إعانة نفسه ومن يلوذ به . ولكنى أعترض فحسب على نظام العمل وحده . فإذا كان لا مندوحة من اشتغال العامل ثمانى ساعات فى اليوم ،

فلماذا لاتوزع فترات الراحة بين كل ساعتين على أن يكون مجموعهانصف ساعة ، فيتحمل المصنع منها عشر دقائق ويتأخر العمال عن موعد انصرافهم المعتاد عشر دقائق أخرى :

إنى لا أجد إجابة مقنعة عن سؤالى هذا إلا أن أكون مخطئاً فيما أرى .

(٦)

كانت ساعة الجامعة فى الناحية الأخرى من الشاطئ تدق النصف بعد الحادية عشر وأنا أفتح باب المسكن بمفتاحى الخاص وهناك ألفيت أحد « البدور » الثلاثة (سيد) زميلى فى المسكن والجامعة جالسا فى غرفته الخاصة مكبا على مكتبه ، يسطر فى أوراق أمامه . فلما حييته وأنا أطل برأسى من باب غرفته ، سألته:

— ألم يأت شافعى ورشدى بعد . .

فرفع رأسه وابتسم قائلا :

لا . . تعال إنى أريدك . . سأقرأ عليك . . .

فقلت وأناأتراجع بسرعة

لا لا لأ . . . ليس الآن . . . أراك مشغولا بالمذاكرة . . وأنا متعب فى فرصة أخرى . .

ولكنه وثب واقفاً وجمع أوراقه وأسرع ورائى ولحق بى فى

غرفتى ، وكان على وجهه قناع من الغضب المصطنع . فنظرت إليه باسماً وقلت له وأنا أعلق سترتى على المشجب ...

قصة جديدة ... ؟

— نعم . . قصة جديدة رائعة . . المفروض فيها أنها ستقيم الدنيا وتقعدها . . ستهز عروش الأدب المصنوعة فى هذه الأيام من الورق الرخيص ، وستلقى بهؤلاء الأدعياء الكبار إلى الوحل .

وزم شفتيه برهة ثم استطرد بلهجة مريرة :

— لسوف أعلم هؤلاء الناس دروساً فى التأليف القصصى الرفيع .. وفى فن الانشاء العربى البليغ .

فقلت له هذه العبارة التى كنت أرددها أمامه كثيرا فى مثل هذه المناسبات .

— نعم . . نعم . . ولكن لماذا العجلة لماذا لا تنتظر حتى تتخرج فى الكلية وتذيل إسمك بلقب «المحامى» ! الطنان الرنان ؟!

فشد قامته القصيرة وقال رافعا يده فى موقف خطابى :

— لا يا سيدى . . لست أنا الذى يعتمد على الإجازات والألقاب العلمية والأدبية لأفرض آرائى على الناس ، لسوف أعلم الجيل الجديد كيف يشق النابغة العبقرى سبيله إلى المجد والسؤدد معتمداً على مواهبه وحدها .

وكان سيد هذا قصيرا نحيلا ، رقيق الملامح عريض الجبهة ، مرجّل الشعر ، ويلمع فى عينيه بريق الذكاء ولكنه مع هذا رسب عامين متواليتين فى السنة الأولى بكلية الحقوق وبذل أبوه الموظف الصغير بأسيوط جهودا مضنية حتى سمح أولوا الأمر لسيد بالبقاء فى الكلية سنة ثالثة.

وأنا أرى شخصيا أن توزيع جهوده بين الدراسة والمحاولات المستمرة ، فى تأليف القصص والمقالات والمسرحيات والروايات (وقصائد الشعر أيضاً)هو السبب المباشر لفشله فى الناحيتين ولقد حاولت كثيراً أن أقنعه برأيى هذا فنفر منى ورمانى بضيق الأفق والقناعة الساذجة ، ذلك أنه كان طموحاً إلى أبعد حد . ولم يكن أحب إليه من التحدث ساعات طويلة مع زميلنا «شافعى الممثل» المبتدىء عن آماله حين يتخرج محامياً نابغاً وعن مشروعاته الأدبية والفنية التى ستحمله حملا إلى البرلمان ومنه إلى الوزارة ثم إلى رياسة الوزارة ثم إلى مالا أدرى أين ! . وكان فى حديثه هذا لا ينسى أن يعد شافعى مؤكدا بأنه سينشىء له مسرحا خاصاً وينادى به أميراً لممثلى الشرق فى جميع العصور .

وكان شافعى ينصت إليه عادة مدهوشا مبهوتا مصدقا كل ما يسمع . . ذلك أنه أى شافعى لم يكن قد أتم غير سنوات قليلة

فى التعليم الأولى ثم الابتدائى، ثم طوحت به الأيام فى أعمال مختلفة، ولكنه بقى على هويته لفن التمثيل مؤمنا بأن يوم مجده الفنى آت لا ريب فيه..

وبينما سيد يتناول الأوراق استعدادا لقراءة القصة على مسامعى إذا بشافعى «بدر الطليعة» الثانى يدخل إلينا تتقدمه رائحة الخمر الرخيص المرسلة من أنفاسه اللاهثة ثم يقف بباب الغرفة ويرمقنا بنظرات شاردة.

وكان شافعى طويلا معتدل القامة خمرى الوجه، جميل العينين متناسق الملامح غائر الوجنتين، معنيا أشد العناية بتصفيف شعره الغزير وتلميعه، وبأناقة هندامه وحسن مظهره. وكانت بذلته الوحيدة التى يرفق بها أشد الرفق لأنها كما يقول رأس ماله ـ على الطراز الأمريكى الحديث ـ طويلة السترة جدا حتى لتكاد تبلغ الركبتين، محبوكة الأكمام، ضيقة السراويل، حتى أنه يدخل ساقيه فيها بشىء من الجهد.

وكانت ربطة عنقه حريرية ذات ألوان صارخة لانها على حد قوله مركز توزيع الأناقة فى هندامه ومهبط نظرات الغيد الحسان وكان ينتقى جواربه ومنديل جيبه فى ألوان تناسب ربطة العنق، أما الحذاء فمدبب الطرف ضيق مصقول.

وقف مستندا إلى باب الغرفه يرمقنا بنظرات ذاهلة شاردة ثم قال بصوت متراخ ثقيل يخرج من أنفه :

ــ سعدتم مساء أيها السادة الكرام . . يا شموس الدجى وبدور التمام . .

فرددت عليه التحية ، وأومأ إليه سيد برأسه ثم قال له :

ــ اسمع يا أستاذ شافعى . . هذه قصتى الجديدة المفروض فيها أنها ...

ثم شرع يلقى على مسامعه « المنولوج » الذى ألقاه علىّ عن قصته هذه وما سيكون من شأنها فى الأوساط الأدبية العالمية وكان شافعى يقاطعه بين عبارة وأخرى بكلمات الاعجاب والتقدير . وأخيرا بدأ سيد فى سرد قصته فقال :

ــ أنصتوا أولا إلى براعة الاستهلال فى القصة . . ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الاستهلال البارع وبين استهلالات مدّعى التأليف الذين يفاجئون القراء بعبارات سخيفة يزعمون أنها من الأدب الحديث . . أنصتوا . . .

« كان قرن الغزالة يذرّ . . .

فحك شافعى رأسه وقال وهو يرمش بعينه .

ــ هل للغزالة قرن واحد يا أستاذ سيد . . يا فخر بدور

الطليعة . . جزاك الله كل خير . . تصور أنى كنت أحسبها ذات قرنين . . يا للجهل . يالا لاللى .

فاضطرم وجه سيد وقال وهو يصرف على أسنانه .

— اخرس يا أجهل من دابة . . مالك انت والأدب الرفيع أية غزالة تحسبنى أقصد إننى أعنى أيها الجاهل، شمس الصباح . . ولكن المفروض فيك انك بمهرج أمـّى . . .

فصفق شافعى ورفع ذراعيه وراح ينقل خطواته فى تؤدة راقصاً وقد شعشت الخمر فى رأسه ثم قال :

— مدهش . . . مدهش . . . يا بدر الدجى هل يسمون الشمس غزالة . . . مرحى . . . مرحى زادك الله علما ومعرفة يالا لاللى . . . ياليل . . .

فهز سيد كتفيه يائسا ثم التفت إلى وقال :

— المفروض فيك انك طالب جامعى مثقف اسمع انت « كان قرن الغزالة يذرّ ناطحا أمامه جيوش كافر . . . »

وعندئذ هتفت أنا وشافعى فى صوت واحد متسائلين :

— كافر . . . ؟

فنظر سيد إلىّ فى عتاب مرير وقال :

إن كان لشافعى عذر بجهله فأى عذر لك والمفروض فيك . .

— عـــذرى أنى لم أبلغ ما بلغت من الفصاحة والبلاغة والقـــدرة على التعبير ... أين طالب الحقوق من طالب الزراعة ؟ !

فتأملنى برهة بين الشك واليقين ولكنه آثر اليقين فى إعجابى به فقال مفسرا ! :

— يقـال عن الليل ... كافر .. لأنه بظلامه يخفى النور . ويبهم الحقـــائق ... مثله فى ذلك مثل الكفر الذى يخفى عن النفوس نور الإيمـان ويبهم عن القلوب معنى التوحيد ... والمفروض فى التعبير الاستعارة والمجاز ..

وبرغم إعجابى الحقيقى بتفسيره للكلمة ، فقد رحت التمس وسيلة لأنجو بها من سماع بقية القصة ومن ثم حاولت لفت نظرى إلى شافعى الذى كان قد جلس على مقعد بجانب الباب وراح يطوح برأسه ذات اليمين وذات الشمال كأنها بندول الساعة ، ولكنه تجاهل محاولتى ومضى يقرأ فى قصته وقال :

ونهضت من فراشى مشعانّ الشعر .

— مشعانّ ؟ ؟ !

— أرجوك يا أستاذ ممدوح ألا تقاطعنى ... أتريد أن تعكر جو القصة الفنى ... المفروض فيك أنك ...

— ألا يمكن تأجيل قراءتها إلى غد ... إذا سمحت ...

— لا ... لا يمكن ، إننى سأبعث بها الليلة إلى مجلة (...) لتظهر غدا فى صفحتها الأولى ...

— عظيم جدا ... إذن سنقرأها غدا مع ملايين القراء ...

— حقا ... إنك كافر بالنعمة ... ألا تعلم أن المفروض فى الرجل العادى أنه يتمنى سماع القصة من فم المؤلف . أترفض ان تكون واحداً من الذين ستشملهم هالة المجد الذى سأبلغه ... إسمع ... إسمع ...

وتلفت فى غرفتى فإذا بها تبدو كالمرأة العارية الكاسية ...

— عارية وكاسية فى آن واحد .. ؟

فتجاهل هذه المرة اعتراضى واستطرد يقرأ « ذلك أنه لم يكن بها قطميرا ولا شروى نقيرا ..) وعندئذ دهشت حقا .. فكيف وهو الحائز على شهادة التوجيهية أدبى . والمنفق من عمره ثلاثة أعوام بالسنة الأولى بكلية الحقوق ، يبلغ به الإهمال بلغته فينصب المرفوع «قطمير» وينصب المجرور بالإضافة « نقير » ؟ فإذا قلنا إن نصب الكلمة الأخيرة استلزمه — فى رأيه — فن السجع فماذا تقول عن الأولى ! إه .. لعله حسبها خبرا « فليكن »

ولما كنت أعلم ان أبغض شىء لديه تصحيح أخطائه النحويه

فقد هززت كتفى وسلمت أمرى لله وله وهو يستطرد قارئاً « وكنت مثلها »

— مثل من ... ؟

— مثل الغرفة يا أخى .. أعوذ بالله .. المفروض فيك ..

— أكنت عاريا كاسيا مثلها ؟

— لا .. أقصد أنى كنت مثلها فى خلو الوفاض .. أى لا أملك فلساً ولا بنساً ولا قرشا ولا سحتوتا ، .

وعندئذ وثب شافعى من مقعده ، وصفق هاتفا :

— هكذا الأدب يابدر الطليعة .. يا بدر الدجى .. هكذا الوصف البليغ والعبقرية والنبوغ. لقد نزل وحى الفن على رأسى الآن فوضعت القصة « ميزانسين » وطريقة فذة بذة الإخراج والإلقاء ...

— فهتف سيد به محنقا — ماهذا الخلط أيها البهلوان الأهوج .. أتحسبها مسرحية ولكن المفروض فيك ..

فأسرع شافعى وخطف الورقة من سيد وقال :

— سأقرأ عليك القصة بالقاء مبتكر ... إلقاء لم يسبق له مثيـــل...

ثم شرع يقرأ بصوته المترنح الثقيل الذى كان يخرج من أنفه

فإذا ذكر قرن الغزالة مد برأسه وجعل أصبعه على جبينه كأنه قرن ، وإذا وصل الى كلمة مشعانّ نكس شعره ـ ولا أدرى كيف عرف معنى الكلمة ، لعله اهتدى إليه بالبديهة ، وإذا نطق بألفاظ الإفلاس قلب جيوب سترته وسراويله ظهرا لبطن ...

وأحسبنى لم أضحك فى حياتى كما ضحكت فى تلك اللحظة ... ضحكت لحركاته الهزلية التى كان يأتيها جادا كل الجد ... وضحكت لمنظر سيد المدهوش وقد وقف كالتمثال يحملق فى صاحبنا ، ولا يريم. فلما أفاق من دهشته ، هجم عليه ، وكاد يشتبك معه فى معركة من هذه المعارك التى كانا يديرانها فيما بينهما ، من وقت الى آخر للتسلية وتنشيط الدم ! وفى تلك اللحظة اقتحم الغرفة صاحبنا رشدى (بدر الطليعة الثالث) وكان طويل القامة ضخم الجسم قوى الملامح على وجهه الأشقر سمات المرح والمجون ، شديد العناية باناقته وتهذيب شاربه الكثيف .

قال وهو ، يفرك يديه :

— ماهذا يابدور الطليعة: على فكرة . . . أسعد الله التماسى . . .

وكان شافعى عندئذ يقيس الأرض بطوله ويطلق من شفتيه وأنفه قذائف سريعة من الشتائم المختارة ؛ أما سيد فقد استرد منه صفحة القصة وراح يقول له :

ـــ لكى نحرص فيما بعد على احترام انتاجى الفنى . . . أأنت ممثل الشرق ايها البهلوان . ولكن المفروض فيك . . .

فقال رشدى مهدئا :

ـــ كفى كفى . . . على فكرة . . . لقد جئتكم بصيد ثمين . . .

---

(٧)

وامتلأت الغرفة فجأة بجو ساحر كالكهرباء ، فإذا شافعى يثب واقفا يسوى بذلته وربطة عنقه ، وإذا سيد يلقى على الأرض بقصته التى كاد يهز بها أركان العالم العربى ! وإذا هما يقبلان على رشدى يسألانه فى لهفة :

ـــ اين هى ... يابدر الوجود ... ؟

ـــ أجميلة ... ! ؟

ـــ مدهشة ... على فكرة من بنات البيوتات .

ـــ المفروض فيك أنك خبير فى هذا اللون ...

ـــ لاحرمنا الله منك ومن غزواتك يابدر الدجى ...

ـــ إنها فى انتظارى على محطة الأتوبيس ... على فكرة ... هيئا الجو المناسب لاستقبالها ..

وعندئذ تقدمت الى رشدى وقلت له فى هدوء :

هل نسيتَ يا رشدى الاتفاق الذى عقدناه فيما بيننا ... وأقسمنا على احترامه ...

أى اتفاق هذا ياسيدنا الشيخ ... ؟

وكانت « سيدنا الشيخ » هذه صفة يطلقونها علىّ كلمابدر منى مالا يتناسب مع طيش الشباب . فقلت :

ألم نتفق على احترام المسكن ومراعاة حرمة العائلات المقيمة فى البيت ، وعلى ألا تدخل الخمر . . ولا النساء فيما بيننا ؟ !

فقال رشدى ضيق الصدر متأففاً

يمكنك أن تلزم نفسك بهذا الاتفاق . . ولكل منا على فكرة غرفته، وكل إنسان حر فيما يفعل . . وما أظن أحداً جعلك وصياعلينا . .

شافعى — نعم . من جعلك وصيّاً علينا يا شيخ الدجى . . من . . من . . من . . يالا لا للى . .

سيد — أتحسب نفسك ملاكا وغــــيرك شياطين ؟ ولكن الغرور مفروض فيك . .

رشدى — إنك واهم ، على فكرة إذا حسبت أنك تتحكم فينا لأن عقد الإيجار باسمك . . . فسوف أتحداك الليلة وأثبت لك اننا احرار فيما تفعل . . .

شافعى — نعم نتحداك يالا لاللى . . . وسنضربك يامدوح

الدجى على رأسك يالا لا للى .

سيد ـ ومن غد سأ كتب عنك قصة «الملاك المغرور» . . . ها . . . ها . . . هافكرة مدهشة انتظروا حتى أسجلها قبل أن أنساها . . . فالمفروض انى أنسى أحيانا ما يهبط على من وحى .

ولما أيقنت من مظهرهم وتحفزهم أن المناقشة الهادئة ومقارعة الرأى بالرأى ـ كما كنا نفعل عادة ـ لن يجديا فى تلك الليلة ، فقد رأيت أن أقبل تحديهم حتى لا يفلت الزمام ، ويصبح المسكن بؤرة خمرود عارة . ومن ثم مضيت إلى الباب الخارجى متظاهرا بالخروج ، ولكنى أغلقته بسرعة ، ووقفت وراءه من الداخل وقلت وأنا أشمر ساعدى وأنفخ فى يدى وصدرى :

ـــ مادامت المسألة قد بلغت هذا الحد . . . فليتقدم من يشاء ويفتح الباب ويحضر الفتاة . . . وكنت أعلم فى قرارة نفسى أن أحدهم لن يجرأ على الاقتراب منى ، لأنهم كانوا جميعا يعلمون بأمر هوايتى للملاكمة وألعاب القوى با لكلية . ولقد صدق حدثى ، فقد تهالك شافعى على أقرب مقعد اليه وقال أنه لا يستطيع أن يخاصم « شيخ الدجى ـ الذى هو أنا ـ من أجل امرأة ، وأنه أحوج الى الراحة فى النوم منه إلى تمضية سهرة صاخبة . أما سيد فقد حك رأسه ثم تناول أوراق قصته ، وقال إن المنطق

السليم يفرض عليه معالجة القصة الجديدة « الملاك المغرور » بدل إضاعة الوقت مع فتاة قد تكون مريضة بداء خبيث . أما رشدى فقد تقدم إلى بجسمه الضخم وعضلاته المترهلة، فوقف أمامى وراح ينتظر الى من فوق لتحت ، ثم قال وهو يلوى شفتيه :

— إنى على فكرة لاأريد قضاء هذه الليلة بالذات فى السجن ولهذا فلن أفعصك بأصبعى هذين ... هذه فكرة ... والفكرة الثانية ...

فابتسمت فجأة فى وجهه وقلت :

— هو أن الواجب يحتم علينا أن نكون دائما على وفاق ووئام فى حدود الشرف ... ويحسن أن نحتفظ بصداقتنا وإخائنا بدل هذه الخصومات التافهة ... وكل واحد منا يستطيع أن يفعل ما يشاء خارج المسكن .

فقال وهو يسوى ربطة عنقه :

— حسنا ... اتفقنا سأخرج الآن وربما قضيت هذه الليلة فى مسكن صديقى اسماعيل ...

وعندئذ قال سيد:

انتظر يارشدى ، المفروض أنى أكون معك فى السراء والضراء ... أما القصة فلا بأس أن تأجل الى الغد.

ولما غادر الاثنان المسكن . أغلقت بابه بالمفتاح من الداخل ورحت أجهز طعام العشاء وأنا أشعر بضيق شديد . . .

. . . . . .

وخيم على المسكن صمت عميق ، لا يقطعه سوى غطيط شافعى النائم فى غرفته . . . فلما فرغت من تنـــاول عشائى اطفأت النور الكهربائى ووقفت إلى نافذة غرفتى المطلة على شاطىء النيل ، وشرعت أفكر فى زملائى « بدور الطليعة » هؤلاء .

لشد ما كان الفرق بينهم وبين زملائى السابقين الذين بدأت اقامتى فى هذا المسكن معهم . لقد كانوا أيضاً ثلاثة : أولهم (مرسى) شعلة ذكاء ونشاط . أتم دراسته فى كلية الهندسة وسنه لاتزيد عن الواحدة والعشرين . وظل يتردد على زائرا حتى عين فى مركز كبير باحدى الشركات فى الوجه القبلى . وكان الثانى كامل — شابا فقيرا لا يملك أبوه غير فدانين بمديرية البحيرة ، وكانت أسرته تعقد عليه أملا كبيرا ؛ ولكنه التقى ذات يوم بفتاة فى إحـــدى دور السينما . . ولا يعلم أحد كيف استطاعت هذه « الشيطانة » الصغيرة أن تغزو قلبه بقوة ، وتفرض شخصيتها عليه ، فإذ هو يرسب عامين متتالين بالسنة الثانية بكلية التجارة ، وإذا هو يلتقط وظيفة حكومية صغيرة فيقنع بها ويتزوج

من فتاته . ولقد . التقيت به ذات يوم فى الطريق فرأيت فى عينيه ظلال ندم عميق، وفى ملامح وجهه أمارات حسرة عنيفة ، كأنها تسرى فى دمائه . ولما سألته عن حاله وهل هو سعيد فى زواجه قال :

« سأزورك ذات يوم وأقص عليك كل شيء . . . ولسوف تعلم كيف يخطيء الانسان مرة واحدة فيبقى نادما على هذا الخطأ مدى الحياة . . . إن الفتاة التى ضحيت بمستقبلى وبمالى وأسرتى من أجلها كانت . .

ثم هز كتفيه مستسلما وأردف « على كل حال . . لقد تخلصت منها . معذرة الآن . . سأزورك قريبا . إلى اللقاء . . »

وأما الثالث — أحمد — فقد كان طالبا بالسنة النهائية بكلية الآداب — قسم الجغرافيا — شابا متوسط الجسم ، هادىء النفس ، رضى الخلق ، متمسكا بأهداب الدين، لايهمل فرضا من فروض الله، ولكنه كان برغم هذا ، لا يمل الانصات إلى ما يتحدث به زملاؤه ومعارفه من الشبان عن مغامراتهم العاطفية وغزواتهم الغرامية ، ولقد تخرج بتفوق وعين مدرسا فى الأقاليم . . . وأرجو أن يكون على ما كان عليه من تقوى وخلق حميد . . .

أما هذا الفوج الثانى ، فلا أدرى أية ريح تلك التى جمعتهم فى

المسكن. فما رأيت فى حياتى ثلاثة شبان التأمت أهواؤهم واتحدت أمزجتهم ، وتآلفت مشاربهم « كبدور الطليعة » هؤلاء... بل إن هذه المناوشات التى كثيرا ما وقعت بين شافعى وسيد ، كانت تزيد من وشائج المودة بينهم يوما بعد يوم ..

وبرغم اختلافى عنهم ، فقد كنت أبادلهم أصدق آيات المودة والإخاء .. ولم تكن هذه الاختلافات القليلة كالتى حدثت فى تلك الليلة لتؤثر فيها بيننا من صداقة ووداد ، وكان تضامننا يبدوا أروع ما يكون حين يقدم احدنا ما معه من المال إلى زملائه ، إذا ألمت بهم شدة ..

وكان رشدى ويسمى نفسه « الطالب المزمن » أحبهم إلى ، لروحه المرحة ، وصفاء نفسه ، وطيبة قلبه ، وكان « طالبا مزمنا » حقا .. فقد ظل يرسب فى امتحان الثقافة عاما بعد عام .... وكانت درجاته فى جميع المواد تتناقص فى كل عام عن الأعوام السابقة حتى لقد عجز فى العام الأخير أن يجيب إجابة صحيحة عن أى سؤال واحد فى أية مادة من المواد .

وكان مع هذا لا يكف عن المرح والعبث «الشقاوة» ، ذلك أن أباه كان يمتلك نحو أربعين فدانا فى مديرية قنا ، وكان رشدى الابن الوحيد فى ذرية كلها بنات . وكان الوالد شيخا ساذجاً ، لا

يعرف من شئون العلم والتعليم، إلا أنه يتكون من ثلاثة مراحل: ابتدائى ، وثانوى ، وعال . وكان شديد الايمان بذكاء ابنه وبمهارته وجده فى تحصيل العلوم، وكلما رآه يزداد طولا وعرضا ، ضاعف له المبلغ الشهرى ، حتى بلغ ما كان يرسله إليه فى كل شهر نحو خمسة عشر جنيها . . . وكان رشدى يقول دائما كلما استلم المبلغ :

— لماذا أتعب وأفقد نور عينى فى المذاكرة مادام لى مرتب شهرى !؟ وهو على فكرة يساوى مرتب خريج المعهد العالى بالجامعة ... وعندما يموت الرجل فسيكون إيراد الطين كله فى جيبى ...

. . . . . .

وظل الهلال الرقيق منحدرا نحو الغروب وأنا فى مكانى من النافذة ، أفكر وقد طار النوم من عينى برغم جسمى المكدود . وانثنيت بتفكيرى الى ناحية أخرى من تصرفات « البدور » الثلاثه ... ناحية غامضة مبهمة ... فقد كانوا يتهامسون فيما بينهم أحيانا همسا طويلا . . . وكانوا يقضون الليل كله خارج المسكن مرتين فى الأسبوع . . . من مساء الخميس إلى صباح الجمعة ، ومن مساء السبت إلى صبـــاح الأحد . وكان « شافعى » فى لحظات « انبساطه » يقول لى بصوته الملتوى كلما رآنى منكبا على استذكار

دروسى إلى ساعـــة متأخرة من الليل .

ــ ذاكر ياشيخ الدجى . . . واقتل نفسك فى هذا الكلام الفارغ . . . ولسوف تعلم حين يتخذ « بدور الطليعة » مكانهم فى سمـــاء المجتمع أنك ضيعت شبابك هبـــاء . . . ها . . . ها لا للى . . . يالا لاللى . . .

فكنت أنظر إليه باسماً ولا أعير هذيانه التفاتا . . .

وغاب الهلال أخيراً وراء القصور والاشجار على الضفة الأخرى من النيل ، فأنثنيت إلى فراشى وقد هدأت نفسى كثيرا .

(٨)

وبعد بضعة أسابيع من افتتاح العام الدراسى ، وفيما بين المحاضرة الثانية والثالثه ، أقبل على زميلى الطالب بدر الدين وقال لى وهو يجلس بجانبى فى مقعد بالفناء :

« هل تسمح لى بسؤال خاص . . . ؟ »

ــ تفضل . . .

ــ إننا نعجب لا نطوائك على نفسك وعدم مشاركتك لنا فى نشاطنا السياسى ، برغم ما بدا منك فى بعض المناسبات من وعى سياسى لا بأس به . . .

ــ ألا ترى إذن فيما فعلت فى هـذه المناسبات مشاركة فى النشاط السياسى ؟! ولو إلى حد ما ؟

ــ نعم . . . نعم . . . مع احترامى لرأيك أرى أنه يجدر بك الإنضمام إلى إحدى الجماعات السياسية بالكلية . . . ولما كانت جماعتنا تمثل حزب الأكثرية فلا شك أن انضمامك إلينا يعود عليك وعلينا بالفائدة .

فقلت بعد فترة صمت قصيرة ــ وماذا يكون الحال لو جاء إلى زميل آخر من فريق منافس لكم وأكد لى إن فريقـــه يمثل حزب الأغلبية . . . ؟ !

مع احترامى لرأيك وتقديرى لوجهة نظرك ، أقول إن الناس جميعاً يعلمون أن حزبنا حزب الأكثرية وإنه يكتسح خصومه السياسيين كلما جرت انتخابات حرة . . .

وسحرتنى عبارته الأولى التى بدأ بها هذا الحديث الأخير ، وكدت أوافق على رأيه هذا عن حزبه ، ولكننى تمالكت نفسى وقلت :

ــ وأنا مع احترامى لرأيك أقول إن الانتخابات لا تكون حرة إلا فى نظر الحزب الفائز . . . وهى دائما مزيفة فى راى الحزب أو الأحزاب المهزومة . ثم ابتسمت وقلت مستطردا :

ـــ ألا ترى معى إن حياتنا السياسية لا تزال بعيدة عن الكمال المنشود ؟؟

ـ إننى احترم رأيك هذا كل الاحترام ، ولكنى ألفت نظرك ، إذا سمحت ، إلى أن أحزابنا السياسية أفضل كثيرا من أحزاب بعض الأمم التى تزعم إنها أكثر منا تقدما وحضارة وحرية .

وبرغم سرورى للهجه المهذبة فى الجدال ، فقد رأيت ألا أهزم أمامه بسهولة ومن ثم قلت :

ـــ هذا صحيح جدا ... ولكن ... ألا ترى معى أن كون أحزابنا أفضل من أحزاب بعض الأمم لا يعنى إنها بلغت الكمال المرجو ؟

فابتسم فى رقة وقال ـــ وهل هناك شىء فى هذه الدنيا بلغ الكمال ... ؟

ـــ لا ... لا ... طبعا ... ولكنى أقصد أنه ليس من الضرورى أن نبلغ الكمال تماما .. وانما يجدر بنا محاولة الوصول اليه .

ـــ لاشك فى هذا ، ولكن هل أفهم من حديثك أن لديك آراء توضح الطريق للوصول اليه ؟

فامسكت عن الحديث برهة وترددت فى الإجابة طويلا ، فلما

أكد لى أنه مستعد لسماع رأيى الخاص بصدر رحب قلت :

ــ إننى فى هذه السن وهذه المرحلة ، لا أعرف تماماً ما يجب على الاحزاب أن تتبعه لتصل الى الكمال . ولكنى أرى كثيرا من الناس لا يرضون للاحزاب أن تنظر للحياة السياسية بعينين : إحداهما تصغّر حسنات الحزب المنافس وتكبّر حسناتها هى ، والثانية تصغر سيئاتها وتكبر سيئات معارضها . ومن وراء هذه وتلك الصحف الحزبية المأجورة التى تزيد النار اشتعالا فتلجأ إلى المهاترات، بدل مقارعة الحجة بالحجه فى هدوء وبعيد عن التشهير والإسفاف . ولقد أدت هذه الحال ـ كما تعرف ـ الى تجريح كبرائنا وعظمائنا . والغض من شأنهم والإقلال من مكانتهم التى بلغوها بجهادهم وتضحياتهم فى سبيل الشعب . ولو استمر الحال هكذا فقد يأتى اليوم الذى يتولى فيه مقاليد الحكم جماعة من المهرجين ذوى الجلود الصفيقة والمشاعر الميتة ، فلا تحفل بهذه السهام المسمومة التى تصوبها اليهم الصحافة المستهترة . أو قد تتولى الأمر حكومة استبدادية تحمى سمعة رجالها بتكميم الصحافة . وأرجو أن تسمح لى بالقول إن واجبنا نحن معشر المثقفين فى البلد أن نبيّن للمتهاترين الشتامين أن هذا اللون من التهريج السياسى لا يجدى فى خدمة الوطن أو الأحزاب او الأشخاص .

فابتسم صاحبي بسمة عريضة وقال :

— مع تقديرى التام لوجهة نظرك واحترامى العميق لرأيك أرى أنك انحرفت من الحديث عن الاحزاب إلى الحديث عن الصحافة الحزبية . .؟

فأسقط فى يدى برهة ولكنى أسرعت قائلا :

أليست الصحيفة الحزبية هى بوق الحزب الذى تمثله والمعبرة عن آرائه . ؟!

هل أفهم من حديثك الآن أنك لاتريد أن تكون حزبيا . ؟

فأومأت برأسى وقلت .

— نعم . . لا أريد أن أنضم إلى حزب فى الوقت الحاضر . . وحسبي فى عهد التلمذة والتحصيل أن أكون على الحياد . . ومن ثم أستطيع ، تكوين رأى خاص ، فى نشاط كل حزب ومدى استعداده للنهوض بالأمة . . فإذا فرغت من عهد التلمذة هذا ، أمكننى الانضمام إلى الحزب الذى أطمئن اليه إذا كان لابد من هذا.

فبدا على وجهه شىء من الضيق ، ولكنه قال بصوته الهادىء الرقيق:

— هل أفهم من هذا أنك تضع رجالاتنا الكبار فى ميزان نقدك وحكمك الخاص . ؟

لا لا لا . . أرجو أن تثق أنى لا أنقص من قدر أى رجل

من رجال هذا الحزب أو ذاك . . فإنهم بغير أدنى شك قادة الامة بما لهم من تجارب وخبرة وذكاء . . بل إنى لا أستطيع ان أجد فى مصر رجلا واحداً من أهلها لا يريد لها استقلالا كاملا ونهضة شاملة . ولكنى اعترض فقط على بعض الوسائل التى يلجأ اليها هذا الحزب أو ذاك فى سبيل الوصول إلى الحكم . .

— نعم . . إنى أقدر وجهة نظرك ، ولكنى فى غير حاجة لاؤكد لك أن حزبنا يسير فى النهج السوى الذى يرضاه الشعب، وأرجو أن تسمح لى ، فأضرب مثلا على بعد نظر حزبنا فى مشروع محو الأمية فابتسمت وقلت — هذا خير مثل لاختلاف حزبين فى تنفيذ مشروع معين . . فحزب يرى محو الأمية فى أسرع وقت وبأى وسيلة متهماً معارضيه بأنهم يريدون إبقاء الشعب على جهالته ، حتى يكون أساس قيادتهم ، وحزب آخر يرى تنفيذ المشروع على أسس ثابتة بدون تحديد مدة معينة متهماً الحزب الأول بأنه لا يسعى إلى محو الأمية حقا بوسائله الارتجالية ، وإنما هو يتظاهر بخدمة الشعب . فكيف يتسنى لنا نحن أفراد الشعب أن نعرف أى الحزبين أبعد نظرا واصوب رأيا . .

فصمت صاحبي برهة ثم قال :

الزمن وحده هو الحكم بينهما .

فأسرعت أقول — صدقت — ولهذا سأجعل من هذا المشروع بالذات ميزانا يميل بى إلى إحدى الجهتين ، فبعد سنوات محدودة سيتبين للناس أى الحزبين أراد محو الأمية حقا بين أفراد الشعب.

فضحك وقال وهو ينهض — مع احترامى لرأيك هذا أخشى أن تبقى سنوات طويلة وربما طول حياتك ، خامل الذكر بعيداً عن المناصب الرفيعة . . . .

(٩)

حين عُدت إلى المسكن قبيل منتصف الليل .. أى بعد فراغى من العمل ، وكان ذلك فى أوائل شهر ديسمبر وجدتُ زملائى « بدور الطليعة » الثلاثة مجتمعين فى غرفة رشدى على هيئة مؤتمر . .

ولما كان حديثهم لا يدور همسا — كالعادة فى بعض الأحيان — فقد استدعونى اليهم لأشترك معهم فى حل إحدى مشكلاتهم . وكان رشدى ممسكا بخطاب فى يده ، ويقول لشافعى الذى كان نصف سكران هذه المرة :

— هذا الخطاب من صديقى محمود المقيم بالبلدة . . ويقول فيه إن أبى آت غدا ! . . .

فتلمظ شافعى بشفيه ، وقال مسرعا وهو يطقطق بأصابعه :
— إذن فلنهيئ انفسنا يا بدور الوجود لاستقبال خيرات الريف والتمتع بها أسبوعا يالا لا للى . . أرجو أن يكون بها كمية فاخرة من حمام الدجى المشوى وفطائر الطليعه المشلتت . .
رشدى — إذا لم تقم — على فكرة — بالدور الذى سأعهد به اليك فلن تذوق شيئا منها . .
سيد — المفروض فيه أنه لن يستطيع القيام بشىء . . .
فنهض شافعى ودق على صدره بيده وقال ملوحا بذراعيه :
— هل خذلتك يا بدر الوجود ذات مرة . . ألم أقم بكل ما تعهد به إلى باخلاص . . و .
— أنا فى هذه المرة فى حاجة إلى . . إلى . . مواهبك التمثيلية
فصفق شافعى طربا وقال وهو ينظر إلى
— أرأيت ياشيخ ممدوح . . يا بدر الصباح أن للفن ميزاته فى خدمة الإخوان يا لا لا للى . . لك الأمر يا رشدى الدجى وعلى السمع والطاعة ...
— أقول إن صديقى محمود أرسل إلى خطابا يخبرنى فيه أنه أبى عرف — لا أدرى كيف — أنى غير ملتحق بالجامعة ، وأنى أنفق مايرسله إلى من مال فى الصرمحه . . ولذلك فسوف يحضر

غداً ليطمئن بنفسه على كذب الوشاة ...

فهتف شافعى ملوحا بيديه فى موقف تمثيلى :

ــ أنا لها . . . يا بدر الوجود . . . أنا لها . . .

فقال سيد ساخرا ــ لمن . . ؟

وتخاذل شافعى أمام هذا السؤال المفاجىء ، ونظر إلى صاحبه فى عتاب كأنما يقول له « اهكذا يخذل بدور الطليعة بعضهم بعضا ! » وأخيراً انقذ رشدى الموقف بقوله :

ــ والآن ما رأى البدور فى هذه المشكلة .. ؟

فتنحنح سيد وقال ــ المفروض أنى سأستقبل والدك المحترم عند حضوره ، ثم انتقل معه من حديث إلى آخر حتى نصل الى فن القصة فى العصر الحديث . ثم أقرأ عليه بعض قصصى حتى ينسى السبب الذى جاء من أجله .

فضحك رشدى وقال ــ بل قل حتى يفر من القاهرة ويعود إلى القرية باكسبريس المساء .

ولما هز سيد كتفيه مشمئزا من « جهل » صاحبه فن القصة وأثرها الجميل فى النفس . التفت رشدى إلى وسألنى عن رأيى فقلت له :

أنت تعرف هذا الرأى منذ أمد بعيد ... إن استمرارك على

هذا الحال سينتهى بضياع ثروة الأسرة كلها ...

فلوى شفتيه ممتعضا بينما أسرع شافعى يقول :

ــ أعوذ بالله من بدر الزفت والقطران ... ألا تنسى أبداً مواعظك المنبرية هذه ... إسمع يا أستاذ الدجى ... دع هذا الأمر لى ياللا لاللى ... وأنا أحدث والدك المعظم عن فن التمثيل ثم أؤدى أمامه أدوارا صغيرة ، ... ثم أمضى معه إلى دور السينما والملاهى ، حتى يعرف أن الفن خير من العلم .

واستمرت المناقشة بينهم على هذا النحو إلى أن قال رشدى .

ــ لقد خطرت لى فكرة ـ على فكرة ـ منذ استلمت الخطاب ... وكنت ارجو أن أجد لديكم فكرة أبرع منهــا ولكن للأسف .

فابتسم سيد وقال ساخرا :

ــ أتفترض فى نفسك أنك أقدر منى ـ أنا القصصى ـ فى حل مشكلة من هذا النوع . ؟

ــ سترى بنفسك الآن .. لقد امتنعت عن حلاقة ذقنى اليوم ... وسأنتظرك غدا فى حدائق الجامعة حتى أخرج معك من الباب العمومى ... أما شافعى فسوف يستقبل أبى غداً حال حضوره ويعتذر له بعدم استطاعتى استقباله بنفسى كى لا يضيع على

إحدى المحاضرات ... ثم يظل يتحدث معه عن اجتهادى فى الكلية ، وعن استقامتى وتقواى ، ... وعلى فكرة ... فقد نقلت سجاده الصلاة والمصحف ، من غرفة الشيخ ممدوح إلى غرفتى هذه ... وها هما ذان ... سيكونان برهانين ساطعين على صدق شافعى فى حديثه ، عن تقواى وصلاحى .

وعندئذ وثب شافعى فى الغرفة راقصا ثم انحنى على كتف رشدى وقال له .

— هذه هى الافكار النيرة يا بدر الطليعة فى العالم كله ، هذا هو النبوغ يالا لاللى ...

ولما هدأت حماسته استطرد رشدى قائلا :

— ولسوف يصدق أبى حديثك عنى يا أستاذ شافعى ... فهذه طبيعة الآباء ... يصدقون دائماً ما يقال عن محاسن أبنائهم ويكذبون ـ أو يشكون على الأقل ـ فيما يقال عن مساوئهم ... والخطوة الثانية ـ على فكرة ـ هى أن تقترح عليه يا أستاذ شافعى ـ بلباقة ـ أن يذهب معك لانتظارى أمام مدخل الجامعة ورؤيتى عند خروجى مع سيد . وعلى بعد هذا أن أقوم بدور الطالب المجد الذى لا يجد وقتا لحلاقة ذقنه أو استقبال أبيه على المحطة ..

فقلت حينئذ ـ مع احترامى لوجهة نظرك وتقديرى

لفكرتك . . . كيف يكون الحال لو صارحت أباك بكل شيء . . .

فنظر البدور « الثلاثة » إلى فى دهشة ثم قال شافعى :

— أين تعلمت هـذا الكلام الناعم الذى تبدأ به حديثك يا شيخ الوجود ؟

وقال سيد — المفروض أننا أصدقاء متآخين . . . وهذه المقدمات الناعمة فى الحديث مفروض فيها أن تكون بين الغرباء أو المعارف فقط.

وقال رشدى — إذا تركنا هذا جانبا . . . فما هى الفائدة التى تعود إليك أو على أى شخص، أو على أبى، إذا صارحته بحقيقتى ؟

واعترف إنه أفحمنى بهذا السؤال . . . ذلك أن إطلاع الوالد على حقيقة أخلاق أبنه ، بعد أن بلغت هذه المرحلة ، لا يفيد أحدا . بل لعلها تؤدى إلى انهيار آمال الأب . فى ابنه دون أن يعود هذا على أحدهما بفائدة ما . . .

ولكنى برغم هذا ، حرصت على تتبع خطوات رشدى وهو خارج من مدخل الجامعة العام فى صحبة سيد فى اليوم التالى . . . وكنت اكتم ضحكى بجهد وأنا أراه يسير بخطوات هادئة غير معتن باناقته المعهودة ، فاتحا بين يديه كتابا ضخما من كتب القانون جاعلا ، « شرابة » المسبحة تبدو من جيب سترته . . .

أما والده — وكان رجلا عجوزا نحيفاً معمم الرأس ملوح

الوجه بادى الطيب والسذاجة يرتدى فوق الجبة والقفطان عباءة من الجوخ الأسود ـ فقد رأيته واقفاً مع شافعى فى جانب من المدخل العـــام ، يحدق فى الطلبة الخارجين فرادى وجماعات ، ضاحكين أو متحدثين فلما لمح ابنه رشدى مقبلا فى اتجاهه ، مشغولا بالنظر فى الكتاب الضخم الذى بين يديه، تهلل وجهه الساذج وهرع إليه يكاد يتعثر فى خطواته . ورفع رشدى وجهه غير الحليق ، ثم طوى الكتاب وأسرع إلى أبيه ، ثم تناول يده بحركة تمثيلية رائعة فقبلها أمام كثير من الطلبة . . .

. . . . .

وقضى الوالد ثلاثة أيام لم ينقطع رشدى خلالها عن الصلاة وتلاوة القرآن ، والتظاهر بالاستذكار ، والذهاب فى الصباح إلى « الكلية » ، ثم العودة فى منتصف النهار مع سيد . . . وكان الوالد وهو يرى ابنه على هذا الحال ـ شديد الابتهاج ، راضى النفس ، لا يكف عن التحدث عن أخلاق ابنه الحميـــدة ، وعن تربيته القويمة ، وعن آماله فيه ، وعن الفارق الكبير بينه وبين غيره من « شبان » « اليوم » المستهترين . وكان شافعى يشعل جذوة إيمان الرجل فى ابنه بما كان يلفقه له من أخبـار عن نشاط رشدى ومكانته العالية فى الأوساط الجامعية . . .

ولما قفل الوالد عائدا إلى قريته فى أقصى الصعيد ، وهو أسعد ما يكون نفسا ، احتفل « البدور » الثلاثة بما أحرزوه من نجاح . إحتفالا جعلهم يلازمون الأسرة يومين لفرط ما اسرفوا فى الشراب واللهو ...

ولقد مات الوالد بعد هذا التاريخ بعام ... ولست أشك فى انه مات وهو موقن تماما بأن ابنه يسير قدما نحو الفلاح والنجاح ، يقوده التقوى ويهديه الصلاح ...

وهكذا رأيت بنفسى كيف يكون الآباء آخر من يعرفون حقيقة أخلاق أبنائهم ...

(١٠)

بعد سفر والد رشدى بأسبوعين تقريبا ، خطر لى أن أسال زملائى هؤلاء « البدور » عن هذه الليالى التى يقضونها خارج المسكن مرتين كل أسبوع بانتظام .. فلما فعلت ... تبادلوا النظرات فيما بينهم ثم قال رشدى :

— هل تحب أن تأتى معنا بعد غد — الخميس — لترى بنفسك ... ؟

— إذا لم يكن لديكم مانع ...

— اننا على فكرة نعرف أنك آخر من يغدر بأصدقائه لأى

سبب ... ولهذا نرحب بوجودك معنا فى ليلة منها . . .

فقلتُ وقد ظننت أنهم ينفقون تلك الليالى فى تعاطى المكيفات المحرمة :

ــ لادعى لذهابى إذا كان فى الامر مخدرات أوشىء من هـــذا القبيل . . .

فابتسم سيد وقال ــ لالا ياشيخ ممدوح ... المفروض فينا أننا أسمى من هذا الإسفاف ... هل يمكن أن تكون هنا مساء الخميس فى الساعة الحادية عشرة ، بدل الحادية عشرة والنصف ؟

ــ ممكن جدا . . . من حق كل عامل وموظف فى المصنع ان ينال اجازة ساعتين كل اسبوع بأجر كامل . ولم أدر ـ حينئذ ــ سر مابدا على وجوه « بدور الطليعة » من سرور ورضى لما تم الاتفاق عليه فى تلك الليلة . وفى اليومين التاليين ، كان سيد ينتهز فترات مابين المحاضرات والدروس ويأتى إلىّ ويتحدث معى حديثا جديا لاأثر فيه للمزاح أو السخرية ... وكان ينتقل من موضوع الى آخر بعيد عن فن القصص كل البعد ، ثم يسهب فى الحديث عن النظم الاجتماعية ويشرح بقدر معلوماته ـ التى لم أكن أحترمها كثيرا ـ مختلف المذاهب فى فن الحكم . وفى ظهر الخميس كان يتحدث ونحن فى طريق العودة إلى البيت ـــ عن

أفضل وسيلة لتوزيع الثروة بين أفراد الشعب ، حتى لو أدى هذا إلى تقييد حرية الفرد إلى أقصى حد ، مادام هذا التقييد يتيح عملا مناسبا لكل انسان ، ومستوى ماديا معقولا للجميع

وعندئذ توقفت معه امام حديقة قصر كبير وقلت له :

— هل ترضى أنت أن تنزل عن كثير من حريتك الشخصية لتضمن طعامك وشرابك وكساءك ؟

— لم لا . . . المفروض فى الشخص العادى انه لايريد من الحياة أكثر من هذا ؟

— كأنك توافق فى سبيل هذا الضمان ، أن تُفرض الرقابة عليك فى حديثك وآرائك وتفكيرك واجتماعاتك ؟ !

فقال فى عناد — بل وما هو أكثر من ذلك أيضا . . . يكفى أن ينام المرء ممتلىء البطن بالطعام وينهض فى الصباح فلا تواجهه مشكلة البطالة ، أو صعوبة البحث عن عمل يرتزق منه .

وعندئذ التفت إلى حديقة القصر — وكنت قد لمحت فيها من قبل قفصا جميلا به عصفور ملون من عصافير الكناريا — ثم قلت وأنا اشير الى العصفور الذى كان يدور فى القفص باحثا عن مخرج .

— أتظن هذا العصفور جائعا . . . ؟

فنظر الى مدهوشا وقال :

— كنت أفترض فيك أنك أكبر من أن تذكرنى بقصة العصفور والقفص الذهبى التى كنا نسمعها اطفالا ، ومع هذا سأجاريك فى الحديث ... فأقول إن هذا العصفور غير جائع طبعا ... بل أن اصحاب القصر الكرام ينفقون عليه فى الشهر الواحد ، ما يكفى لإطعام أسرة فقيرة مدة أسبوع ...

ومع ذلك تراه لا يكف عن البحث عن منفذ للخروج ... للانطلاق إلى حيث يلتقط طعامه القليل ، يشق النفس ... للإنطلاق حيث يبيت فى العراء تحت رحمة الشتاء وبرده ، والصيف وحره ، والجوارح وفتكها به ...

فهز سيد كتفه وقال ـ المفروض فيه انه حيوان ليس له عقل يفكر به .

— بل إنه يعشق — بغريزته التى فطره الله عليها — الحرية ولا يرضى عنها بديلا ... إنه لا يجد لرائع الحب طعاما ، مادام مقيدا فى هذا الحيز المحدود ، إنه لا يجد للماء المعطر المحلى مذاقا مادام لا يسعى إليه طائرا فى عالم الله ... وأنا فى حديثى هذا لا أنكر ان فى نظامنا الاجتماعى كثيراً من العيوب — على أن اعترافنا بهذه العيوب دليل على رغبتنا فى الاصلاح — ، ولكنى أنكر هذه الهمسات التى تبدو هنا وهناك فى بلادنا ... وهذه

الاضطرابات التى تموج بها كثير من الأمم التى تريد طبقة معينة فيها ، أن تستأثر بالحكم . . . فإن هذا النظام الذى تسعى هذه الطبقة اليه هو انقلاب عنيف تراق فيه الدماء ويقتتل فى سبيله أبناء الوطن الواحد ، وذلك دون أن يصلح من الأمر شيئا . . . بل لعله يزيد الحياة الاجتماعية قسوة وفسادا . ويكفى أنه ـ باعترافك الآن ـ يجعل الأوطان سجونا كبيرة ، الغالبية العظمى من اهلها مساجين فيها ، يعملون ويأكلون وينامون ولكنهم ـ كأى مجرم مسجون ـ مراقبون فى حركاتهم وأعمالهم وآرائهم من أقلية ضئيلة. بل أزيد على هذا فأقول إن هذا النظام يجعل من المجتمع حظيرة مواش لا أكثر . . . ولا أقل .

فبدأ الضيق على وجه سيد وهو يقول :

كأنك راض عن حالتنا هذه ؟ !

ـــ لا . . . محال . . . ولكن سخطى على عيوب المجتمع لا يستلزم رضائى عن انقلاب يزيد الأمر سوءاً .

وإنما يدفعنى ـــ كما يجب أن يدفع كل فرد إلى تأدية واجبه والمساهمة فى الاستفادة من الكنوز التى وهبها الله لكل أمة . . . ففى كل أمة كنوز لا تعد . . كنوز فى أرضها وفى هوائها ، وفى مائها ، وفى نفوس أهلها . وعلى أفرادها أن يعملوا لاستخراج

هذه الكنوز وزيادة الثروة العامة ، بدلا من إضاعة أوقاتهم فى نشر بذور الكراهية بين أفراد المجتمع الواحد . . .

فهز سيد كتفيه وقال : ونحن نتابع السير - حسنا لقد ذكرت لرشدى أن المفروض فيك أنك عتيق فى أفكارك ، وأنك من مخلفات القرن الماضى . . . ولكنه سخر بى وقال أنك « لقطة » هو وشأنه . . سوف يرى . .

(١١)

بلغت البيت قبل العاشرة من مساء الخميس المتفق عليه ، فوجدت « البدور » الثلاثة فى انتظارى . فلما اغتسلت وارتديت ثياب خروج لا ئقة ، سمعت أزيز سيارة تقف أمام باب البيت وتطلق « نفيرها » بنغمات خاصة وعندئذ قال رشدى مبتهجا هلم ياشيخ ممدوح . . لسوف تسعد بسهرتك معنا إنى واثق . .

ولما بلغت معهم موضع السيارة ، ألفيتها من نوع الـ « ستيشن واجون » قد اسدلت الستائر على زجاج نوافذها ، يقودها شاب فى ثياب العمال ، وبداخلها ثلاثة شبان آخرون . ولما قدم رشدى هؤلاء إلىّ - وأنى لا أذكر اسماؤهم الآن - انطلقت السيارة بنا فى شوارع العاصمة وكانت تقف بين الحين والآخر فتطلق من

« نفيرها » هذه النغمات الخاصة ، فلا يلبث أن يهبط إلينا شابان او ثلاثة حتى بلغ مجموعنا نحو ثلاثة عشر شابا .

وكانت أعمار التسعة الآخرين بين السادسة عشرة والثلاثين تقريباً . وكان بينهم - كما تبين لى من سماتهم - الطالب والعامل والموظف الصغير . . وكنا جميعا نتحدث فى مختلف الشئون ونضحك ونتبادل الفكاهات، وكنت أجاريهم فيما يتحدثون، ومن أجله يضحكون حتى لا أبدو متعاليا عليهم فأنفرهم منى . .

وأحسست اخيرا بالسيارة تدخل حارة ضيقة مظلمة يخيم عليها السكون . فقد كان الجو خانقاً ، والروائح المتخلفة عن ساعات العمل فى النهار تزكم الأنوف فلما توقفت ، نزلت منها وراء رشدى ، ووقفت أمام بوابة عتيقة كأنها بقايا عصر مظلم من عصور التاريخ وتلفت حولى فى الحارة الغارقة النائمة فى ظلال الليل ، فوجدتها ضيقة حقاً تشيع الرطوبة فى جوانبها ، أرضها موحلة ، أبواب متاجرها الكثيرة المتراصة على الجانبين مغلقة والروائح المتخلفة عنها لا تزال عالقة فى الهواء الفاسد . . .

وانطلقت السيارة بعد أن هبط الجميع منها، واختفت فى ظلال الليل، ورأيت عندئذ رشدى يمد يده إلى مكان ما فى البوابة الكبيرة، ويشد منها ما يشبه الخيط الدقيق الأسود، شدا تكرر ثلاث

مرات ـ أو أكثر ـ فإذا بالباب العتيق الضخم ينفرج قليلا ، وإذا رشدى يهمس لى أن أفعل ما أراه يفعل ، وإذا هو يدخل ويلمس وجنة شيخ أعمش العينين ، قابع وراء الباب الضخم . . . . وكان هذا الشيخ ـ حارس البوابة ـ أبيض الشعر مغضن الوجه جامد الملامح ضعيف النظر كأنه ـ بدوره ـ قطعة تاريخية تخلفت مع البوابة منذ العصور المظلمة .

وكان الرجل يتحسسنا بيديه كلما لمسنا وجنته ـــ واحد بعد الآخر . . فلما دخلنا جميعاً،أغلق الباب فجأة فى سرعة وسكون ولم يستغرق هذا كله غير ثوان معدودة . .

وأمسكت بيد رشدى وأنا لا أملك نفسى من الاحساس بالرهبة والتأثر . فقد كان الظلام الحالك يخيم على المكان ، وكنا جميعاً كالأشباح ـ نخطو فوق أرض لينة متربة لا يسمع لخطواتنا عليها حسيس . وكانت روائح الفواكه المختلفة تشيع حولنا فى وضوح وكأن المكان مخزن كبير لها ، وبعد قليل سمعت رشدى ينقر بأصبعه على شىء ما نقرات خفيفة ، سريعة فتح بعدها باب منخفض يدخله الداخل محنى الرأس . فلما ولجناه وأغلق وراءنا ، انقطعت روائح الفاكهة وشاعت بدلا منها رائحة خمر عتيقة . . وكنت أشعر وأنا أسير وراء رشدى بالأتربة تتساقط على رأسى

وبنسيج العناكب يلامس وجهى . وبعد نقرات أخرى خفيفة بطيئة ، دلفنا من باب ثالث ثم سمعت رشدى يهمس فى أذنى .

ـــ امسك ثيابى . سنهبط الآن خمس درجات . . .وكن على حذر فبعضها ـــ على فكرة ـــ متهدم . وبعد أن اجتزنا هذه الدرجات المتهدمة بسلام سرنا فى ممر ضيق خيل إلى أن سقفه مقوس على هيئة قبو . فلما دلفنا من باب ضيق فى نهايته ، وقفت فجأة مدهوشا لا أكاد أصدق عينى .

كان المكان الذى وقفت فى مدخله فناء فسيحا يعلوه سقف مقبى يتدلى منه نسيج العناكب ، كثيفاً طويلا . . . وكان يشيع فى جزء واسع منه ضوء ضعيف مرتعش ينساب من قناديل أثرية ، فى كل قنديل شمعتان . أما الجزء الآخر البعيد فقد كان غارقاً فى ظلام كثيف لا أرى له نهاية أوحدودا . وكان فى جوانب الجزء المضاء صناديق فاكهة فارغة ودنان خمر مقلوبة ، وأكوام صغيرة من القش ، أمام كل صندوق أودن أو كومة قش ، مائدة صغيرة عتيقة منخفضة . وكان يجلس إليها . فوق الصناديق والدنان وأكوام القش شبان آخرون يتحادثون هامسين ، وقد بدت على وجوههم المعروفة الشاحبة ، ظلال القسوة والحقد ـ وكان مجموعهم نحو عشرين شابا ـ ، فلما أقبلنا عليهم أخذ الجميع يصفرون بأفواههم لحناً عجيباً

رهيبا لم يسبق لى سماعه . ومن ثم وقفت انظر إليهم وقد خيل إلى أنى فى حلم عجيب أرى خلاله صورة حية من هذه الصور التى كثيراً ما رأيتها فى كتب التاريخ الفرنسى .

وتحادث رشدى مع شاب نحيل جدا ، طويل جدا ، تختلج ملامح وجهه اختلاجات عصبية ، وتتأرجح رأسه على عنقه المعروق . وكانت بين شفتيه لفيفة مشتعلة يطلق دخانها وهو يتحدث مع رشدى ، ثم وهو ينظر إلى بعينين ضيقتين نفاذتين . فلما قُدِّمت إليه على أنه «شمس الطليعة» ، صافحنى وحيانى بصوت أجش عميق . وكنت فى خلال هذه الثوانى أحاول جاهدا أن أذكر متى رأيت هذا الوجه الناحل ، ذا الجبين العريض الأجلح ، والرأس الذى يتأرجح على عنق معروق . وكلما خطر لى اسم «حسن ظاظا» استبعدت هذا الخاطر ، غير مصدق أن يكون زميلى السابق الفاشل فى دراسته الثانوية، هو نفسه «شمس الطليعة»

وجلسنا جميعا مع الجالسين : بعضنا فوق الصناديق الفارغة ، وبعضنا على دنان الخمر المقلوبة ، والبعض الآخر على أكوام القش ... وجاءت جلستى مع زميلى رشدى وشافعى إلى مائدة واحدة .

وصفق «الشمس» بيديه ، ثم راح يتنقل من مائدة إلى أخرى يتحادث مع هذا ويتفاكه مع ذاك ويعتب على غير هذا

وذاك، حتى فوجئت برؤية مايزيد عن عشر فتيات يبرزن من هذا الجزء المظلم فى الفناء ، يرتدين غلالات حريرية تكشف من أجسادهن أكثر مما تخفى ؛ تحمل كل واحـــدة بين يديها صحفة طعام كبيرة ، عليها زجاجة خمر تغطيها الأتربة ونسيج العناكب وبجانبها على الصحفة أكواب وكئوس وصحون صغيرة مسطحة ملأى بالمشهيات والفطائر والحلوى .

وجلست كل فتاة إلى مائدة من هذه الموائد التى جلس إليها عدد من الشبان يتراوح بين ثلاثة أو أربعة ـ أما مائدة « الشمس » الخاصة فقد جلست إليها أجمل فتاتين فى المجموعة كلها . أما الفتاة التى جلست إلى مائدتنا ووضعت عليها صحفة الخمر والطعام ، فقد كانت ذات قوام رشيق ممتلئة الجسم إلى حد ما ، ذهبية الشعر ، ضيقة الجبين ، مستوية الأنف ، مجموعة الشفتين ، تختفى بشرة وجهها تحت طبقة كثيفة من المساحيق ، ورأيت رشدى يتهامس معها برهة وجيزة ، ثم إذا هى تنتقل من مكانها وتأتى إلى باسمة محيية وتقول لى وهى تجلس متلاصقة بجانبى :

ــ أرجو أن تسعد معنا الليلة . . . فيكون لنا حظ رؤياك فى ليال أخرى . . .

فأومأت لهـا فى بسمة بلهاء، وغمغمت بألفاظ مبهمة وأنا

لا أكاد أتمالك نفسى لفرط الدهشة والذهول . وكسر رشدى رقبة زجاجة الخمر على حافة المائدة ، ثم سكب فى كل كأس مقداراً صغيراً . فلما تناولت الفتاة كأساً منها ورشفت منه قليلا ، قدمته إلى وقالت:

— لكى تذكرنى ... وتجرى ورائى دائما ...

فتناولت الكأس منها وأدنيته من أنفى ، ثم وضعته على المائدة وتمتمت لها بكلمات مبعثرة مؤداها أنى لا أشرب الخمر .

وعندئذ رفعت حاجبيها المزججين وهمست بصوت مبحوح

— أهذا ممكن ... ؟

— لماذا لا يكون ممكننا ... ؟

— كأنك لا تعيش فى هذه الدنيا .. ؟ وما معنى كونك شابا .. !؟

فلما آثرت الصمت ، مدت يدها إلى علبة اللفائف التى أخرجها رشدى من جيبه ووضعها على المائدة ، فتناولت منها لفيفة وأشعلتها وقالت وهى تنفث الدخان فى وجهى :

— إذا لم تشرب الخمر اليوم ... فستشربها غداً ... أو بعد غد ... إعتمد على ...

فابتسمت لنفسى وقد ذكرت أنى لن أعود إلى هذا المكان ، ولو دفع لى عن كل خطوة إليه عشرات الجنيهات . فقد رأيت بعينى فى ذلك الفناء ، وفى تلك اللحظات كيف يحطم بعض الشبان

حياتهم ومستقبلهم بأيديهم ، وكيف يدوسون بأقدامهم كل ماهو حق وخير فى هذه الحياة . . .

وذكرت فجأة أن هذا الذى أراه من طعام وشراب يستدعى إنفاق المال . ولما لم أكن أملك فى جيبى غير عشرة قروش فقد ملت على الفتاة وهمست لها .

— ما هى طريقة الدفع . . . ؟!

— إنك ضيفنا الليلة . . . هكذا قال بدر « الطليعة » رقم ٧

ثم أومأت برأسها إلى رشدى ؛ فقلت :

— وفيما بعد . . . ؟!

— ستعرف كل شىء فى أوانه . . . صبرا . . .

وعندئذ دوى فى المكان رنين جرس صغير . فلما نظرت إلى مصدر الصوت ، رأيت «الشمس» قد وقف على مقعده استعدادا للحديث . . . وتحولت الأنظار إليه ، وخفتت الأصوات وساد السكون . فلما ارتفع صوته متحدثا بأسلوب خطابى ، أيقنت من فورى أنه حسن ظاظا ؟!!

كان يخطب بطريقة بهلوانية لا تختلف كثيراً عن طريقته حين رأيته يبيع للقرويين « الأشياء المقدسة » الواردة من « أرض الحجاز » . وكان يكثر فى خطابته من عبارات « توحيد »

الجهود « وتوحيد » الأهداف وتوحيد « الصفوف » . وكانت الألفاظ تنطلق من شفتيه قوية رنانة مؤثرة وهو يتحدث عن المركسية والتاريخ المادي وفوارق الطبقات وحق الجياع فى تكسير الأغلال . وكان يكرر فى هذا الحديث ويعيد حتى لم يبق بين الحاضرين من لم يفهم كلماته ومعانيها . وكانت طريقة إلقائه توحى بأنه يحفظ هذه الخطبة (وربما غيرها من الخطب) عن ظهر قلب .

ولما انتهى فى أقل من ربع ساعة ، حياه الجميع بالتصفيق الهادىء ثم أعقبه ثان وثالث ؛ فأخـــذ كل منهما يردد عبارات رنانة طنانة عن التضامن الذى يولد القوة ، والقوة التى تحمى الحق والحق الذى لابد أن يعلو اخيرا ، كما لابد أن يعقب النور الظـــلام ...

وبعد هذا راح الجميع يأكلون ويشربون ويدخنون ، يتخلل هذا كله حديث وجدال وهمسات وغمزات بين الفتيات والشبان أما أنا فقد تناولت بعض الطعام ــ دون الشراب والتدخين ـ وحاولت أن أسايرهم فى الحديث حتى أنجو بنفسى دون إهانة أو تحقير .

وكانت الفتاة الجالسة بجانبى ـ وأسمها « كوكب الطليعة رقم ١٦ »

تأكل قليلا ، وتشرب خفيفا ، وتسرف فى التدخين وتضحك عالياً . . . ولكنى لم أر صدى ضحكاتها فى عينيها .

وكنت أفكر فى تلك اللحظات فيما أرى ... فقد تبين لى بجلاء ان هذا الاجتماع واحد من إجتماعات سرية يعقدها أعضاء خلية من خلايا هذا المبدأ الاجتماعى ، الذى يريد أن يجعل طبقة معينة من الشعب ، تستبد بالطبقات الأخرى ، متخذاً فى هذا السبيل كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة .

وذكرت فى الوقت نفسه حديث سيد فى الصباح ولعل هذا يفسر عبارته الأخيرة حين يئس من إقناعى بوجهة نظره . ولو أنى سمعت بهذه الأجتماعات دون أن اراها ، لهالنى الخبر ولكن رؤيتى لاحداها جعلنى أطمئن كل الاطمئنان على سلامة المجتمع وفشل هذا المبدأ ـ فى محيطنا على الأقل ـ . ذلك أنى لم أرواحداً من هؤلاء المتحمسين المتآمرين ينبئ مظهره عن نجاحه فى الحياة وليس من شك أنهم جميعا على شاكلة « البدور » الثلاثة وزميلى القديم « حسن ظاظا » الذى يرأسهم ... شبان عابثون لاهون فقدوا الامل فى مستقبل محترم ؛ فراحوا ينضمون تحت لواء هذه النزعات الاجنبية آملين أن يدركوا بها ماعجزوا عن إدراكه بالجد والاستقامة والعمل المثمر .

وبعبارة أخرى ، جماعة فاشلة فى حياتها ، تريد نشر الفشل بين الجميع وتتخذ هذا المثل القديم شعارا لها :
« علىّ وعلى أعدائى »

---

(١٢)

ولما اقتربت الساعةمن الثانية صباحا ، كان السكر قد بلغ من المجتمعين مداه ؛ فإذاهم يتبذلون ويتجردون من آدميتهم ، فيطلقوا العنان لشهواتهم ولآمالهم المكبوتة ولما ينتظر كلا منهم من مستقبل باهر حين يتم الانقلاب المنشود ! !

ولم ينس سيد فى ذلك المجال قصصة،وماسيكون لها من أثر فى التمهيد لهذا « الانقلاب » فهو من ثم، يقرأ على بعض الذين تحلقوا حوله عبارات من قصصه « الرائعة » التى ستهز أركان العالم العربى. وكان شافعى يردد بعض هذه العبارات بلهجة تمثيلية مضحكة ، ولا يكف عن إطلاق صفات « الدجى » و « الوجود » على هذا وذلك من بدور الطليعة ونجومها وكواكبها الفاتنات . أما رشدى فقد كان منتحيا مع « الشمس » مكاناً يتهامسان فيه ...

وأخيراً نهضت ولوحت لرشدى ليقترب ، فلما فعل ، أبديت له رغبتى فى الانصراف . وعندئذ قالت الفتاة الجالسة بجانبى —

وانا أيضا ... فإنى أشعر بدوار شديد ...

فقال رشدى — يمكن للشيخ ممدوح — على فكرة — أن يوصلك إلى منزلك ... فى تاكسى ... وقبل أن أهمس له بقلة المال معى ، دس فى يدى ورقة مالية من فئة الجنيه ، ثم مضى الى « شمس الطليعة » فهامس معه برهة أخرى . وكانت الفتاة قد غابت فى الجزء المظلم من الفناء ثم عادت مرتدية ثياب الخروج.

وصحبنا رشدى خلال الممرات والدرجات المتهدمة حتى بلغنا البوابة العتيقة . وكان الرجل العجوز العجيب لا يزال جالسا وراءها يهوم برأسه بين اليقظة والوسن . ولقد علمت من الفتاة أنه أصم أبكم ضعيف البصر ، يعرف الأعضاء جميعا باللمس ، ولا يفتح البوابة بعد العاشرة مساء إلا إذا شد الطارق خيطا مربوطا فى يده بطريقة متفق عليها .

وبعد أن ودعت رشدى خارج البوابة بألفاظ جامدة باردة سريت مع الفتاة - التى جعلت ذراعها فى ذراعى - خلال حارة مظلمة متشعبة المسالك وعبثا حاولت أن أعرف موضوع هذه الحارة من المدينة ، أو أرى ملامح تدل عليها إذا حاولت الاهتداء إليها أثناء النهار .

ولما سألت الفتاة عن اسمها — إسم الحارة — قالت إنها

تسمى « حارة النبروز » فأدركت انها كاذبة. ذلك أنى عرفت فيما بعد أنه لا يوجد فى القطر كله حارة بهذا الاسم.

ولما بلغنا نهاية إحدى المنعطفات ، وجدت سيارة أجرة واقفة كأنها فى الأنتظار فاشارت الفتاة للسائق ، ففتح بابها ، فارتقيناها ، وانطلق بنا خلال شوارع مختلفة : بعضها فسيح نظيف ، وبعضها ضيق موحل ، وكلها ملآى بالظلال التى ترسلها مصابيح متفرقة هنا وهناك : بعضها لا يزال مصبوغا باللون الازرق.

ولما توقفت أخيرا أمام منزل مرتفع البناء فى شارع واسع قلت للفتاة :

— أرجو أن تسمحى لى بالمضى إلى بيتى الآن... فى نفس السيارة...

فضغطت على يدى وحدقت فى وجهى وتمتمت — هل يليق أن تمضى هكذا قبل أن اقدم لك قدح شاى.. على الأقل...؟

فلما حاولت أن أعتذر إليها قاطعتنى بقولها :

— أيليق أن تتركنى أصعد الى مسكنى بالدور الرابع وأنا فى هذه الحالة : إن راسى تدور ، وأخشى أن يغمى على فوق السلم ، ثم إنى أراك ذا شهامة ومروءة.

فهززت كتفى مستسلما ، ونقدت السائق أجرته ، ومضيت مع الفتاة

نرتقى سلما مرتفع الدرجات ضيق الجنبات يضيئه مصباح كهربائى صغير ... وكان الإعياء بادياً على الفتاة أثناء صعودها ، فكانت من ثم تعتمد بجسمها على ؛ثم طلبت الى أن أحملها خلال الدرجات العشرة الأخيرة . فلما بلغت بها مسكنها ، أخرجت من حقيبة يدها مفتاحاً صغيرا ، فتحت به الباب ثم اضاءت النور الكهربائى فى ردهة صغيرة مفروشة بكليم مزخرف بألوان زاهية تتوسطها منضدة عليها ازهار صناعية ، وفى جنباتها أريكة ومقعدان وثيران.

وتقدمتنى عبر هذه الردهة — بعد أن أغلقت الباب الخارجى تاركة المفتاح فيه — الى غرفة نوم أنيقة . وهناك تهالكت على فراش وثير تلهث متعبة ، ثم أشارت إلى أن أجلس على حافة الفراش بجانبها . وبرغم وجود مقعد مستطيل «شيزلونج» بالغرفة وآخر لمنضدة الزينة ، فقد لبيت إشارتها ، وجلست على حافة الفراش بجانبها ، واسندت ظهرى الى العارضة الخشبية ، ثم جعلت ساقا على ساق فى جلسة مريحة وقلت :

— هل من الضرورى أن تصنعى لى قدح شاى وأنت فى هـــذه الحاله ... ؟

فأومأت برأسها وتمتمت — إطمئن ... سأسترد نشاطى بعد لحظـات ...

فهززت كتفى ورحت أتأمل الغرفة فى نور المصباح الكهربائى الذى كان يرسل ضوءاً أحمر هادئا .

كان الأثاث من الخشب المصقول الأنيق ، والمفروشات من الحرير المشجر الغالى ، والسجادة ذات ألوان رقيقة . وكانت على منضدة الزينة ألوان وفنون من أدوات التجميل ، والعلب الصغيرة المعدنية ، والاحقاق الخزفية والبلورية ، مع مرآة كبيرة غير ذات إطار ، أما الستائر الخملية فكانت مسدولة على بعض النوافذ ، وعلى الباب الفاصل بين الردهة والمخدع .

وقلت متسائلا وأناأشعر بالقلق :

أليس ثمة غرفة استقبال فى مسكنك الأنيق هذا ؟ !

فهزت رأسها وقالت باسمة — لا . . . هذه الغرفة...والردهة والمطبخ . . . ودورة مياه . . . فقط . ثم نهضت وقالت وهى تتجه إلى خزانة الثياب :

— سأخلع ثيابى هذه وأرتدى أخرى مناسبة . . . أرجوأن تدير وجهك

وكان فى صوتها الباسم مايوحى بعكس ماتريد ، ولكنى قلت :

— سأبقى فى الردهة حتى تفرغى ...

فأمسكت بذراعى وقالت فى لهجة حاسمة :

-- لا ... إبق هنا... ماذاتخشى .. .أتخاف فتى إلى هذا الحد ؟

ــ وهل تخشين أنت أن ... أن أهرب...قبل أن تكرمينى ؟!

وكنت أرجوا أن تبتسم لعبارتى هذه ، ولكن وجهها ازداد تقطيبا وهى تقول :

ــ بل أريد أن أعرف الحد الذى يمكن الشاب مثلك أن يسيطر فيه على أعصابه ... واسمح لى بالقول إنى لم أرشابا فى مثل برودك ... وتزمتك . .

وأوشكت أن أقول لها « لأنك تعيشين فى حمأة لا يتردد عليها غير طبقة معينة من الرجال »

ولكنى استطعت أن الطف عبارتى فقلت :

وكنت ــ وأنا أتحدث ـ أتشاغل با لنظر الى صور بعض ممثلات هوليود معلقة فى إطار كبير واحد بجانب منضدة الزينة .

فلما أتممت حديثى ، قالت بصوت ساخر ــ إن اكثر الذين عرفت من الرجال ... متزوجين . .

ثم ضغطت على اسنانها واستطردت بصوت مرير ــ بل إن السبب فيما وصلت إليه ... كان رجلا متزوجا . .

ــ ولماذا سمحت له بأن . . بأن . . . يغرر . . . يخدعك ...

ــ ولماذا أنت هنا . . . فى مخدعى هذا . . . مثلا . . . ؟ !

فدهشت لسؤالها المفاجىء ، فلما أدركت ماذا تقصد به ، أكبرت ذكاءها وقلت :

— أتعنين انه عند القدر يعمى البصر ...

— نعم . . . ولهذا أرجو أن تترك الفلسفة والمواعظ الآن وتنتظر حتى اعود اليك بإبريق الشاى . .

. . . .

وغادرت الغرفة فى ثوب حريرى طويل مشدود الى جسمها شداً أبرز قوامها بشكل مثير ، وكان يكشف عن ذراعيها وجزء كبير من صدرها وظهرها .

وبقيت فى جلستى على حافة الفراش أبتسم لنفسى . . لقدكنت مضطرباً فى اول الامر أشد الاضطراب فلما تبين لى بوضوح أن الأمر بينى وبينها سيكون معركة عنيفة مع غانية لعوب تريد أن تخضع لجمالها شابا « باردا متزمتا » ؛ هدأت نفسى وازددت « برودا وتزمتا » ؛ وذكرت — لا أدرى لماذا — ما كان يحدث بينى وبين « نينه » ؛ وذلك حينما كانت تنهال على ضرباً لأبكى فأصمد لها ولا أحقق أمنيتها حتى يكل ذراعها ، فتلقى بالعصا وتفر باكية الى غرفتها . ولكنى — مع هذا رحت أعلل هذا السبب أو الاسباب الأخرى التى أضفت على نفسى هذا الهدوء واستلت من مشاعرى

كل رغبة جسدية برغم وجودى فى مخـــدع غانية . فهل كان السبب هذا المصحف الصغير الذى أحتفظ به دائما فى جيب سترتى الداخلى وقد طويته على صورة صغيرة لأبى !؟ هل هو احترامى الدائم لإنسانيتى ونفورى الشديد مما ينزل بهذه الانسانية الى مرتبة الحيوانية !؟أم تراها صورة انسام فى مخيلتى.. صورتها البريئة الطاهرة النقيه ! فقد كنت أؤمن تماما بأنى إذا ضممت إلى صدرى فتاة أخرى ، فسوف يضم أنسام جسد رجل آخر ؛ فإذا نجت هى من هذا المصير، فسوف يوقع الجزاء على ذريتى من البنات ..

وازدادت البسمة على شفتى ، وأنا أنظر فى المرآة الواقعة أمامى، ثم أذكر قول القائل إنه إذا اغلق الباب على رجـــل وامرأة فى غرفة واحدة ، فلا بد أن يكون الشيطان ثالثهما . . ابتسمت — لا سخرية من هذا القول الحكيم — وإنما لأنى من المؤمنين بأن شياطين الدنيا كلها ، لا تنال من انسان منالا إذا هو لم يعاونها بأفكاره وشهواته وأطماعه ..

وزادنى التفكير فى هذه النواحى برودا عاطفياً وهدوءاً نفسيا وتحصنا للمعركة المنتظرة .. فها أنذا فى مخدع فتاة ، تبيع جسدها للشيطان فى كل ليلة . . فتاة تريد أن تعرف — كما قالت — مدى سيطرة شخص مثلى على أعصابه ورغباته الجسدية .

لقد ألقت بالقفاز — كما يقولون فى وجهى . . فلو أنى ضعفت أمامها ، وألقيت بإنسانيتى وكرامتى ومبادئى تحت قدميها ، لشعرت هى بإحساسين متناقضين :

أولا شعورها — مع الانتصار — بالعزاء عن حالتها هذه حين ترى شاباً بارداً متزمتاً ينسى كل مبادئه وأخلاقه عند أول فرصة سانحة .

وثانيا فقدها آخر أمل فى قدرة الانسان — مهما يكن — على كبت شهواته أمام الاغراء ، وبذلك لايمكن ان تحاول إصلاح أمرها يوما . . .

واستراحت نفسى لهذا التفكير الأخير ، واعترتنى هزة من سعادة روحية لاتدانيها أية سعادة جسدية مهما تكن . ومن ثم تراخيت فى جلستى وعقدت أصابعى حول ركبتى ، وشرعت « ادندن » فى غبطة ورضا ، ثم أشكر فى نفسى « البدور الثلاثة » ، الذين أتاحوا لى فرصة اهزم فيها شهوة الجسد مرة أخرى وأبين لفتاة مسكينة مخدوعة ، أن جميع الرجال ليسوا — كما تتوهم — ذئاباً وأبالسة . .

وأقبلت تدفع أمامها عربة صغيرة من المعدن اللامع والبللور ، عليها أدوات الشاى من ابريق وأقداح وآنية لبن من الخزف

الملون ، وصحاف ملآى بالفاكهة والحلوى . . . ولما سمعتنى «أدندن» ، شاعت فى وجهها سمات البهجة والرضا ، ولكن هذه السمات لم تلبث أن زالت حين تأملت وجهى ، ثم حلت محلها امارات دهشة وريبة . ولست أدرى ماذا رأت على وجهى فى تلك اللحظة . . عساها لمحت بعض ما يدور فى نفسى من ثقة وعزم واستعداد للمعركة الرهيبة التى ستدور بينى وبينها . . .

جلست بجانبى وأشعلت لفافة من علبة معدنية مذهبة ، بينما رحت أشكر لها هذا الكرم الحاتمى ثم قلت :

— هل مضى عليك . . . كثيرا وأنت : . . وأنت . . .

— عشر سنوات . .

— ياه . . . كم كان عمرك إذن . . . عنـــدما . . . عندما . . . أعنى . . مسألة الرجل المتزوج . . ؟ !

فلمحت يدها ترتعش وهى تصب الشاى فى الأقداح وتقول :

— كنت فى السابعة عشر . . . وكنت أبادل ابن عمى الحب ، وكنا فى مستوى اجتماعى واحد . . ولكن والدته ، سامحها الله ، أصرت على بتر الصلة العاطفية بيننا ، وتزويجه من فتاة تملك عشرة فدادين . ولعلك تعجب كيف أمكن لهذه الأم ، أن تفرض سلطانها عليه وعلى زوجها . . بل وعلى افراد الاسرة جميعا . .

فاومات برأسى وقلت وقد ذكرت ما كان من نفوذ « نينا » .

ــ نعم ... لاداعى للعجب ... هذا أمر طبيعى مادام الزوج قد عود زوجته على فرض إرادتها عليه فى كل شىء .

فأرسلت سحابة دخان من بين شفتيها ومن أنفها وقالت :

ــ هل كانت والدتك ... ؟!

ــ لا ... زوجة أبى ...

فاربد وجهها فجأة وهمست ــ مسكين ... لقد كانت لى زوجة أب ... أنا ... أيضاً ...

ــ وهل كانت تقسو عليك ؟!

ــ لو أنى قصصت عليك ما كنت ألقاه منها لانتهى الليل قبل أن أفرغ ...

ــ وأمك ... هل ... ؟

ــ لا ... إنها على قيد الحياة ... متزوجة من رجل آخر ... ولها منه أولاد ... وكذلك أبى ، إنه يعيش راضى النفس مع زوجه وأولاده منها ... وأنا ... وأنا فقط ...

وارتعش صوتها وتهدجت نبراته ، وعضت على شفتيها كأنها تخشى أن تنفجر باكية ، ثم راحت تدخن بشراهة قبل أن تستطرد قائلة :

ــ لن أستطيع أن أصف لك كيف جعلت زوجة أبى

حياتى جحيما معها . . . ولن أذكر لك الكلمات الجارحة التى كانت تلقيها على مسامعى ليل نهار ... ولا السباب الفاجر الذى كانت ترميني به ، بذنب وبغير ذنب ... نعم ... ولن أذكر لك كيف كان أبي يغازلها أمامى ... أمامى أنا . . . ابنته العذراء . . . ولن أسرد لك بالتفصيل، كيف كانت تعرقل كل مشروع لزواجى قبل أن يتم . . . ويكفى أن أقول إنى فررت من جحيمها،مع أول شاب غازلنى فى الطريق وجعل الدنيا — بحديثه المعسول ـ تبدو فى عينى جنة نعيم . فررت معه وعشت فى مسكن استأجره لى سنة كاملة . . . وكان يراوغنى كلما طلبت منه أن يفى بوعده ويتزوجنى . . . وأخيرا هجرنى فجأة واختفى . ولما حاولت أن اتصل به فى مقر وظيفته ، علمت أنه كان يعيش معى باسم مستعار . . . ثم التقيت به بعد عامين من هجره لى على بلاج فى الاسكندرية ... ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل معه . . . لقد دفعنى إلى السقوط وجعلنى إحدى هذه القطط الضالة،التى تلتقط رزقها من القمامة. . .

— وكيف عرفت أنه كان متزوجاً . . . ؟

ـ رأيت معه ، حين التقيت به ، طفلا فى نحو السابعة من عمره ، ولقد خطر لى فى أول الأمر أن أهجم عليه ، وانشب أظافرى فى عنقه ، ولكنى تريثت وهدأت من نفسى ، وتقدمت

إليه باسمة . ولما حاول ـ بصفاقة ـ غريبة أن يستأنف علاقته بى ، تظاهر بالرضا ، ولكنى لم أدعه ينال منى منالا ، يا إلهى . . .

ثم أخفت وجهها بيديها برهة قبل أن تستأنف الحديث :

ـ لقد عذبته عذابا لم يلق برجل مثله . . . كانت عيناه تجحظان كلما رآنى ـ كما ترانى أنت الآن ـ وكنت أبدو له فى أول كل لقاء هادئة مستجيبة لحديثه ولمساته ، حتى إذا بلغت به ثورة الجسد ذروتها ، امتنعت عليه بعنف وإصرار ، كان يبكى ويمزق شعره ويمرغ وجهه فى الأرض ، ويحاول فى أحيان كثيرة ، أن يمزق ثيابى وشعرى ويغرس أظافره فى جسمى ، ولكنى كنت أنتصر عليه فى النهاية وآمر خادمى الزنجى أن يطرده خارج المسكن . . . ولولا شفقتى بابنه الذى رأيته معه ، لظللت به هكذا حتى أفقده عقله . . وأحطمه . . .

فأحسست على رغمى ـ برعب يشيع فى أعماقى ، ثم قلت لنفسى « ماذا يكون موقفك لو أن هذه الغانية صنعت بك ـ بعد أن تلهب مشاعرك ما صنعت بذلك الرجل الآخر . . . » وأخيرا ابتسمت راضياً عن موقف الحذر الذى لزمته فى أول الأمر . . . فلما لمحت بسمتى الغامضة قالت فى شىء من الحدة :

ـ لماذا تبتسم هكذا ؟ أتعتقد كما يعتقد غيرك أن أمثالنا

لا يعرفون الشفقة فى أية صورة ؟

فهززت رأسي وتمتمت ـ لقد أخطأت فهم ابتسامتى ... ولعلك ستخطئين فهم مشاعرى بعد ذلك .

فتراخت فى جلستها وقالت ـ لقد جررتنى إلى الحديث عن نفسى طويلا ... أتراك تهرب من الحديث عن نفسك ... ؟

ـ ليس فى حياتى ما يستحق أن يذكر ...

ـ ماذا تقول ؟ عجباً ... هانحن معاً فى مخدع واحد ، وفى جو يوحى بالغزل ، و... بالقبل ، ومع ذلك لم تحاول ... أن تغازلنى ... أو ...

وكادت السيجارة تسقط من يدها حين سمعتنى أقول بصوت واضح :

ـ لأنى ... أحبك ..

وتحركت شفتاها لتقول شيئاً ... ولكنها عادت فزمّتهما وقد تألقت الدموع فى عينيها ... وأخيرا تمتمت :

ـ لم أكن أنتظر أن تلهو بى ، وتسخر منى إلى هذا الحد ... لقد حسبتك شهما كريما ...

ـ قلت لك إنك ستخطئين فهم مشاعرى ... وها أنت قد فعلت ... لماذا تحسبيننى أسخر منك إذا عبرت عن حبى لك ؟

— لأن كل شيء فيك يؤكد أنك تسخر منى بهذه الكلمة . . بل إن أى شخص آخر يعبر عن حبه بهذه السهولة لأية فتاة فى أول لقاء فهو يسخر منها ومن حماقتها . . . هكذا علمتنى الحياة . . .

— إنك تقصدين هذا الحب الذى شقيت منه وأشقيت به . . .

فهتفت فى حماس ـ مستحيل . . وأؤكد لك أن هـــذا مستحيل . . . إن الحب الإنسانى لا يلد الحقد أبدا . . . ولكن التظاهر بهذا الحب والتعالى والتسامى على الناس هو السبب المباشر للحقد والبغض والنفور .

(١٣)

وبعد أن ساد السكون بيننا برهة غير وجيزة قالت فى شيء من الخجل :

— ولكن ما علاقة هذا كله . . . بحبك . . . بحبك لى . . . هل تقصد أنك تحبنى . . . كما تحب . . . أصحابك رشدى و . . .

— وهل يسوءك مثل هذا الشعور ؟ !

— لا . . . طبعا . . إنه خير من الكره على كل حال . . . ولكن . . . ولكن فيه معنى . . . رائحة الإحسان .

— هذا يتوقف على استجابتك له . . . فإذا أنت بادلتنى شعورا

مثله ... فكلانا محسن ... وإلا ... فلك أن ترفضيه ...

فهزت رأسها وقالت :

ــ وأنت فى موقفك وحديثك هذا ... ألا تشعر فى قرارة نفسك بالتسامى والتعالى على غيرك ... ؟!

ــ فرق كبير أن يتعالى الإنسان بقدر ما يستطيع عن النقائص التى تشوه إنسانيته ، وبين أن يتعالى على غيره من الناس . . ومن الظلم أن نتهم الاتقياء الصالحين بالكبر والنفاق والتعالى ماداموا لا يتظاهرون بهذه التقوى أو يستغلونها للتأثير فى نفوس الناس بعلو مكانتهم عند الله ...

ــ وأنت ألم تحاول الظهور بهذا المظهر . .

ــ ما كان لك أن تسأليني هذا السؤال لو أنك رأيتنى فى حياتى الجامعية . ولمست بنفسك كيف أشارك زملائى فى معظم ما ينشطون له ، وكيف احترم الصغير فيهم والكبير ، الغنى والفقير ، العابث المستهتر ، والجاد المتزن . .

فوثبت من مكانها ودفعت عربة الشاى إلى خارج الغرفة ، ثم عادت فوقفت أمامى واسندت مرفقها على عارضة السرير الخشبية ورائى ، ثم تمتمت وهى تحدق فى عينى :

ــ لقد فكرت فى حديثك هذا فوجدته حديث شاب بارد ...

مغرور . . يظن نفسه ملاكا وغيره أبالسة . . شاب منافق يحاول أن يتظاهر بالتقوى والصلاح . . ها ها ها . . التقوى والصلاح اسمع . ثم زمت شفتيها برهة وأخيرا قالت بلهجة كلها الحزم :

— إما أن تأخذنى بين ذراعيك الآن . . حالا . . وتقبلنى . . وإما أصفعك وأبصق على وجهك .

فنظرت إليها وأنا أحاول إخفاء دهشتى ببسمة شاحبة . ثم قلت :

— هل أنت جادة فيما تقولين . .

— جدا . . .

— وهل تجرئين على صفعى وانا . . ضيف عندك . . ؟

— مادمت تجرؤ أنت على رفض طلبى . . إن الموت أهون بكثير على المرأة التى تضع نفسها بين يدى رجل . . أى رجل .. فيسخر منها ويروح يلقى عليها المواعظ والحكم . . إنه فى هذه الحالة يمتهن أقدس مشاعرها وأعنى به كبريائها الأنثوى . .

ولما تهدج صوتها فى العبارة الأخيرة ؛ اعتدلت فى جلستى وتناولت كتفيها ، ثم قبلت مفرق شعرها وقلت :

— أهذا . . يرضيك . . . ؟ !

فدمدمت فى إصرار — لا . . هذا لن يرضينى بأى حال . . . ماذا تظننى . . أختك . . ! ؟ ؟

فدفعتها عنى قليلا وقلت ضاحكا :

— إذن فلن أستطيع إرضاءك . . . أبدا .

وعندئذ ألقت بنفسها على وهى تغمغم فى غضب شديد .

— أتحسب نفسك فوق البشر حقا . . يجب . . يجب . . أن تخضع . . لن أكون توحيدة إذا لم أجعلك تركع أمامى صاغرا . .

وتمكنت بالمصادفة وحدها — أن أمسك معصميها فى قبضتى وأن أدفعها عنى فى شىء من القسوة ، ثم أرغمها على أن تقف أمامى بغير حراك . . ويبدو أنى قسوت فى قبضتى على معصمها . فقد رأيت الدموع تلمع فى عينيها ، وأمارات الألم والغضب المدمر تملأ وجهها ، وكانت ترسل على سيلا من الألفاظ العتيقة . .

— أنت حيوان . . أحقر من حيوان . . نصف رجل . . وصمة فى جبين الرجولة ، إنى أكرهك . . أحقد عليك ... اتفوه] فوضعتها على المقعد المستطيل ، ورحت أمسح وجهى بمنديلى فى صمت وهدوء لم يخلوا من غضب شديد . أما هى فقد أخذت تبكى وتنتحب فى عنف وشدة . وعندئذ خيل إلى أنى سمعت باب مسكنها الخارجى يفتح ويغلق بهدوء . فلما أسرعت إلى الردهة ، وجدت كل شىء ساكنا . فوقفت برهة مترددا . . وأخيرا عدت إلى المخدع لأتناول طربوشى وأمضى وأنا أشعر مع الغضب بالضيق والألم والحيرة

ولكنى ما كدت أهم بالخروج حتى رفعت توحيدة رأسها وقالت ناشجة:

— أرجوك أن تنتظر . . قليلا . إن الذى خرج الآن هو رشدى . . رشدى . . صديقك الذى تحبه . . لقد استأجرنى لكى . . . لكى . أنت تعرف . . ولقد خسرت الليلة خمسه جنيهات بسبب فشلى معك . . ولكنى غير آسفة .

(١٤)

فنظرت إليها مدهوشا لا أكاد أصدق أذنى ثم تمتمت :

— رشدى . . ؟

فنهضت دون أن تجيب — ومسحت عينيها، ثم غادرت الغرفة . . فلما عادت وقد غسلت وجهها الذى بدا خمريا — ووقفت أمام المرآة تسوى خصلات شعرها المتهدلة وقالت :

— نعم رشدى . . وكان هذا بالاتفاق مع رئيس الخلية . .

— أتقصدين « شمس الطليعة » ؟ !

— نعم . . كانوا يريدونك عضوا عاملا معنا . .

ثم ابتسمت فى شحوب وقالت مستطردة :

— أى « بدرا » للطليعة . . أما العضو المشترك فهو « نجم » فقط . . ولقد عهدوا إلى أن أحطم مقاومتك ونفورك من النساء . .

ثم أجعلك كما جعلت كثيرا من الشبان — ألعوبة فى يدى ثم أفرض عليك رغباتى . . أو بمعنى آخر . . رغبات « الشمس » .

فأحسست برأسى يدور وأنا أتمتم لها بصوت مضطرب :

— ولكن . . كيف تكشفين الحقيقة بهذه السهولة . .

— لأنى لا أريد أن أحطم آخر بارقة من أمل باقية فى صدرى، لقد علمتنى الليلة أن الدنيا لا تزال بخير رغم موجة الفساد والفجور التى تغشاها الآن . . علمتنى أن جميع الرجال ليسوا - كما كنت أظن - مجموعة من الأنذال، الذين لا يعرفون معنى كلمات الشرف والمروءة التى يتشدقون بها، إن موقفك منى قد زاد بارقة الأمل فى نفسى نحو الخلاص . . ومن يدرى فلعل الأقدار ترحمنى أخيرا وتتيح لى حياة شريفة مستقرة .

فمسحت بمنديلى العرق المتصبب على جبينى وقلت فى ذهول :

— هل يمكن أن تصارحينى قليلا بأمر اجتماع الليلة . . ودورك الأساسى فيه ؟

فهزت كتفيها وقالت - لا بأس . . إننى لن أهتم إذا أفشيت أمرنا للبوليس . . بل إنى أفكر أن أقوم بهذا العمل، إذا لم يسمحوا لى بالخلاص منهم . . لقد أفقدونى حريتى تماما فى الأشهر الأخيرة نظير ما يقدمونه إلى — مرتين فى الأسبوع — من طعام وخمر . .

ورجال وبعض المال .. إنى إذا استمررت على هـذا الحال فسأفقد عقلى حتما . .

وصمتت برهة ريثما تعطر شعرها ووجهها ثم استطردت تقول:

ــ إنى أشتغل بالرقص ساعتين كل يوم فى ملهى حقير . . . وسيطول بى الحديث لو ذكرت لك بالتفصيل، كيف اصطادنى رجل من هذه الجمعية ، وكيف ملأ صدرى بالحقد والضغينة ، على نظام المجتمع الحالى ، ثم كيف قدمنى إلى هذه الخلية حيث أخذت بدورى، فى اصطياد الشبان الذين آنس منهم ميلا الى الهدم والتدمير ، ولقد أغريت بمفردى ستة شبان للإنضمام الى الجمعية فى خلال ثلاثة شهور . ولعلك ستضحك إذا علمت، أنى لا أكاد أفهم شيئا مما يثرثر به الخطباء فى الاجتماعات ، التى أحضرها . ولكنى أقوم دائما ، بتوزيع المنشورات التى يعهدون بها الى بنجاح كبير .

أما الأساليب التى يلقنوننى إياها للتوزيع ، فهى تدل على أن وراء هذه الخلايا عقولا شيطانية جبارة . . .

ــ وما مسألة الجنيهات الخمسة التى فقدتها بسبب فشلك معى ... ؟

ــ إنها المكافأة التى تتناولها الواحدة منا كلما ضمت الى الجمعية عضوا جــــديدا . . .

ــ وكيف ستفسرين أمامهم فشلك الليلة ؟ .

ـ إنى أفكر جديا فى الانفصال.. فقد تبين لى أن هذه الاعمال، شديدة الخطر من الناحية القانونية . ثم إنى أشعر عن يقين ، بأننا سنداس بالاقدام عندما يبلغ الرؤساء الكبار اهدافهم ،

فأومأت برأسى وقلت :

بالتأكيد ... فليس من المعقول أن يبلغ الأعضاء جميعا مراكز الرئاسة ، فإن عبر التاريخ تحدثنا دائماً، أن الأكثرية هى التى تجعل من أجسادها وتضحيتها وآلامها ودمائها مراقى يرتفع عليها أفراد معدودون من الذين يدبرون الانقلابات وهم آمنون... ولكن هل يمكنك الانفصال بسهولة... ؟!

ــ نعم ... إن القانون الذى وقعنا عليه ، يبيح للعضو أن ينفصل عن الجمعية بمحض اختياره بشرط أن يعلن انفصاله قبل تنفيذه بثلاثة أسابيع ، وأن يلزم الهدوء والسكون ، وألا يفشى اسرار الجمعية للبوليس ... فإذا أخل بهذه الشروط تعرضت حياته للخطر ...

فسألتها وقد بدأت الآمال تدب فى صدرى عن استقامتها :

ــ وماذا تنوين أن تفعلى بعد ذلك ؟

فصمتت برهة ثم قالت ــ لا أدرى تماما ... ولكنى أزمع أن أغير حيـــاتى تغييرا تاما .. فطالما راودتنى هذه الفكرة .

ولكنى كنت أؤجلها من حين إلى آخر . . وأحسب أن الأوان قد آن لتنفيذها . لقد درست مدة عامين فى إحدى المدارس الثانوية ، واعتقد أنى أستطيع الحصول على عمل فى متجر كبير أو شركة . .

ثم استدارت إلى وقالت باسمة فى شحوب .

— قد أحرم بعض الترف المادى الذى أعيش فيه الآن . . ولكنى سأنعم بالاستقرار والهدوء ، وسأسعد بالاستغراق فى النوم ، أثناء الليل مستريحة الضمير ، وبالعمل المثمر خلال النهار ، ثم بالشعور بكرامتى كإنسانة ذات كيان وإحساس . ومن يدرى . . فقد يسعدنى القدر بشاب مثلك يرضى بى زوجة . . وخادمة . .

فاطرقت برأسى ، وقد التهمت وجنتاى بالحمرة ثم قلت فى بطء وخجل وارتباك :

— تأكدى يا . . . يا . . .

— توحيدة . . .

— تأكدى يا توحيده ، انك ستبلغين أهدافك السامية مادمت مخلصة فى توبتك . . فانك مازلت شابة ، وما زال المستقبل أمامك فسيحا . . وأنا أعتقد تماما أن فى استطاعة فتاة جميلة مثلك أن تظفر بالرجل الذى تريد . . بل فى استطاعتها أن تجعل من الرجل المستهتر زوجا مستقيما يرعى أسرته ويتفانى فى خدمتها . . فأنا

أو من بأن فى وسع المرأة أن تجعل من الرجل ملاكا . . أو شيطانا . . فما غوى رجل إلا كانت وراء غوايته امرأة . . وما صلح أمره إلا كان وراء صلاحه إمرأة ايضا . .

فابتسمت فى رضا وقالت ، وقد بدأت تباشير الصباح تتسلق من الستائر إلى الغرفة ، وتبهت النور الكهربائى :

— وانت . . هل . . هل . . وراءك . . إمرأة . ؟

فقلت لها وانا أتناول طربوشى استعدادا للخروج .

— نعم . . أمامى فتاة . . بل ملاك فى صورة فتاة . . ولعلك ترينها يوما فتدركين سر النبع الذى تتدفق منه مشاعر حبى لكل ما فى الدنيا ومن فيها . .

(١٥)

لم ألتق بواحد من زملائى « البدور » الثلاثة إلا فى صباح يوم السبت التالى . ذلك انى حين بلغت المسكن ، فى صباح يوم الجمعة — بعد مغادرتى مسكن توحيده ، الذى كان يقع فى شارع هادىء بحى شبرا — وجدتهم مستغرقين فى النوم بعد سهرتهم الصاخبة . ولما استيقظت بعد الظهر استعدادا للذهاب إلى مقر عملى بمصنع النسيج ، كانوا قد غادروا المسكن ليتناولوا سويا طعام

الغذاء — كعادتهم فى مثل هذا اليوم — فى « مسمط » معروف بحى الحسينية . .

وكان رشدى حين قابلته فى صباح السبت ، لا يدع عينيه تلتقيان بعينى ، ونحن نتبادل هذا الحديث العادى الذى يكون بين الزملاء فى مسكن واحد . ولم يسألنى سيد من قريب أو بعيد عن شعورى فى تلك الليلة الصاخبة ؛ ولعله كان يعرف إجابتى سلفا . . أما شافعى فقد انفرد بى فى غرفتى برهة وهمس لى .

— أرأيت بنفسك ياشيخ « الوجود » ماينتظرنا من مستقبل باهر . . لعلك تعرف الآن يا ممدوح الدجى أنك تقيم مع مجاهدين ، يشقون الطريق نحو المجد فى صمت وهدوء . .

— بل أدركت تماما أنى مقيم مع أطفال يلعبون بالنار . لم أكن أتصور يوما أن أراكم مرؤوسين لغلام مهرج فاربد وجهه وتمتم — هل تعنى رشدى . . ؟

— لا . . وإنما أعنى من تدعونه « شمس » الطليعة . . سنعقد الليلة جلسة للمناقشة .

— ستكون الليلة يابدر الدجى هناك . .

— إذن سنعقدها فيما بين الثانية والثالثة بعد الظهر . .

— كأنك لم تذهب معنا الليلة . . يالالالى . .

ـــ هذا يتوقف على نتيجة مناقشتنا . .

. . . .

وما أن وافت الساعة الثانية بعد الظهر ، حتى كنا مجتمعين فى غرفة رشدى ـــ كعادتنا كلما عقدنا جلسه للمناقشة .وكان رشدى لا يزال يتجنب لقاء عينيه بعينى ، وكأنما كان يعانى شعورا ذاتيا بالخجل والاسفاف ، بسبب محاولته الفاشلة لايقاعى فى شباك الجمعية عن طريق امرأة .

وتحدثنا طويلا ، وتناقشنا فى رفق حينا وفى عنف أحيانا . وراح كل واحد منا يعصر ذهنه ، ويستجمع قواه الاقناعية ليثبت وجهة نظره . . وكانت المناقشة كلما بلغت ذروة العنف والشدة ، اطفأها شافعى بعبارة مضحكة يرسلها عفوا .

وكنت إذا لجأت إلى المنطق فى حديثى ، لجأوا هم إلى الواقع فيحدثوتنى عن الفوارق الكبيرة بين طبقات المجتمع ، وعما يرونه بأنفسهم ويسمعونه من غيرهم ، أو يقرءونه فى الصحف من بذخ بعض الأغنياء واسرافهم، فى بعثرة الأموال فى غير وجهها الصحيح فيذكرون مثلا . . كيف ينفق هذا الثرى على كلابه وطيوره فى العام الواحد ، ما يكفى لإصلاح حى فقير بأجمعه ، وكيف ينفق ذلك « الوجيه » على « اسطبلات خيوله » ما يكفى لتزويد قرية كاملة

بالمجموعات الصحية والمساكن اللائقة بسكنى الآدميين ، وكيف يقيم هذا الغنى مأدبة طعام فاخرة لقوم فى غير حاجة إلى مثل هذه المأدبات ، فينفق فيها ما يكفى لانشاء مستوصف الامراض الصدرية ، وكيف تدفع بعض سيدات الطبقة الراقية فى الفستان الواحد ، ثمنا يكفى لتعليم طالب فقير فى كلية الطب حتى يتخرج .

وكنت أرد على أقوالهم هذه فأقول إن عيوب المجتمع هذه ، فى طريقها تدريجيا الى الزوال بحكم الوعى الجديد ، الذى بدأ يشق طريقه فى صفوف الشعب ؛ وأن الخير كل الخير فى معالجة هذه العيوب بالشرائع والقوانين ، بدل معالجتها بالعنف وسفك الدماء . ثم ذكرت لهم ماقلته « لتوحيدة » عن الأكثرية ، التى تجعل من تضحياتهاودمائها وأشلائها مراقى يرتفع عليها عدد محدود من مدبرى الانقلابات، وزدت على ذلك فقلت إن هذا الانقلاب الذى يسعون اليه سينتهى ـ إذا نجح ـ إلى نظام آخر أشد قسوة وعنفا وخسة ، إذ سيكون حكام النظام الجديد من أولئك الذين ليست لهم خبرة سابقة بالحكم ، والذين لايعرفون فى حياتهم شيئا من الشرف والكرامة والأخلاق الكريمة . ثم اطلقت سهمى الأخير فذكرت لهم ماأعرف عن « شمس » طليعتهم . . . (حسن ظاظا) . . هذا الغلام المهرج ، الذى عجز عن اجتياز السنة الأولى

الثانوية ، فراح من ثم يعوض فشله فى الحياة بهذا النشاط المـــدمر . . .

ولمـا أيقن زملائى من صدق حديثى عن رئيسهم « الشمس » كان «سيد»أشدهم استنكارا لهذا الوضع فقال :

ــ كيف اكون ــ أنا الطالب الجامعى والكاتب العبقرى مرؤوسا لغلام فاشل،عجز عن اجتياز السنة الاولى الثانوية . ؟!!!

ولمـا كان شافعى يجاريه فى كل شىء ، فقد وقف ودق صدره بيده وقال ملوحا بذراعيه :

ــ وكيف . . ! أنا الفنان الموهوب أتلقى التعليمات من مهرج الدجى . . هذا الغلام المغرور . . . » ؟

فضحك رشدى انقاذاللموقف وقال :

ــ وماذا يضيرنا أيها الاصدقاء . . . إننا على فكرة نستمتع بسهرتين كل اسبوع . . . خمر . . . وعبث. . .ونساءنظير اشتراكات ضئيلة وخدمات تافهة . . . فإذا جد الجد ، فيمكننا على فكرة أن نكون أول الهـــاربين

فنظرت فى ساعتى وقلت وانا أنهض استعداداً للخروج :

ــ اخشى ـ على فكرة أن تشرف السجن بضعة شهور قبل أن يتسنى لك الهرب .

وغادرت الغرفة وقد ران على الجميع صمت عميق ،كأنما يرون شبح السجن ماثلا أمامهم .

(١٦)

بعد أسبوعين من جلستى السابقةمع زملائى «البدور» ـ وبهذه المناسبة اقول انهم لم يعودوا يديرون هذه الـكلمة بينهم ـ تلقيت فى الصباح خطابين : أحدهما من سيدى الحاج وآخر من أنسام . . . فلما فضضت الخطاب الأول وقرأت بضعةأسطر منه شعرت كأن الغرفة تميد بى ، وأن نور الصباح قد تحول فجأة الى ظلمة كثيفة وأن الحياة التى كانت باسمةأمامى قد تجهمت فجأة ونادت على بأعبائها حتى شعرت بأنفاسى تختنق فى صدرى . . .

لقد ذكر الحاج ـ بعد أن أكد لى أن الجميع بخير ـ نبأزواج أنسام من رجل ثرى يدعى محمد ابراهيم محمود «بك»،وأن الزواج قد تم فى هدوء ، وأن أنسام ستنتقل مع زوجها فى خلال أسبوع لتقيم فى قصره بالقاهرة .

وراحت عبارة « زواج أنسام من رجل ثرى » ، تتراقص أمام عينى كمجموعة رهيبة من الأشباح المفزعة تحيط بى من كل مكان ، وتنظر إلى بوجوه منكرة ساخرة ، وتخز جسمى وقلبى بأظافر مدبية ملتهبة عاتية . . .

ولم يكن فى المسكن غيرى وغير رشدى الذى كان يرتدى ثيابه فى غرفته ، فلما انتهى ، أقبل يحيينى قبل خروجه ... ولكنه ما كاد يطل برأسه من الغرفة ويرانى جالسا على حافة فراشى ، والخطاب المشئوم فى يدى ، حتى رأيته - كأنى فى حلم - يتراجع مدهوشا مذهولا ويغلق الباب فى رفق ويمضى ...

ولم أدر كم مضى على من وقت وأنا فى جلستى هذه ، لا أكاد أفكر فى شىء إلا فى هذه العبارة العجيبة ، عن « زواج » أنسام ولا أكاد أرى شيئا إلا هذه الاشباح المفزعة المنكرة وهى تتراقص حولى ساخرة ، ولا أكاد أحس بشىء إلا بوخزات أظافرها المدببة الملتهبة فى جسمى وقلبى .

فلما تمالكت نفسى شيئا مددت يدا مرتعدة إلى خطاب أنسام وفى ذهول وحيرة وشك مضيت أقرأ عباراته التى كانت ترتعش أمام عينى :

« ...... كل شىء ساكن حولى يا ممدوح وأنا أكتب إليك هذه الرسالة فى منتصف الليل ، وإنى لأرجو أن تكون قد عرفت النبأ الأليم من خطاب جدى ... فليس أصعب على من أن أسوقه اليك بنفسى . بل إن يدى لترتعد ، وإن قلبى يتمزق ، وإن دموعى لتنهمر ، وأنا أحاول تبرير الأسباب التى أدت الى هذ الأمر ...

ولعلك ستذكر بعض هذه الاسباب اذا فكرت فى حديثى الأخير معك . . . لقد أقدمت على الزواج من هذا الرجل الثرى، الغريب عن البلدة بل عن المديرية كلها، إنقاذا لجدى من الإفلاس والدمار . وأنا من هذه الناحية أسعد الناس . . . ولست أشك فى أنك ستكون من هذه الناحية أيضا، أسعد الناس مثلى . . . فقد قلت لى فى حماسة وصدق أنك مستعد لتضحية نفسك ـ لو أمكن ـ لانقاذ جدى من فضيحة الافلاس وبيع أطيانه بالمزاد . . . فاذا كنت أنت لا تتردد عن التضحية بالنفس لإنقاذ جدى ، فكيف أجبن أنا!.. كيف أجبن أنا التى لم أر من جدى غير الحب والعطف والحنان والرعاية.

« كانت المفاوضات تدور بين جدى وبين مندوب هذا الرجل الثرى الغريب عن البلدة، فى أثناء إقامتك الأخيرة القصيرة معنا . ولهذا ألقيتُ عليك سؤالى فى حديثنا الأخير ، ولهذا سَعِدْتُ بإجابتك . . .

ولكن الذى يحيرنى ويدهشنى ، هو السر فى رغبة هذا الثرى للزواج منى . . لقد عرض على جدى أن يسدد كل ديونه ، وأن يقدم إليه مزرعة الفاكهة ، التى كان جدى يتمنى ضمها إلى أرضه وأن يدفع عدا هذا كله ألف جنيه صداق . فليس من المعقول أن يدفع رجل ما ، كل هذه الأموال « ليشترى » فتاة مثلى لم يرها

من قبل . . نعم فإنى أعتقد أنه لم يرنى قبل أن يتم زواجى منه . . أما انا فقد رأيته قبل ذلك مرة واحدة ، وهو يسير مع جدى متحدثا فى الحديقة : إنه رجل قصير الجسم ، بدين ملوح الوجه ، منتفخ الوجنات ، كثيف الشارب ، يضع على عينيه دائماً نظارة سوداء ، ويبدو أنه غير متعود على ارتداء الثياب الأفرنجية . أما جدى . . . فقد حاول أن يرفض هذا كله حرصاً على سعادتى . ولكنى أكدت له بمعونة أمى — أنى سأكون أسعد فتاة ،إذا تم هذا الأمر . وذكرت له أن كثيراً من الفتيات تزوجن رجالا أثرياء فى أعمار آبائهن، ثم عشن معهم سعيدات هانئات ... وأن السعادة الحقة ليست فى متعة الجسد ، وإنما فى هناءة الروح ، ورقة المشاعر ،وسلامة التفكير ،وراحة الضمير ،واقتنع جدى أخيرا . . وباركنى . . وبكى . . . »

« . . . وتم عقد القران فى هدوء تام . . وبعد يومين سأصحب زوجى . . إلى قصره فى القاهرة « . . ممدوح . . إنى أشعر مقدار ما سنحس به من ألم وحزن وشقاء . . أعلم أنى كنت الهدف المشرق المنير، الذى كان يدفعك إلى هذا الجهاد العنيف فى الحياة لتكون جديرا بى . . وأعلم أيضا أنى كنت أسعد فتاة مادياً وروحيا ،كلما فكرت فيما يكنه قلبك لى من حب طاهر مقدس . .

هذا الحب الذى كان يغافلك ، ويطل من عينيك كلما نظرتَ إلىّ
ولكنى مع هذا أعلم أيضا ، أنك شاب تمرستَ كثيراً بالآلام
والأحزان ، وأنك من ثم ستتحمل هذه الصدمة الجديدة، بما أعهد
فيك من رجولة وجلد . لقد أرسلت إلى يا ممدوح كتباً كثيرة،
علمت منها أن الإنسان لا يستطيع تحقيق أهدافه جميعا ، فى هذه
الحياة . . وأن العاقل السعيد هو الذى يستجمع نفسه كلما فشل فى
تحقيق هدف ليبلغ هدفا آخر . أما الذين يسقطون فى الطريق
من الصدمة الأولى ، فهم المتخاذلون الضعفاء، وأنا أعلم أنك لست
منهم . وأعلم أيضا أنك من الذين يستمدون سعادتهم من سعادة
الغير، ولو على حساب آلامهم الشخصية . أما هذا الحب الذى يربط
بين فؤادينا ، فسيظل دائما النبع الطاهر المقدس الذى استمدمنه
طهارة النفس، وطهارة الفكر، وهناءة الروح، والبلسم الشافى الذى
يخفف ألم الحياة . . وإنى إذ أودعك الليلة يا ممدوح — أرجو أن
نلتقى معا ذات يوم فى عالم لا تفرق فيه المادة بين المحبين . . »

. . . .

وألقيت بالخطاب من يدى ونهضت فأغلقت باب الغرفة على
من الداخل بالمفتاح والمزلاج ، ثم خلعت ثياب الخروج ، وتخلفت
عمداً ـ لأول مرة فى حياتى — عن الذهاب إلى الكلية . . وأخيرا

اندسست فى فراشى ، وجعلت الغطاء فوقى وعلى رأسى وقد شعرت برعدة قاسية رهيبة تشيع فى كيانى كله . . .

وبقيت فى الفراش طول النهار وجزءا كبيراً من الليل . وكانت رأسى تدور فى ثقل شديد كلما حاولت أن أرفعها . وكانت عيناى لا تريان شيئا غير الظلام الكثيف ، حتى حسبت أنى فقدت نورهما . وكانت أفكارى مشوشة مضطربة كأن فى رأسى شيئا يريد أن ينفجر . فإذا سمعت زملائى يطرقون باب شقتى بين الحين والآخر فى رفق وتردد ، صحت بهم فى صوت أجوف أجش أن يتركونى وشأنى . .

وللمرة الأولى فى حياتى أسمع دعاء الفجر ، فلا تتفتح له نفسى ، ولا تستجيب له مشاعرى ، ولا تهتز بالنشوة روحى ، ولا أقفز من فراشي خفيفا نشيطا مترنما لأتوضأ وأصلى وأتلو آيات من القرآن الكريم شأنى كل يوم .

لقد أحسست وأنا أسمع دعاء الفجر ، كأن باباً غليظا قد انصفق فى نفسى على أجمل وأسمى وأطهر مشاعرى ، وفتح باب آخر أشد غلظة ، فاندفعت منه أحاسيس عنيفة قاسية مدمرة راحت تهز جسدى المتهالك هزاً عنيفاً رهيباً وتملأ رأسى الثقيل المصدوع بأشد الأفكار والخواطر سوادا وعنفا . . .

وفى الصباح دق زملائى الباب فى شدة ، وهددونى بكسره والدخول عنوة ، فلما نهضت مترنحا ، وفتحت لهم ، نظروا إلى برهة ثم تراجعوا مدهوشين مروعين ، كأنما لا يصدقون أعينهم ... وكان لهم العذر ، فقد رأيت صورتى ، فى تلك اللحظة فى مرآة كبيرة بالردهة . . فإذا بى أرانى قد تبدلت فى يوم وليلة إلى إنسان آخر . . إنسان اختفت من وجهه هذه الوداعة المحببة وزال من نظراته هذا الصفاء الجميل ، وغارت عيناه ووجنتاه ، وارتسمت خطوط عميقة حولهما ، وتدلى جانبا فيه وبرز فكاه ...

أما صوتى فقد ازداد وحشية وقسوة وأنا أقول لهم :

ـــ الليلة أيها الزملاء . سنمضى معاً إلى الخمر . والعبث والنساء ...

ثم أرسلتها فى جو المسكن ضحكة رهيبة عاتية لو سمعها الشيطان نفسه لولى كما ولى أصحابى فرارا ...

---

(١٧)

ماذا جرى فى تلك الليلة ، ولا فيما تلاها من ليال تجاوزت المائة . . لا أعرف ، فليس أبغض عند الله وعند أكثر الناس ـــ من هذا الذى يذكر متفاخراً ما ارتكب من إثم ومعصية .

لقد عشت خلال هذه الفترة فى جحيم الجسد وشهواته . .

ولست أدرى تماما مادهانى بعد قراءتى لخطاب أنسام . فقد تبدلت حينئذ تبدلا عجيباً . . جسما وروحاً وأفكاراً... كنت أغرق نفسى فى كئوس الخمر ، وأذرع النساء ، وسحائب التبغ فأشعر تماماً أن شخصية أخرى غير شخصيتى الحقيقية ، هى التى عشت بها خلال هذه الفترة . .

ولكنى كنت أذكر دائماً شخصيتى الحقيقية، أحن إليها، وأبكى طويلا لذكراها . ذلك أنى ما كدت أعود من سهرتى الصاخبة الحمراء فى تلك الليلة الأولى، حتى انخرطت فى بكاء حاد عنيف — كما قال أصحابى لى فيما بعد — ثم أفرغت ما فى بطنى من طعام وشراب ثم استغرقت فى نوم مضطرب ملؤه الأحلام المزعجة الرهيبة . . . .

فلما استيقظت كانت آلام الحياة كلها قد تركزت فى رأسى ، وكأن بها فرقة من حملة المطارق تدق كل خلية فى مراكز أعصابى، فترسل الآلام القاسية تسرى فى أنحاء جسمى . . فلما أفقت قليلا، تهيأت للذهاب إلى عملى بالمصنع . وهناك أخطأت فى خلال ساعات العمل ست مرات متوالية . .

وبعد شهر من هذه الحياة فصلت من المصنع، وأعطيت مكافأة لم تزد عن ثلاثين جنيها . أما الكلية ، فقد انقطعت عنها وكنت كلما حاولت النظر فى كتاب لأستذكر ، ألفيتنى أقرأ الكلمات

والعبارات، ثم لا أكاد أفهم شيئاً . . وكأن عقلى غدا لوحة ملساء لا يثبت عليها شيء

وأشهد الله أنى لم أكن أجد لذة أو متعة فيما أخذت به . . أو هكذا على الأقل — كان شعورى كلما أفقت لنفسى . . ذلك أن زملائى كانوا يقولون لى دائماً، فى صباح كل ليلة حمراء، أنى كنت أهتف بين الحين والآخر وأنا أسير بينهم «هيه يامطرب الفرفشة»

وعندئذ يطوف بذاكرتى كما يطوف الحلم الغامض، أنى كنت أسير مترنحا، وبجانبى « شاكر بك » يعزف على آلته الموسيقية الشاذة، ويردد بصوته العجيب «أنا اللى ضيعت بايدى حياتى أنا . . أنا . . أنا اللى » فإذا تحدث عن الحب والتضحية فيه، صحت فى غمار سكرى الشديد « هيه يا مطرب الفرفشه » .

فإذا سألنى أصحابى عن سر هذا الهتاف، لزمت الصمت . . فقد كان من العسير على أن أقول لهم أنى أهتف، لطيف رجل ميت بعثه خيالى المريض إلى الحياة . .

أما الخمر فقد كان مذاقها دائما مرا بغيضا لعينا، وكان التدخين يلهب حلقى، ويجف ريقى، ويملأ فمى بالرائحة الكريهة، ويشيع الصفرة فى أسنانى التى كنت أعتز ببياضها وأعنى بتنظيفها ، وأما هؤلاء النسوة اللاتى كنت أقضى معهن سهراتى الحمراء، فقد كنت أراهن

بشخصيتى الجديدة وبأفكارى السوداء العنيفة التى انطلقت من سجنها فى نفسى ، فى صور مختلفة متناقضة : فالواحدة منهن، تبدو فى أول السهرة مصقولة كالدمية، متألقة المظهر، ملتمعة العينين ، تتحدث بصوت أغن كأنها نشأت فى أوساط راقية ؛ وتخلط ألفاظها العامية بعبارات أفرنجية ركيكة . فإذا ما لعبت الخمر برأسها، ورؤوسنا معها، تبدل الحال غير الحال ، وسقطت القشرة المصقولة عنها وبدت على حقيقتها أمام شخصيتى الجديدة ، فاجرة تافهة لا تعرف من الحديث غير النابى المروع للأسماع ، وتشيع رائحة العرق الخبيث من كل مسام جسمها المتهدل ، ويبدو وجهها بعد اختفاء المساحيق أو اختلاطها ـ أصفرا كريها منكرا، مغضن الإهاب ذات هالات سوداء تحت العينين ، وحول الشفتين ، ويفقد شعرها بريقه ، فإذا هو خشن مشعث ، أو متهدل جاف ، كالقطن المصبوغ ...

ولهذا كله كنت فى كل ليلة ، أعقد النية على ألا أعود إلى هذا فى الليلة التالية ، ولـكن زملائى سامحهم الله ـ كانوا لا يعدمون وسيلة لجرى معهم ، لاسيما ، وقد سرهم انى اندمجت فيهم اندماجا تاما . ولست بهذا ألقى اللوم عليهم ، لا ـ فقد كنت فى ليال كثيرة أشدهم حماسة لقضاء سهرة حمراء حتى مطلع الفجر . . .

ولـكن شخصيتى القديمة . . الحقيقية ، ظلت تطالعنى حينا بعد

حين . . فأنظر إليها ، بعين ملهوفة وقلب كسير . وكلما حاولت العودة إليها أحسست كأن جداراً من الظلام الكثيف يحول بيني وبينها . ولكني مع هذا ، كنت أدرك تماما معنى هذا الإسفاف الحيوانى الذى هبطت اليه، فقد كنت أنصت أحيانا إلى دعاء الفجر ينساب فى هدوء الليل ، فأتقلب فى فراشى كأنى نائم على جمرات ملتهبة ، وأخفى وجهى بين يدى ، ثم أبكى منتحبا حتى أشعر كأن عينى تتمزقان وتسيلان مع دموعى . . وكنت إذا مررت على المسجد الذى تعودت أداء صلاة الجمعة فيه ، أحنى رأسى خجلا وحزنا ، وأشعر أنى أدنس التراب القريب منه بخطواتى ، وأن أوزارى وخطاياى ، كأنها حمل ثقيل فوق كتفى .

وفى ذات ليلة كنت فى طريقى إلى المسكن قبيل الفجر . . . وحيداً . . وكانت الخمر لا تلعب برأسى ـ كما كانت تلعب فى الليالى السابقة ـ ومن ثم لم أر طيف « شاكر بك » يسير بجانبى كالعادة مترنحا بأغانيه العجيبة . . وفيما أنا أمر بجانب المسجد القريب من البيت ، سمعت مؤذن الفجر يرسل فى سماء الليل هذا الدعاء :

يا لطيف يا من شأنه كرم ... يا واحد ماله فى ملكه ثانى
أعصاك تسترنى ، أنساك تذكرنى ... فكيف أنساك يا من لست تنسانى

فتسمرت فى مكانى ، واستندت بكتفى إلى جدار بيت

مواجه لباب المسجد . . ورحت أرنو بعيون ذاهلة إلى هؤلاء الأفراد القلائل ، الذين غادروا أسرتهم الدافئة ، وأقبلوا لصلاة الفجر جماعة بالمسجد . . فاقتربت من الباب وشرعت أنظر اليهم وقدوقفوا للصلاة ، الفقير . . . الفقير مع الغنى ،والصغير بجانب الكبير، لا فرق بين هذا وذاك أمام خالقهم جميعا . . وقفوا وقد طهرت نفوسهم وقلوبهم ، ونسى كل منهم ما بينه وبين أخيه الواقف بجانبه من فوارق اجتماعية أو مادية .

وعندئذ ذكرت أن هـــذا المنظر ، ليس غريباً على نفسى وذاكرتى ، لأنى كنت ذات يوم واحداً منهم ، أقف مثلهم : طاهر النفس ،خاشع القلب ، سعيدا بهذه اللحظات التى أكون فيها أقرب ما أكون الى الله ، ناسيا كل ما فى الحيـــاة الدنيا من متاعب وآلام وأحزان . . .

ورأيت دموعى تنهمر وأنا أسمع صوت الإمام يتلو فى الركعة الأولى،قول الله جل شأنه «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » وخيل إلى أن الإمام لم يقل هذه الآية مصادفة ، وإنما هناك قوة خفية جعلته يتلوها لكى أسمعها . . . أنا العاصى الضال . . . فأهتدى . . .

وازدادت دموعى انهماراً ، وأنا أسمع الإمام يدعو بدعاء

القنوت فى الركعة الثانية « اللهم اهدنا فيمن هديت ، وتولنا فيمن توليت ، وعافنا فيمن عافيت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، واكفنا شر ماخلقت ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، ياأرحم الراحمين . . . الله أكبر . . . »

وانقطعت دموعى فجأة ، وشعرت بهزة عنيفة تعترينى وتملأ جسدى بحرارة كالنار ، ثم إذا بى أسترد صوابى تماما لنفسى ، وقد صفا ذهنى ، ثم إذا أنا أشعر كما يشعر الحالم، أن بابا غليظا فى نفسى قد انصفق على مشاعرى ، وأفكارى السوداء ، ثم انفتح الباب الآخر . . . باب المشاعر الطاهرة الجديرة بإنسانية الإنسان . . .

. . . .

وتمالكت نفسى أخيراً ، ثم عدت إلى مسكنى فى خطوات مترنحه، لا من السكر ، وإنما من ذكرى آثامى كلها، التى تمثلت أمام عينى كأنها أشباح ، ذات أنياب حمراء ، تحمل فى أيديها قطعا من النار تصبها على جسمى صبا ، فإذا أنا التهب وقد بلغت فراشى التهابا، وإذا أنا أحاول أن استغيث فلا يسعفنى الصوت بالاستغاثه . . .

. . . .

ثلاثة أسابيع قضيتها لا أكاد أذكر منهـا شيئا إلا أن هذه الأشباح الرهيبة ، التى كانت تلهب جسدى بالنار ، راحت تتزايد

حولى وتتكاثر فأصرخ لأبعدها ، وأصيح لاستعطفها ، ثم أبكى ولا أدرى سبباً لبكائى .

ولما أفقت فى اليوم الرابع ، وجدتنى فى غرفة خاصة ، بمستشفى الحميات بالعباسية، ووجدت بجانبى سيدى الحاج وخالتى شفيقة .. دامعة العينين .

ستة أسابيع قضيتها فى المستشفى بين الموت والحياة . ولست أنسى ما رأيته فى نهاية الأسبوع السادس وأنا بين الغيبوبة والصحو فقد خيل إلى أنى رأيت شبحاً نورانيا، فى ثياب بيضاء، يشيع الجلال والجمال من سماته ، يقترب منى فيقترب النور حولى ، ثم يبتسم فتضئ بسمته قلبى ، ثم يمسح على رأسى فى حنان ، فتفعم روحى بالسعادة والرضا ، ثم يقول لى بصوت ليس كمثله فى جماله صوت:

— لا تثريب عليك يا ممدوح ... لقد طهرتك الحمى ... قم ولا تيأس من روح الله ...

وغادرت المستشفى بعد ذلك بأسبوعين ، وقد تحسنت صحتى خلالها بشكل أذهل الأطباء ، ثم مضيت لقضاء شهر فى ضيافة سيدى الحاج .. وهناك سعدت بصحبة أخى ، وعطف خالتى شفيقة ، وحنان الطبيعة السخية بمروجها الخضراء ، وهوائها النقى، ومياهها الجارية ، وطيورها الشادية ، وظلالها الوارفة ، وجمال

ساعات الغروب ؛ وروعة لحظات الشروق . . .

وكنت خلال هذه الفترة ، لا أفترق عن كتبي ومراجعي وكراساتي ، استعداداً لامتحان الدور الثاني ـ بعد أن فاتني الدور الأول أثناء المرض . فهي معي ـ أي كتبي ـ بين المزارع ، وهي معي في غرفتي الخاصة بالمنزل أثناء النهار ، وهي معي ، ساعات طوالا أثناء الليل . ذلك أني كنت أرتعد خشية أن يضيع من حياتي الدراسية عام كامل . . . حقاً لقد فقدت الشيء الكثير من حماستي لبلوغ الهدف ، فلم يعد يهمني كثيرا ما سيكون من أمري بعد فراغي من مرحلة التلمذة ؛ ولكني مع هذا كنت اهتم كل الاهتمام للفراغ من هذه المرحلة ، حتى أتهيأ لما يكون في الحياة بعدها من خير أو شر .

وقبيل موعد عودتي إلى القاهرة بثلاثة أيام ، وبينما أنا ذات صباح في شرفة بيت سيدي الحاج ، أتأرجح على مقعد (هزاز) وأنظر في كتاب ، إذا بي ألمح سيارة فاخرة تقف أمام باب البيت ، ثم يهبط منهـــا سائق في ثياب زرقاء مزخرفة الأكمام بالوشي الأبيض ، ثم يفتح باب السيارة ، فتنزل منها سيدة بالغة الاناقة ، على رأسها قبعة كبيرة ، ومن وراءها رجل قصير ، كبير البطن ، يضع على عينيه نظارة سوداء ، وعلى مؤخرة رأسه طربوش .

ولما رفعت هذه السيدة رأسها إلى الشرفة ، إذا بي أنظر في وجه « أنسام » .

(١٨)

لست أدرى كيف استطعت أن أملك زمام نفسى، فأبدو أمام أنسام وزوجها، طبيعيا فى حركاتى وسكناتى، وتحيتى لهما، وترحيبى بهما... ولكنى كدت أفقد السيطرة على أعصابى، حين خيل إلى وأنا أنظر فى وجه ابراهيم بك أن هذا الوجه ـ فى صورة ما ـ ليس غريبا عنى... فأين ومتى رأيته.؟

وكانت أنسام تبدو باسمة أمام الجميع، ولكنى لم أدر هل كان الحزن العميق البادى فى عينها، من صنع خيالى أم هو حقيقة يراها الجميع...

ولما انتهت مراسم الاستقبال والترحيب، أويت إلى غرفتى، واستلقيت على فراشى، واطلقت زمام نفسى، فإذا أنا مضطرب أشد الاضطراب وأعنفه ـ لقد نكأت أنسام بزيارتها المفاجئة هذا الجرح الذى حسبت أنى أغلقت عليه قلبى. وكان يكفى أن استعيد فى ذاكرتى رعدة يدها وهى تحيينى، أو رعشة صوتها، وهى ترد على ألفاظ ترحيبى، أو نظرة الدهشة والسرور التى ومضت فى عينها حين رأتنى، حتى أحس كأن دماء الجرح فى قلبى تتجمع وتتصاعد إلى عينى دموعا...

ونظرت إلى كتبى التى ترمز إلى واقع الحياة ومستقبلى، وعدت

أنظر إلى نفسى وما يجيش بها من انفعالات تمثل الماضى ، ورفات الأمانى ، ثم قررت أن أسافر فى اليوم التالى هاربا من هذا الماضى، الذى تهاوى كسفا متشبثا بواقع الحياة ، وما فيه من مستقبل حزين أو سعيد . وزدت على هذا أن قررت تمضية بقية ذلك اليوم بعيداً عن البيت الذى يضم أنسام .

نهضت وارتديت ثيابا خفيفة، واحتقبت بعض كتبي،وتسللت من غرفتى فى هدوء ، وتركت كلمة مع الخادم « نفيسة » ، لتخبر من يسأل عنى،أنى ذاهب إلى العزبة لأ ستذكر دروسى فى هدوء .

وتحت شجرة الجميز ، على حافة القناة ، جلست فى مقعد مريح، وأخذت أجاهد لأركز أفكارى فى دروسى ، فكنت أنجح حينا ، وحينا يشرد الذهن بى إلى . . . إلى تلك الأيام القليلة التى أمضيتها مع انسام فى هذه العزبة ، وإلى ذلك اليوم السعيد الذى جلست فيه معها . . . فى هذا المكان ذاته ، تحت هذه الشجرة نفسها . . . وكأننا ملكان صغيران لا يعرفان من الحياة طهارتها ومن العاطفة غير نقائها ، ومن الحب سوى عذريته . . .

وكانت أم خضرة ــ قدصارت عجوزا وحيدة،بعدزواج ابنتها وانتقالها من القرية الى أخرى ـ تحمل إلى من دوار سيدى الحاج

القهوة والشاى بين الحين والآخر . اماطعام الغذاء فقد تناولت منه جزءا يسيرا .

ويبدو أنى اغفيت قليلا عند الاصيل فلما فتحت عينى خيل إلى أنى أرى منظراً عجيبا . . فقد كانت انسام آتية نحوى ، بمفردها .. ببسمتها الحلوة المشرقة .. بنظراتها المستضعفة، التى تشعر الرجل بجمال قوته والمرأة بسمو ضعفها .. بهذا النور الذى يحف بها ويتبعها اينما سارت .. بهذه الوداعة التى تجعل العشب يقبل قدميها كلما لمسته خطواتها الخفيفة الرشيقة . وأدهشتنى المفاجأة فلم أنهض لاستقبالها، بل ولم أجد غير الفاظ قليلة مبهمة اتمتم بها مرحبا وهى تقبل إلى وتجلس بجانبي فى صمت .

وتناولت عودا من القش وراحت تعبث به فى الماء كما فعلت ذات يوم سعيد ، ثم تمتمت فجأة بصوت متهدج :

ـــ لم أتصور يا ممدوح .. أنك .. أنك ستشقى ... ستعانى كل هذا من .. اجلى ولم أدر لماذا زممت شفتى .. هل خشيت أن أنسى رجولتى فأبكى أمامها ! . أم خفت أن تتعقد الكلمات فى فمى فأفىء وأتأتىء وأبدو أبلها ساذجا . أما هى فقد استأنفت حديثها قائلة :

ـــ لقد ذكرت لى « ماما » بعض ما كنت تتحدث به ... أثناء

مرضك . . أثناء غيبوبة الحمى . . . ولو كنت أعلم هذا . . .

ثم صمتت لجأة . . وبعد برهة قالت :

ــ ولكن لا . . . لو أنك فى موقفى .. فكيف كنت تتصرف؟

واخيراً استطعت أن اتمم :

ــ انّ كل ما ارجوه . . . يا أنسام . . . هانم . .. أن تكونى سعيدة فى حياتك ... الجديدة فاغضت ببصرها قليلا ، ثم غمغمت وهى تنتزع الألفاظ من شفتيها انتزاعا .

ــ أرأيت فى حياتك إنساناً سعيداً كل السعادة شقيا ــ فى لوقت نفسه ـ كل الشقاء ؟ !

ــ هذا غير ممكن . . . ؟

ــ ولكن هذه هى الحقيقة . . . معى . . . أكون عاقة جاحدة إذا لم أسعد لسعادة جدى ولهناءة ماما . . ولعلك رأيت كيف عاد جدى لجأة إلى قوته وو . . . وشبابه أيضا . . . فقد حقق أغلى أمنية له ، وهى ضم مزرعة الفاكهة إلى عزبته . . . وإن « ماما » برغم حزنها لما عانيت بسببى . . . سعيدة راضية. . . وهى تعتقد أن الحب بيننا من جانبك فقط وأن الأيام كفيلة بتحقيقه . . .

فقلت فى شىء من المرارة لم أستطع إخفاءها ــ إذن فما معنى الشقاء ؟ ؟

وبعد فترة صمت قصيرة قالت بصوت هامس :

ــ لهــــذا تبعتك إلى هنا . . كاد عقلى يذهب فى الشهرين الماضيين . . فرجوت زو . . ابراهيم « بك » أن يأتى بى لزيارة جدى « وماما » بضعة أيام . . ولقد سرنى أنى وجدتك هنا . . ولا أدرى ماذا كنت أفعل لو لم أجدك . فقد شاء القدر الرحيم أن يجعلك رفيق صباى و . . و وفى منزلة شقيقى قبل أن تكون . . حسنا . . فأنت الصدر الشفيق الذى أفضى اليه بهمومى . .

وتهدج صوتها فى العبارة الأخيرة حتى ظننت أنها ستنفجر باكية . ولكنها أمسكت عن الحديث برهة ، إلى أن استعادت هدوءها ثم سألتنى فجأة :

ــ ألم يخيل إليك أنك . . أنك رأيت زو . . إبراهيم بك . . . من قبل . ؟

ــ نعم . . نعم . . لقد خيل إلى أنى رأيته فعلا من قبل ولكنى لا أذكر أين أو متى ؟ !

ــ انه . . انه . . أبو على الخولى . .

---

(١٩)

حدقت طويلا فى وجهها المطرق وقد بدا لى أنها فقدت عقلها ولكنها رفعت عينيها وابتسمت فى حزن قائلة :

ــ لاعجب أن تدهش . . فمن كان يصدق أن « أبوعلى » الخولى الفقير المعدم، يصبح فى سنوات الحرب ثريا إلى هذا الحد، ولكن لا تنسى أن هناك عشرات أو مئات من الفقراء المعدمين، أصبحوا فى هذه الفترة العصيبة، من الأثرياء المعدودين . ولا أعلم حتى الآن الطريقة التى جمع بها ثروته ...

فهذا سره الخاص . . ولقد استطاع أن يحتفظ بهذا السر حتى فى أشد حالات سكره ...

سكره ؟ ؟

ــ نعم . . وسأذكر هذا فيما بعد . . أما الآن . . فقد تبين لى سبب إقدامه على الزواج منى، مضحيا بكل هذا المال . . ولعلك تذكر كيف كان ينظر إلى وهو يتحدث عن . . عن . . الثروة والسماء التى ستبتسم له ...

فأومأت برأسى وقد ذكرت ، كيف كان « أبوعلى » يختلس النظر إلى أنسام فى صباها ، وهو يتحدث عن الطبيعة ومظاهرها

التى ستبتسم له إذا أصبح ثريا ذات يوم .. ولا شك أنها كانت نظرات جائع محروم، إلى شهى الطعام ..

وعادت أنسام تقول بصوتها الخافت

لاشك أنه سمع بالثروات التى تنتظر المغامرين فى التجارة أثناء الحرب ، ولعله رآها فرصة سانحة ليجرب حظه ، ويبلغ من الثراء ما يؤهله للزواج منى ، ولقد أسعفه الحظ ... ولولا هذه المحنة التى ألمت بجدى لما رضيت بالزواج منه ... حتى لو ...

— كأنك عرفت أمره .. قبل الزواج .؟

— لا : انى .. أعنى لم أكن أرضى بالزواج منه أو من أى ثرى غيره حتى لو أعطى جدى مقدار وزنى ذهبا .

وتلاقت عيوننا حينئذ فى نظرة ليس إلى التعبير عنها من سبيل، وأعترف أننى أحسست بشىء كثير من العزاء والرضا ، ولا أظن أنى سأنسى كلماتها هذه يوما .. واستطردت فى حديثها قائلة :

— عرفت حقيقة أمره فى اليوم الثالث من الزواج .. وما أظن أحدا فى هذه النواحى، يستطيع أن يعرف أن إبراهيم «بك» هذا ، هو نفسه (أبو على) الخولى .. ومع ذلك فقد آثر الحرص والحذر فى مفاوضات مع جدى ، فلم يظهر فى البلدة غير مرتين أو ثلاثة .. قبل أن .. يمضى بى إلى القاهرة ..

ـــ وأين تقيمين هناك ؟

ـــ فى حى السكاكينى . . فى قصر كبير قديم ، ذى حديقة واسعة وسور مرتفع . . كأنه حصن . . . .

بمفردك معه ؟

ـــ نعم . . فيما عدا خادم نوبى عملاق ، وطاهية ، وخادمتين، وثلاثة كلاب وحشية شرسة، تنطلق فى الحديقة أثناءالليل فلايجرؤ أحد على الاقتراب من سور القصر الخارجى عند سماع نباحها

ـــ وكلهم يقيمون معك فى القصر . . ليلا ونهارا ؟

لا . . الطاهية والخادمتان ينصرفن كل مساء بعد تجهيز طعام العشاء . . أما الخادم النوبى العملاق . . فيبقى دائما، وهو أبكم ولكنه مرهف السمع . .شديدالوفاءلسيده شديدالعناية بالكلاب المفترسة . .

ـــ وهل تعنين أن القصر محصن بالسور المرتفع ، وهذه الكلاب

ـــ نعم . . يخيل إلى أنه يخشى عدوا جهولا . . فلو أنك رأيته كل ليلة فى حالة سكره . . يا إلهى ثم أخفقت وجهها بين يديها وراح جسدها يرتعد بعنف، فوضعت يدى على كتفهاوقلت بصوت حازم.

ـــ هل يؤذيك . .؟

فهزت رأسها وقالت :

ـــ لا . . أبداً . . ولكنى مع ذلك خائفة . . إلى حد الجنون

أشعر بجو الخطر يخيم على القصر ... أنهض كثيراً فى الليل مفزعة وأنا أشعر أن هناك من يراقبنى من حيث لا أراه ... بل إن هذه الرهبة لا تفارقنى أثناء النهار أيضا ... أكاد اتوقع أن أرى فى كل ركن بالقصر قاتلا ... أوما هو شر من القاتل :

وصمتت برهة ريثما تسترد أنفاسها ثم استطردت :

ـــ لعلك تسألنى عن السبب الذى يحتم على البقاء معه برغم هذا كله ... إن واجبى نحوه كزوجة رضيت الزواج منه بمحض اختيارها ، يحتم على البقاء معه والوفاء له ... وأنا لا أستطيع أن ألجأ إلى جدى أو إلى ... « ماما » فأخبرها بما أعانيه ... فلو أن جدى علم بتعاستى هذه ، لرد المال والأرض إليه ، ولاستخلصنى منه ولو بذل فى هذا السبيل روحه .. فأنت أدرى بمكانتى عند جدى .

فقلت أحاول تبديد أوهامها ـ لعلك تتخيلين وجود هذا الخطر . . . فإن هذا اللون من الحياة جديد عليك. ولقد اقتحمته على استعـــداد أو تمهيد . . . لقد مضى عليك الآن نحو سبعة شهور . . . وهى مدة قصيرة جدا فى عمر الزواج . ! ؟

ـــ لقد حاولت أن أعلل نفسى بهذه الخواطر المطمئنة . . . على غير جدوى . . . ولسوف ترى بنفسك . . .

ـــ أرى بنفسى ؟ !!

— نعم ... إنى فى حاجة إليك يا ممدوح ... وأنا أعرف أنك لن تتردد فى حمايتى ورعايتى وتهدئة هذا الخوف فى نفسى.. وأؤكد لك أن ابراهيم «بك» محتاج إلى شاب مثلك ينظم شئونه المالية ويشرف على تحصيل إيجارات أملاكه ... وهو يرحب بك أنت بالذات حتى تتم دراستك العاليه ...

لقد حدثنى عنك طويلا بعد أن عرف أنى كشفت حقيقة أمره ... إنه يحترمك ... ويحبك ...

ولا يفتأ يذكر أيامنا التى قضيناها هنا معا ... وسفره معك إلى القاهرة ... والشيخ إدريس الكاتب العمومى ، وعامل الفندق، وشراءكم الأثاث من شارع الأزهر ... والكتب القصصية التى كنت ترسلها هدية إليه ...

ورفعت أنسام وجهها وحدقت فى عينى طويلا وسألتنى فجأة :

— هل تخشى أن ... أن تقيم فى جناح خاص بالقصر ؟

— فى القصر معكم ؟ ؟

— نعم ... لماذا تدهش ؟

— لا لشىء ... ولكن ... أتحسبين «أبو على» أعنى ابراهيم «بك» كان غافلا عن مشاعرنا أيام صبانا ... ؟ !

— إنه يؤمن إيمانا تاما .. بطهارة نفسى .. ووفائى له كزوجة ..

ويعتقد أنك ... شريف أيضاً ...

فوضعت يدى على يدها وقلت متفلسفا :

وكيف يكون الحال ... لو ... لو نسينا ... الشرف ... فى ساعة ضعف . ؟ !

— ماذا تعنى ؟؟

— أعنى ... أن ما بيننا من ... حب ... قد يزداد ويتضاعف بوجودنا معا ... تحت سقف واحد ...

وماذا ... فى هـذا ... ؟ هل الحب ... حبنا هذا ... جريمة ... ؟؟ وهل هو مخل بالشرف ؟

— فى نظر بعض الناس على الأقل ...

— وماذا يهمنا من الناس ... مادمنا مع الله ... !

وخيم الصمت علينا فجأة ، فرحت أرقب الشمس وهى تنحدر وراء الاشجار عند الأفق ، وأخيرا هززت كتفى وقلت :

— إننى على استعداد لأبذل حيـاتى فى سبيل حمايتك ... ولكن أرجو أن تعفينى من الإقامة فى القصر حين يتبين لنا أن مخاوفك ليس لها أساس ...

وعندئذ رأينا إبراهيم «بك» ... الرجل الذى كان قبل ست سنوات (خولى) هذه المزرعة يقبل مع الحاج متحدثا معه حديث

الند للند . . . فقالت أنسام :

ـ سأتحدث معه الليلة فى هذا الشأن . . . وأؤكد لك أنه سيرحب بك كل الترحيب . . . وأرجو أن تبدأ حياتك معنا بعد فراغك من امتحان الدور الثانى . . . فما رأيك ؟

ولم يسعنى حينئذ إلا أن أوافق . . .

---

(٢٠)

كانت أنسام على حق فى كل ما حدثتنى به عن شعور ابراهيم «بك» نحوى . . . فما أن فرغت من امتحان الدور الثانى ، حتى أقبلت معه إلى حيث كنت أقيم فى غرفة بفندق متوسط . ذلك أنى كنت قد أخليت المسكن الذى أقمت فيه بضع سنين مع زملائى «البدور» ولقد ضمنى ابراهيم إلى صدره وأبدى لى من ضروب الحفاوة ، والترحيب بإقامتى فى قصره ، ما جعلنى اؤمن بأن رغبته فى هذه الإقامة أضعاف رغبة أنسام . . . ولقد قال فى هذا الشأن .

ـ ليس من السهل أن يجد الإنسان ياممدوح . . . افندى . . . صديقا مخلصا مثلك . . . فأين . . . أين تلك الأيام الخوالى . . .

وكنت كلما تأملت ملامحه هذه الجديدة التى انتفخت و تضخمت ، رأيت فيها أطيافاً من ملامحه القديمة : ملامح « أبو على » الخولى . . .

الشاب الذى كان وهو فى الخامسة والثلاثين يتفزز بالقوة الحيوية . أما صوته فقد تغير كثيرا كما تغيرت لهجة حديثه ؛ أما جسمه فقد بدا أشد قصرا بسبب البدانة والترهل الناشئين عن الكسل والترف . . .

وحملت كتبى وملابسى وحاجياتى ، وانطلقت معهما فى السيارة الفاخرة إلى القصر . وكان يقع فى شارع هادئ بحى السكاكينى ، بين بيوت كبيرة ذات حدائق وأسوار من الحجارة ، والقضبان الحديدية . وكانت بناية القصر ذاته مختفية ، وراء أسوار الحديقة العالية ، التى تنتهى بأسياخ حديدية مدببة متقاربة . ولقد أحسست بشئ من الرهبة ، التى حدثتنى عنها أنسام وأنا أدخل معهما إلى حديقة القصر المهملة . . . ولم أستطع تعليل هذه الرهبة . . . أكانت لمظاهر الإهمال البادية فى الحديقة الواسعة ، ام لمنظر القصر وطرازه القديم ، ونوافذه ذات القضبان الحديدية ، ام لنباح الكلاب الوحشية التى انطلقت تحي سيدها بمظاهر صاخبة ثائرة . . . أم لهيئة الخادم النوبى العملاق ذى الملامح الجامدة ، والعيون الجاحظة ، والقوة الهائلة ، أم للطريقة التى فتح بها باب الحديقة ، ثم اغلق وراءنا فى سرعة وهدوء . . .

كان كل شئ فى الواقع غريباً على شاب مثلى قضى حياته ـ حتى تلك اللحظة التى وطأت فيها أقدامه عتبة القصر ـ كما يقضيها أى

شاب عادى . . فهل قدّر لى أن ابدأ مرحلة جديدة عجيبة بدخولى الى هذا القصر القديم العجيب ؟ !

كان مكونا من طابقين . . فى كل طابق جناحان ، وفى كل جناح، بهو كبير تدور حوله غرفات تبلغ العشرة ؛ وكانت الأسقف مزّينة بالألوان والرسوم ، والجدران مطلية بالجص ، والأرضية مغطاة بسجاجيد ثمينة تغوص فيها الأقدام ، والسلالم من الرخام المجزع القديم ، والأثاثات تمتاز بكبر حجمها ونفاستها . ولكنى لم أر لوحات لصور فنية ، أو تحفاً ثمينة ، أو أزهاراً فاخرة، مما كنت أسمع أو أقرأ عن وجوده فى قصور الأغنياء المترفين . وكانت النوافذ فى جناح أنسام وزوجها محصنة بقضبان حديدية مزدوجة، ذات زخارف تُخفف من وقعها فى النفس . أما السجف الحريرية الثمينة الموشاة بأسلاك فضية وذهبية ، فكانت منسدلة على جميع النوافذ ،وأكثر الأبواب حتى بدا جو القصر من الداخل أشد رهبة ووحشة من الخارج ...

وكان إبراهيم « بك » يتحدث عن ذكريات الصبا،وهو ينتقل معى من غرفة الى أخرى فى جناحه الخاص .. ولقد هالتنى التحصينات القوية التى بدتْ فى كل ركن من غرفته ، كما ادهشتنى مجموعة الكتب — وقد عرفت أنها كلها روايات وقصص —

الموضوعة على أرفف بللورية بجانب فراشه الضخم . أما أنسام فكانت تنام فى غرفة مجاورة تمتاز بألوان من الترف والبذخ تفوق خيال طالب « فقير » مثلى .

وكانت بقية الغرف على شىء من الإهمال بسبب قلة الاستعمال . أما غرفتى الخاصة فكانت فى الجناح المواجه لجناح أنسام وزوجها بالطابق الثانى . وكانت على يمين الداخل الى البهو الكبير ، فلما فتحت أنسام بابها لى ، وقفتُ مدهوشا لا أصدق أنى سأنام على هذا الفراش الوثير ذى الأغطية والمفروشات الحريرية ، وأنى سأدوس فوق هـــذه السجادة التى تشبه حديقة فاخرة من الورود والأزهار ، وانى سأغوص فى هذه المقاعد المريحة الوثيرة ، وأنى سأستعمل خزانة الثياب وملحقاتها ذات الخشب الذى يلمع كالمرايا . . وازدادت دهشتى وروعتى حين دلفتُ منها إلى غرفة أخرى ملحقة بها ، خاصة بالمكتب وأدواته الفاخرة ، ولا ينقصها المقاعد الوثيرة ، والسجادة الثمينة ، وخزانة الكتب المصنوعة من زفائق الخشب المزخرف ، والواجهات والأرفف البللورية .

ولما خلوْتُ الى نفسى فى الغرفة الأولى ، وجدت ثيابى وحاجياتى قد وضعت فى أماكنها المناسبة من خزائن الثياب . أما

الذى بلغ بدهشتى حد الاستنكار ، كذلك حين دُعيتُ الى طعام الغذاء ، حيث رأيت مائدة الطعام فى البهو الكبير بجناح ابراهيم « بك » ، تنوء بصنوف وألوان تكفى لإطعام عشرين نفساً ... لا ثلاثة ... بل كانت أصناف الحلوى والفاكهة وحدها ، تكفى للانفاق على أسرة كاملة مدة أسبوعين . ولهذا لم أتمالك نفسى من تذكر أحاديث « البدور » الثلاثة عن حياة البذخ والترف والاسراف التى يحياها الأغنياء ... ولكن ... هل جميع « الأغنياء » ... هكذا .. ! ؟

وتضاعف استنكارى حين علمتُ فيما بعد أن إبراهيم « بك »، يطعم كلابه الثلاثة، بأكثر من نصف الطعام الذى يبقى منا . وأما الباقى فهو من نصيب الخدم جميعا ... يأكلونه أو يأخذونه إلى بيوتهم ....

وبعد أن استرحت ساعتين،عقب طعام الغذاء فى اليوم الأول قضيت مع إبراهيم « بك » فترة الأصيل إلى ما بعد الغروب فى تنظيم الأعمال التى عهد بها إلى .. فعلمت أنه يملك مبالغ ضخمة فى ثلاثة مصارف متفرقة .. وأربعة عمارات كبيرة فى أنحاء القاهرة، إيرادها جميعاً نحو سبعمائة جنيه فى الشهر ، ومائتى فدان بمديرية البحيرة . وكان على أن أتولى سحب ما يحتاج اليه من مال ، فى

المصارف كل شهر ، وأن أحصل إيجارات العمارات ، وأدع المتحصل فى المصارف ، وأن أشرف على تنفيذ عقود إيجار الفدادين . . .

وعقب صلاة العشاء ، غادرت القصر بعد أن علمنى الخادم النوبى العملاق «جوهر» ، كيف أطرق باب الحديقة طرقات خاصة ليفتح لى ثم رحت أتريض قليلا فى منطقة غمرة وأنا أتساءل فيما بينى وبين نفسى : من أين « لأبو على » أى إبراهيم « بك » هـذا الثراء كله ! وما معنى هذه التحصينات التى يحيط بها نفسه فى القصر ! وما هو نوع الخطر الذى يخشاه ! ؟ ولماذا رحب بى كل هذا الترحيب وإلام ستنتهى علاقتى به وبأنسام ؟

ولما لم أجد إجابة مقنعة على سؤال واحد منها، عدت أدراجى إلى القصر ، حيث وجدته غارقاً فى ظلام موحش وكأنه خال من السكان ولـكن ما أن طرقت باب الحديقة بالرموز المتفق عليها حتى شق سكون الليل نباح الكلاب الثلاثة المتوحشة .

ولم يلبث السكون أن ساد مرة أخرى حين سمعت وقع أقدام الخادم « جوهر » وهو يقترب من الباب . ولقد علمت فيما بعد أنه لم يفتحه لى ، حتى تحقق من شخصيتى من خلال ثغرات تفتح وتغلق فى الباب الحديدى الضخم .

(٢١)

ولما استرحت قليلا بعد رياضتي المسائية ، ذهبت إلى طعام العشاء ، وكانت المائدة هذه المرة حافلة كذلك بألوان وصنوف من الأطعمة الخفيفة . . ولكنها أقل الى حد ما من وجبة الغذاء . .

وجلست بناء على رغبة ابراهيم «بك» فى طرف من المائدة بجانب أنسام . . أما هو فقد جلس فى الطرف الآخر المواجه لنا ، وكانت أمامه كئوس فارغة وأوعية بللورية تحمل زجاجات الخمر وقطع الثلج . ولقد قال يعتذر عن شربه الخمر .

— لاتلمنى يا ممدوح أفندى . . فهذه إحدى آفات الثراء . . و . . والخوف . . ولكن لا تسألنى عن سر هذا الخوف . .

وبدأنا نتناول الطعام فى صمت ، وكنت أشعر بفقد الشهية بعد وجبة الغذاء الثقيلة ، بسبب الجو الغامض الرهيب الذى خيم علينا، ولكننى بقيت جالسا إلى المائدة حرصا على إرضاء مضيفى .

وكانت أنسام مثلى لاتكاد تأكل شيئا . . أما إبراهيم . . فكان يأكل حينا، ويشرب حينا، ويتحدث بين هذا وذاك . وكانت الغرفة مغلقة النوافذ والأبواب ، حتى لا يكاد يبين بصيص ضوء منها ، خارج القصر ، ولولا المروحة الكهربائية التى تحرك الهواء لازداد

شعـــــورى بالضيق والاختناق .

وبرغم هذا الطعام الذى يحلم به الجائع والمحروم ، فقد كنت أتناوله — كما ذكرت — بغير شهية ، وكنت من ثم أقول لنفسى « ماذا يكون من أمرى لو استمر الحال على هـذا المنوال شهرا مثلا . ؟ ! »

ولقد عرفت إجابة هذا السؤال بعد هذه الليلة بثلاثة أسابيع. فقد زهدت اللحوم على أنواعها المختلفة، ذلك أنها كانت الأصناف الرئيسية فى وجبتي الغذاء والعشاء كل يوم .. وبعد شهرين ، كنت أفضل عليها قطعة «مخلل» أو صحن « فول مدمس» أو وجبة عدس فى مطعم صغير نظيف .

ولقد بلغ زهدى من هذه الأطعمة الدسمة حدا جعلنى اشفق منها على « الأغنياء » ، تماما كما كنت اشفق لما يعانيه الفقير المحروم منها . ولقد تعلمت حينئذ أن الحياة تـكره الافراط والتفريط فى كل شىء . . فإذا كان الفقير يعانى من أمراض سـوء التغذية فإن الغنى يعانى كذلك من أمراض كثرة التغذية .

ولقد عبر إبراهيم عن هذه الناحية فى حديث من أحاديثه التى كان يلقها علينا كل ليلة ، حين تشعشع الخمر فى رأسه . ولقد بدأت سلسلة هذه الأحاديث ، منذ الليلة الاولى التى تناولت فيها العشاء

معه . . . وكانت أحاديثه هذه — برغم ما فيها من تكرار وثرثرة — لاتخلو أحيانا من حكمة و « تفلسف » ساذج بسيط . قال فى الليلة الاولى :

— الليل يا ممدوح . . الليل . . . إنه الوجه المظلم لمرآة الحياة .. والنهار وجهها المضئ ، الذى تنعكس عليه مظاهر الوجود ... إننا لا نرى فى الليل، كما نرى فى النهار . . ولهذا فان العدو يستطيع أن ينال منك فى الليل أضعاف ما يناله فى النهار . . وفى الليل يا ممدوح .. ينام الناس . . الناس الذين لا يحملون هموما فى الحياة . . أو الذين تبلغ همومهم حدا من التفاهة، لا تحرمهم من النوم الهادئ اللذيذ .. أما أمثالى . . فإن الليل عدوهم . . . فأنا لا أستطيع أن أنام كما ينام خالى البال . . ولهـــذا أفقد صوابى بهذه الخمر . . حتى أخدر حواسى بسمومها ، لماذا . . ؟ . . هاء . هاء . لأن لى سرا لا تسألنى عنه ... فماذا أفادنى الثراء . .

ثم أرسل ضحكة عالية جوفاء ترددصداها فى الجناح كله ، كأنما رددتها معه أشباح خفية . .

. . . .

وفى ليلة أخرى قال حين لمح زهدى فى تناول هذا الطعام الدسم :
أهكذا زهدت سريعا فى طعام يحلم به أكثر الناس ؟ ماذا أفعل

أنا إذن وقد مضى على أربعة أعوام ، أتناول منها كل يوم ألوانا مختلفة من الطعام والشراب التى كنت لاأحلم بها،فى أيامى الخوالى. ثم رفع كأسه بيد مرتعدة وجرع ما فيها دفعة واحدة وقال وهو يتنهد :

— آه . . أين لى بهذه الأيام . . أين لنا بمثل هـــذه الأكلة البسيطة الساذجة ، التى تناولناها معا فى دار أم خضرة . . أكلة العدس المطهو بالطمـاطم والزبدة . ، مع الجبن والبصل والخبز الوحواح ،ثم الشاى العربى اللذيذ فى نهايتها . ، مهمابذلت من مال فلن اشترى هـذا الجو السعيد ، الذى تناولنا فى مثل هذا الطعام . . فأين الفقراء الذين كنت مثلهم فى أيام شبابى ، ليتهم يحضرون ليروا بأنفسهم كيف أتحسر على أيامى الأولى ، وكيف استعين بالخمر على ازدراد هـــذا الطعـام . . . وكيف فقدت صحتى وشبابى وحيويتى ونشاطى . . آه . . لشد ما أتمنى لو أعيش عاما واحدا فقط . كما كنت أعيش وأنا (خولى) فى عزبة الحاج . . أعيش سعيدا بحريتى،معتزا بقوتى وشبابى ، فخورا بعملى واخلاصى ، ناعما بما فى الطبيعة من حنان وجمال وهدوء . . اين . . اين . هذا كله مما أنا فيه الآن . . إنى أتلفت حولى فى الليل يا ممدوح ، فأتوقع أن أرى أشباحا خفية تفزعنى وتفقدنى الصواب ، وأتوقع أن يبرز لى

من كل ركن عدداً من أعـــدائى .. لماذا ؟ لا تسألنى فهذا سرى الخاص ..

ومرة أخرى أرسلها ضحكة جوفاء تردد صداها فى الجناح كله كأنما رددتها معه أشباح خفية ...

. . . .

وفى ليلة ثالثة قال وهو ينظر الى أنسام بعيون حزينة

ـ ألم تعرفى بعد .. لماذا .. لماذا .. تزوجتك .. يا هانم.. ؟

وكان دائما يدعوها بهذه الكلمة المهذبة .. فلما نظرت إليه فى إشفاق وتساؤل قال :

ـ لأنى أحببتك ياهانم وأنا فى شبابى وقوتى ، فالشعور بالحب ككل شئ فى الطبيعة لايحفل بالفوارق الاجتماعية لذلك أحببتك برغم ثرائك وفقرى .. فلما تجمع المال بين يدى ظننت انى استطيع تحقيق أمانى كلها به ... ولكن .. ياللأسف... لقد حقق لى أمنية الزواج منك .. ولكنه عجز عن شراء حبك لى .. فالحب الذى لايحفل بالمال لاتشتريه أموال الدنيا كلها .

فاصطبغ وجه أنسام بحمرة قانية وتمتمت .

ـ هل .. هل قصرت فى واجبى نحوك كزوجة ؟

فرفع كأسه إلى شفتيه بيد تزداد ارتعادا ، وقال بعد أن جرعه دفعة واحدة :

ــ لا . . لا . . أبداً . . إنك مثال الزوجة المهذبة . . فأنت كريمة الأصل، طيبة الإعراق . . انك لا تقصرين فى حقى كزوجة، ولكن شتان بين زوجة تسعد زوجها لأنها تحبه ، وأخرى تؤدى واجبها فقط وهى . . وهى . لا تستطيع أن تحبه . نعم . . لا تحتجى . . فأنا لا ألومك . . اللوم كله على، فقد توهمت يوما أن المال يشترى الحب . . .

ثم أرسلها ضحكة جوفاء . .

. . . .

وفى ليلة أخرى حدق فى وجهى برهة ، وكانت الخمر لم تستبد به بعد ثم سألنى :

ــ ألم يخطر ببالك أبداً يا صديقى ممدوح أن الانسان . . فقط هو الذى يقيم للمال وزنا ؛ هو الذى يفرق دائما بين الغنى والفقير . . فيحترم الغنى ــ ولو نفاقا ــ ويتملقه وان كان يحسده، وفى الوقت نفسه يضيق بالفقير حتى ليرى أنه غير جدير بالبقاء فى هذه الحياة الدنيا . .

فقلتْ فى غير تفكير : لأن للانسان — دون غيره — عقلا يفكر به . .

---

(٢٢)

كانت الشهور التى قضيتها مع أنسام وزوجها فى قصرهما هذا ، حتى فرغت من الامتحان النهائى بنجاح ،زاخرة بالمشاعر والانفعالات المتضاربة فى نفسى ؛ هادئة حينا ، عنيفة أحيانا . فقد كان جو القصر الرهيب، يجثم على أعصابى كشئ غامض مبهم ، لاسيما حين يطول بى السهر فى الاستذكار . وكانت أحاديث إبراهيم « بك » ، التى يلقيها علينا بين الحين والآخر اثناء شرابه ، تترك أثرا عميقا فى نفسى يزيد من توتر اعصابى ، وكنت فى ليال كثيرة ، أقف فى نافذتى ذات القضبان الحديدية ، وأمد ببصرى الى المنازل المقابلة وقد بدت ، فى ضباب الليل ، كأشباح ضخمة لاتريم ؛ ثم اطلق لمشاعرى عنانها ...

فى تلك اللحظات ،كانت المعركة النفسية تتلظى و يضطرم أوارها فى أعماق قلبي ... وما أحسب أحداً يلقى من العذاب والألم النفسى ما يلقاه السجين الذى يستطيع الفرار من سجنه ، ولكنه يأبى بدافع الشرف والكرامة أن يفر . فها أناذا فى قصر

واحد مع أنسام ... أنسام حبيبة القلب والروح ... أنسام التى دفعنى حبها ، وأملى فى الزواج منها ، إلى كبت عواطفى ، ووأد شبابى ، وتجاهل نداء جسدى ، وشق طريقى فى الحياة بجسم شاب وعقلية شيخ . أنسام هذه فى متناول يدى استطيع فى أية لحظة من لحظات هذا الليل الطويل أن أمضى إلى غرفتها الخاصة ، أو أغريها بالمجىء إلى غرفتى هذه ، فأضمها إلى صدرى ، وأضع حدا لهذه المعركة النفسية التى كادت تدمر اعصابى وتتلف قلبى ...

ولكنى كنت أحـــدث نفسى حين تهدأ ثورة العاطفة المشبوبة فأقول :

« إنك حين تضع حداً للمعركة المشبوبة فى وجدانك ، ستشعل نار معركة أخرى أشد وأقصى ... الشرف والضمير والإنسانية معركة تسمع خلالها وفى كل لحظة بعدها من يهتف بك (كيف تستبيح لنفسك خيانة رجل كان صديقا ودودا فى صباك . ثم انك الآن على زوجة وماله وبيته ... وكيف ترضى لحبك أن يهبط من سماء الروح الى أوحال الجسد ؟ وكيف تستطيع بعد ذلك أن تبادل أنسام هـذه النظرات المفعمة بالحب الطاهر والاحترام العميق والاكبار الشديد ، وأهم من هذا كله كيف تقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ، وأنت تعصاه فى كل لحظة من لحظات اليوم ،

ثم أخـــيرا كـيف تتفتح نفسك ... فى كل ليلة ... لدعاء الفجر ... ؟؟ »

وتهدأ نفسى بعد هـذا الحديث الهامس ، هدوءاً تاما ... ثم أعود فأذكر ما كنت ألمحـــه فى الاسابيع الأخيرة على وجه أنسام ، وفى أعماق عينيها ، وفى نبرات صوتهـا حين تتحدث إلى .. كنت أرى بوضوح ما ينبىء عن هذه المعركة التى تضطرم فى نفسها أيضا .. بل لم أكن اشك فى أنها كانت مثلى تقضى ليالِ كثيرة واقفة فى نافذة غرفتها ، تفكر فيما بيننـــا من حب وحرمان ، ثم تحاول مثلى أن تهدئ ثورة العاطفة المشبوبة التى لا يخلو منها قلب بشر فى حالة كهذه .

وفى ليلة من هذه الليالى ، بعد نجاحى بشهرين ، كنت فى النافذة استعرض فى ذاكرتى ما يمر على خلال إقامتى فى هذا القصر .. لقد حاولت كثيراً أن أعيش فى مسكن خاص، حتى يتم تعيينى فى وظيفة حكومية ، أو حتى أمنح إحدى الإقطاعيات الزراعية التى خصصتها الحكومة لأوائل الناجحين فى ذلك العام . ولكن إبراهيم « بك وأنسام » أيضا أصرا على بقائى معهما حتى يتم أحد الأمرين بصفة نهائية . وكنت فى الواقع أريد بل أتمنى لو بقيت معهما إلى غاية العمر . ولكنى كنت فى الوقت نفسه ــ أخشى أن أضعف

يوماً أو أن تنتصر على رغبات الجسد فى آخر الأمر .. كما انتصرت ذات مرة فى العام السابق .

فى تلك الليلة أزمعت على مغادرة القصر فى خلال أسبوع واحد، لأبدأ مرحلة جديدة من حياتى .. مرحلة العمل فى سبيل رزق مستقر ، ولإنشاء أسرة اسعى لها ، واسعد برعايتها .

ذلك أنى تبينت فى الشهور الأخيرة أن قربى من أنسام يجعل من حياتى فى القصر لونا من الأوهام والخيال المضطرب. فقد كان عذابى بالحرمان منها ، اضعاف متعتى برؤيتها مرة أو مرتين فى اليوم .

وكان تفكيرى الدائم فيها يغلق عقلى بضباب خفيف يفقدنى الإحساس الكامل بجمال الحياة. أما إذا ابتعدت عنها، وانقطعت صلتى بها بضعة شهور أو بضع سنين ، فان الأيام مع الإرادة القوية كفيلان بوضع حبها فى زاوية صغيرة من قلبى ، فما أنا أول أو آخر محب عبثت الأقدار بغرامه الأول .

واطمأنت نفسى إلى هذا الرأى وأيقنت أن الإنسان هو الذى يصنع مشاعره بنفسه ، وهو الذى يجعل فكرة ـــ أية فكرة ـــ تستبد بذهنه ، وتسيطر على إرادته وتكون مشاعره على الوضع المناسب لها ، فلو أنى لم أوافق فى أول الأمر ، على الإقامة فى هذا القصر مع

انسام وزوجها ، لكنت قد شفيت فى تلك الشهور من جراح قلبي تماما ، ولكنت قد انطلقت بعد النجاح إلى تهيئة نفسى للمرحلة الحاسمة فى الحياة . . مرحلة الرجولة وتحمل التبعات . .

وأغلقت النافذة ومضيت إلى فراشى لأندس فيه ، مطمئن النفس هادئ البال . ولم أكن بحاجة إلى إطفاء النور الكهربائى . فقد كان إبراهيم «بك» يرجونا دائماً ألا نضيء أى مصباح أثناء فتح النوافذ ليلا ... حرصا على سلامتنا

وفيما أنا أتقلب فى فراشى ، وقد تحولت أفكارى مرة أخرى إلى إبراهيم «بك» وإلى هذا الخطر الخفى الرهيب الذى يهدده ، ويتهددنا معه ، إذا بى أسمع صرير الباب الحديدى الضخم الذى يفصل جناح إبراهيم وأنسام عن بقية القصر ، ثم إذا بى أسمع نقراً خفيفاً على الباب الخارجى للجناح الذى أقيم به . وخطر لى فورا أن أنسام هى الطارقة ، وأنها تهاوت أخيراً ، تحت ثقل مشاعرها الثائرة . وعندئذ أحسستُ كأن ينابيع من الحمم قد تفتحت فى جسدى ثم غمرتنى رعدة عنيفة جعلتنى أهتز وأترنح أثناء مسيرى نحو الباب . وكنت أشعر وأنا أعالج فتح باب البهو ، كأنى مسلوب للرشاد والإرادة ، أو أنى فى حلم عجيب وأنا أسمع أنسام تهف بصوت هامس :

— إفتح يا ممدوح ... أسرع .. أرجوك .. يا إلهى ...

ثم تنبهت فجأة من هذه الغشية التى شملت ذهنى ، وأسرعت بفتح الباب ، وقد خطر لى أن ابراهيم ، أصيب بنوبة مرض مفاجئ. وعندئذ ألقت أنسام بنفسها بين ذراعى هامسة ، وجسمها ، يرتعد بعنف

— إغلق الباب ... أسرع ...

فأغلقته وقلت وأنا أحملها إلى مقعد مريح فى غرفتى :

— ماذا حدث ... هل ابراهيم ...

فوضعت وجهها بين يديها وهمست بأنفاس لاهثة .

— لا .. لا .. ولكنى أشعر بخوف وفزع ... لقدخيل إلى وأنا واقفة فى نافذة غرفتى ، أستروح نسائم الليل ، أنى رأيت ... رأيت أشباحاً آدمية تبدو وتختفى فى الحديقةالخلفية ..

وقبل أن تتم حديثها ، إذا بنباح الكلاب الوحشية يشق سكون الليل رهيباً مفزعاً ، وإذا بصيحات خافتة مكتومة تتخلله ، فلما أسرعت إلى النافذة أنظر منها هالنى مارأيت ...

رأيت فى خلال الليل ، المخيم على الحديقة الأمامية ، أشباح رجال طوال فى ثياب سوداء . يتواثبون فى عراك دموى عنيف مع الكلاب الثلاثة والخادم النوبى العملاق «جرهر» .

وكانت المعركة تدور فى صمت نسبى، إذا استثنينا نباح الكلاب، والصيحات الخافتة، التى يرسلها الرجال المهاجمون ...

كنت أرى الكلب الوحشى يهجم على الرجل منهم كأنه إعصار، فيلقيه أرضاً ويجثم فوقه مدمدماً ... ولكن يد الرجل كانت ترتفع فى الظلام بخنجر، يلمع برهة قبل أن يغيب، فى جسد الكلب ... وكان الخادم العملاق يثب هنا وهناك، ضارباً بخنجره المهاجمين كأنه يبارز جمعاً من أبالسة الجحيم.

وتراجعت مسرعا من النافذة، واختطفت الهراوة الثقيلة التى كنت أحتفظ بها فى غرفتى، وتوجهت إلى الباب لأسرع إلى نجدة جوهر ... ولكن أنسام تعلقت بى هامسة.

— إلى أين ... ؟

— إلى نجدة جوهر ...

— ولكنهم سيقتلونك حتما ...

— ولكنهم لن يقتلوا ابراهيم على كل حال ...

— بل سيفعلون ... لقد رأيتهم معك من النافذة وهم يقاتلون كالوحوش... لاشك انهم جاءوا مستميتين لقتل إبراهيم ... ويكفى أنهم قطعوا الاسلاك التليفونية ... فقد حاولت الاتصال بنقطة

البوليس على غير جدوى ... لاشك أن هذا هو الخطر الذى كان يخشاه ...

— لن أدعهم يذهبون إليه إلا فوق جثتى ... لن أنسى صنيعه معى ، وثقته بى وضيافته لى ...

— وأنا يا ممدوح ماذا أفعل بعـــدك ... فلولا وجودك بجانبي لمت حسرة وكمدا بربك ...

ولما خشيت أن يستغرق الحديث معها دقيقة أخرى ، حملتها عنوة إلى غرفة مكتبى ، وأغلقت عليهـا الباب ، وكذلك أغلقت باب الغرفة الخارجية والجناح ، وانطلقت واثباً على السلم وقد دوت فى مسامعى صفارات رجال البوليس، ومحاولتهم تحطيم باب الحديقة للدخول...

وما أن بلغت باب القصر المفضى إلى الحديقة ، حتى رأيت جوهر يهوى صريعا تحت ضربات أربعة رجال ملثمين ؛ ولمحت على الأرض جثث الكلاب الثلاثة بعضها ميت وبعضهـا يلفظ أنفاسه الأخيرة فى حشرجة مفزعة . ورفعت الهراوة عاليا وأرسلت صيحة مجلجلة ، وشعرت بأن قوى العالم كله قد انثالت فى جسدى ، وانى لم أعد ذلك الشاب الحى الخجول الوادع ،

وإنما أصبحت لا أدرى كيف ، شاباً آخر بل ماردا لا يرى امامه غير الدماء والقتال .

وثبتُ على أول رجل اعترض سبيلى ، وأهويت عليه بالهراوة فسقط وسقطت معه أتدحرج على الأرض ، ولكنى وثبت واقفاً كأنى كرة من المطاط قبل أن يغمد الرجل الثانى خنجر فى جنبى ، ثم دفعت بالهراوة فى وجهه . فسقط وهو يكتم صيحة ألم رهيب . وعندئذ رأيت الرجلين الآخرين يهجمان على كالوحوش الضارية وقبل أن أرفع يدى مرة أخرى ، إذا بشىء كالسيخ المحمى فى النار يخترق ظهرى عند الكتف وإذا الهراوة تسقط من يدى فأسقط فوقها . وقبل أن أفقد صوابى سمعت هذا الحوار القصير .

— أهذا إبراهيم . . . الخائن الفاجر . . . ؟

— لا بل هو أحد الخدم . . . أنحر رأسه . . . ؟

— ليس الآن إن الشرطة ستقتحم المكان بعد هنيهة . . . أسرع بنا . . . ما نريد إلا رأس إبراهيم

---

(٢٣)

حين فتحت عينى ، وجدت نفسى راقداً فى مستشفى القصر العينى ،

وفى هـــذا المستشفى قضيت شهرا ونصف الشهر لعلاج الجرح الذى مزق عضلات الـكتف . ولقد أدليت بأقوالى للمحققين فى هـذه الفترة كما رأيت من عجائب الحياة فى المستشفى ما يحتاج سرده إلى مجلد ضخم .

أما ابراهيم بك فقد استطاع القتلة أن يبغلوا مأربهم منه بطريق غير مباشر ... فبينما كان أثنان منهم يحاولان تحطيم باب غرفته المحصنة بوسائل عنيفة ، أطبق عليهما رجال البوليس ، واقتاداهما إلى المخفر . وهناك تبين أن المهاجمين كانوا ستة رجال من أعراب البادية بمديرية الشرقية ، مات واحد منهم ، وجرح ثلاثة بجراح خطيرة ، وظل اثنان على قيد الحيـاة بغير جراح . وأما الخادم المخلص «جوهر» فقد مات ، وجرحت أنا . وتوفى ابراهيم «بك» بالسكتة القلبية التى تسببت عن الرعب الشديد .

فلقد فتح رجال البوليس غرفته الخاصة عنوة بعد أن يئسوا من إغرائه بفتحها . حيث وجدوه راكعا فى ركن منها ... جثة هامدة . . . وبين يديه بندقية مصوبة نحو الباب . . .

وكانت خالتى شفيقة وسيدى الحاج ومعهما أخى أحمـــد ، يترددون على بالمستشفى ، كلما سمحت لهم الظروف بالزيارة . أما أنسام ، فقد علمت من أحاديثى معهما أنها لاذت بالحياة فى العزبة

بعد أن أدلت بأقوالها للمحققين ، حيث تحاول أن تسترد هدوء أعصابها وأن تتغلب على وقع المأساة العنيفة التى تكشف التحقيق عنها

ونُظِرتْ القضية بعد مغادرتى المستشفى بنحو أسبوعين ، فتبين من أقوال الجناة ، وأدلة النيابة ،أن إبراهيم كان يرأس عصابة لتهريب المخدرات بمديرية الشرقية ، مستعيراً لنفسه إسم « حنفى أبو دومة » وأن أفراد العصابة كانوا من اعراب هذه المديرية ، وأنهم جميعاً كانوا يستعينون على تهريب المخدرات ببعض جنود الحلفاء لا سيما جنود المستعمرات . فكان الجنود يعبرون الحدود بسيارات حربية تحمل شحنات المخدرات،لقاء أجر معلوم . وكانت العصابة عدا هذا ، تتجر فى المهمات المختلفة التى يسرقها الجنود وبعض حراس المخازن من المعسكرات الحربية ، ولقد دهش الجميع حين قال أحد المتهمين، إن بعض حراس المخازن كانوا يبيعون للعصابة سيارة اللورى المحملة بطنين من مختلف المواد بثمن يتراوح بين خمسين وثمانين جنيها .

ولما كان أفراد العصابة جميعا من ذوى السوابق والهاربين من أحكام مختلفة ، فقد جعلوا إبراهيم أميناً على الأموال الزائدة عن حاجاتهم ، ليودعها فى المصارف بإسمه .

وسارت الأمور على هذا النحو ثلاث سنين ، ثم إذا إبراهيم

يختفى من بينهم ، وإذا هو ينقل الأموال إلى مصارف أخرى باسمه الحقيق . وفى خلال عام استطاع أن يضللهم بعد أن إزداد وزنه وبرز كرشه واستبدل بثيابه الريفية أخرى افرنجية ، وجعل على عينية نظارة سوداء. ثم اشترى هذا القصر ذا الحديقة الواسعة، وحصنه بعناية . أما جوهر فقد كان تابعه الخاص الذى لم يفارقه منذ بدأ مغامراته فى التهريب ، ولهذا كان يلازم الحديقة دائما فلا يبرحها حتى لا يراه أحد أفراد العصابة ، فيهتدى۔ عن طريقه ۔ إلى موضع سيده .

ولكن إبراهيم كان يدرك دائما أن زملاءه الذين غدر بهم من هؤلاء الرجال الذين يبذلون أرواحهم رخيصة، للأخذ بالثأر وأنهم لهذا ، لن يكفوا عن مطاردته حتى يوقعوا به ،لا ليحصلوا على ما اختلسه من أموال – بل ليشفوا غليلهم من دمائه . .

وكانت هذه المآسى — أو المخازى — صدمة عنيفة لأنسام ، جعلتها تنطوى على نفسها، فى عزبة جدها فلا تزور أحداً ولا تسمح لأحد بزيارتها — حتى أنا . هذا وقد سجلت تنازلها الرسمى أثناء نظر القضية ، عن كل ما يخصها من مال أو عقار فى تركة زوجها .

أما سيدى الحاج فقد كان الحزن يستبد به كلما ذكر أنه زوّج حفيدته من مهرب مخدرات كان يشتغل (خوليا) فى عزبته . .

وأنه أنقذ نفسه من الإفلاس بمال تلوثه دماء ضحايا المخدرات.

ولكن أحزانه لم تلبث أن تلاشت تماما حين استطاع بعد تسعة أشهر، أن يتبرع بضعف المبلغ الذى حصل عليه من إبراهيم، للترفيه عن جنود الجيش المحارب فى فلسطين .. ولقد تسنى له هذا بعد أن ربح من تجارة القطن خلال شهرى يونيه ويوليه من هذا العام، ما عوض عن خسائره فى سبعة أعوام سابقة...

---

(٢٤)

بعد انتهاء النظر فى قضية ابراهيم مباشرة انضممت إلى صفوف المتطوعين للجهاد فى فلسطين قبل دخول الجيوش النظامية بثلاثة شهور ولقد تعلمت فى هذه الفترة اسمى وأروع درس يتلقاه الانسان فى أشرف ميدان

وقد سقطت جريحا برصاصة نفذت من بطنى واستقرت فى إحدى فرات سلسلتى الظهرية

...... ثلاثة أشهر قضيتها فى المستشفى العسكرى بالحلمية منها شهران قضيتهما فى غيبوبة دائمة لم أر خلالهما شيئاً من مظاهر حياتى المادية، ولكنى أذكر أنى رأيت فى لحظات خاطفة منهارؤيا كالتى يراها الانسان فى نومه.. فكنت حيناً أرانى فى طريق تكتنفه الظلمات؛ فى نهايته البعيدة.. البعيدة.. قبس من نور

خفى . . وإذا أنا أسير بين السائرين نحو هذا القبس المنير . . أترنح وألهث بالتعب الشديد ؛ وأمسح العرق عن جبينى؛ ثم أقف أستريح فإذا نظرت الى من حولى رأيت بعضهم يسقطون ويختفون فى الظلمات : منهم من يبكى ؛ ومن يضحك ساخراً ومن يبتسم مطمئنا ومن يبسط ذراعيه إلى قبس النور . البعيد . . البعيد . .

وكنت أشعر وأنا أسير بشبح غامض يسير بجانبى . . شبح فتاة أو شبح امرأة . . يمدنى بالقوة كلما دب إلى نفسى الضعف ويمدنى بالأمن كلما ناوشتنى المخاوف . . .

وفجأة رأيت نفسى أسير وحيداً . . ليس بجانبى هذا الشبح الغامض الذى يمدنى بالأمن والقوة وإذا أنا أسقط بين الذين يسقطون . . وإذا أنا أدخل فى ظلمة كثيفة ، ثم أنفذ منها خفيفا طليقا إلى عالم عجيب ، تحف به الأنوار ويشيع فى أجوائه شذى العطور ، وتتبدى لى بين الحين والآخر . أطياف باسمة هانئة . . فإذا بى أرى فى هذه الأطياف وجوها مختلفة ممن عرفت فى هذه الدنيا . . وجوه أمى وأبى . . وستى الحاجة . . وعم عبد الله المقعد العجوز وشاكر . . وشافعى .... ولكن . . ماذا حدث ... ؟ لقد عدت مرة أخرى إلى الظلام ثم إلى الضباب . . ثم إذا أنا أسير مرة أخرى فى الطريق الذى تكتنفه الظلمات وبجانبى أنسام

ولما فتحت عيني أخيرا . خيل إلى فى بادئ الأمر أنى راقد فى سريرى .. فى غرفتى بالفندق ؛ أو فى غرفتى فى مسكن زملائى « البدور » أو فى غرفتى بالقصر الذى يخيم عليه جو من الدهشة والخوف — ثم تبين لى أخيراً أنى فى سرير بالمستشفى العسكرى وأن هذه الحسناء الجالسة بجانبي إحدى الممرضات المتطوعات ...

وقالت الفتاة وهى تنحنى على باسمة :

— ممدوح .. ؟

— نعم ...

— الحمد لله . . لقد تنبهت أخيرا . . مبروك . .

. . . .

ولما حركت جميع أعضاء جسمى دون ساقى ، قالت لى وهى ترى ما ران على وجهى من دهشه وتساؤل .

— لقد كتب لك عمر جديد . . أجريت لك ثلاث عمليات جراحية . . توقف قلبك فى إحداها مدة دقيقة كاملة . .

— ولكن ساقىّ . . ؟

فمسحت على رأسى وتمتمت بصوت يسيل رقة وعذوبة :

— إن جندياً مثلك ... لن يضيره ان يبقى . . بضعة شهور . . لا يستطيع تحريك ساقيه . . تشجع ثم التفتت إلى باب القاعة وأردفت :

— هاهى ذى زميلتى انسام شاكر آتية لتستأنف عنايتها بك ...

الخاتمـــة

غلائل الليل الرقيقة ، التى تسبق الفجر ، تظلل كل شىء خارج النافذة.. وأنا . . وأنا وحدى جالس فى غرفة مكتبى، بدوار سيدى الحاج فى عزبته . . إن القلم يرتعد فى يدى،وأنا أخط هذه السطور الأخيرة من قصتى . . وانى لأمسك من ثم عن الكتابة برهة ، ثم أنظر من النافذة إلى الحقول النائمة فى أحضان الليل ، وإلى السماء الحانية عليها وقد اختفت النجوم الساهرات من صفحتها ،لتستريح وإلى شبح شجرة الجميز العتيقة القائمة على حافة القناة وقد ضمت أغصانها فى حنان ، على أوكار الطيور الهاجعة .

وأعود أنظر إلى مكتبى ... إلى هذه الصفحة الأخيرة من قصتى . . هذه القصةالتى تسليت بكتابتها بعد خروجى من المستشفى العسكرى . .إن الخواطر تزدحم برأسى، وأن زمامها يكاد يفلت من يدى وإنى لا أدرى كيف أصف شعورى يوم تم زواجى من أنسام فى حفل هادىء ويوم انتقل أخى أحمد إلى السنة الرابعة الابتدائية ويوم تقرر منحى إقطاعية زراعية،لأبدأ العمل فيها عقب تمام شفائى . .

لقد تعبت من الكتابة الآن . . أريد أن أضع القلم من يدى، وأتنهد فى ارتياح،وأحرك مقعدى ذا العجلات إلى مخدعى ، حيث

استغرق فى نوم عميق ، أنهض بعده إذا أراد الله ـ لأستقبل يوما جديدا . . بهيجا . .

وعندئذ سمعت أنسام تقبل إلى غرفتى هذه ، ثم إذا هى تهمس بصوتها الرقيق وقد جعلت يدها على كتفى .

ـ ألم يفرغ الكاتب بعد . . من قصته ؟؟

ـ لم يبق إلا سطر . . أو اثنان ... لأختمها .. ولا أدرى كيف أفعل . .

فانحنت برأسها حتى لمس شعرها الناعم المنهدل هذه الصفحة الأخيرة ، وابتسمت فى عينى وقالت :

ـ لماذا لا نختمها معا ... بقبلة .. بقبلة منا إلى . . إلى الدنيا كلها ؟ . .

فهززت رأسى وقلت :

ـ إن القبلة ختام القصص الخيالية . . أما . .

وعندئذ سمعت ما جعلنى أضع القلم بعد ثوان معدودة . . سمعت هذا الدعاء العذب الجميل الذى يسبق أذان الفجر ، يردده مؤذن المسجد بصوت يزيده سكون الليل عذوبة وجمالا .. ووضعت القلم أخيرا وصدى هذه الكلمات يتردد فى جوانب نفسى :

« سبحان الله . . والحمد لله . . »

صدر من كتب الادب فى مجموعة الالف كتاب
(أدب عام ، تاريخ الأدب ، نقد ، شعر ، قصص)

١ — كفاح تأليف ج . جالسورثى
٢ — كفاح الأحرار تأليف ليام أوهارتى
٣ — الأحمر والأسود تأليف ستاندال
٤ — الحاج مراد تأليف تولستوى
٥ — عذراء اللورين تأليف ماكسويل اندرسن
٦ — أساطير من الأمم المتحدة تأليف فرانسيس فروست
٧ — الأدب المقارن تأليف م . ف . جويار
٨ — القوة والمجد تأليف جراهام جرين
٩ — توم سوير تأليف مارك توين
١٠ — رحلة الى الهند تأليف ا . م . فورستر
١١ — أعلام الفن القصصى تأليف ه . ل . توماس
١٢ — بين العمل والأمل تأليف جنى لى
١٣ — مكتب البريد تأليف طاغور
١٤ — الأشباح تأليف هنريك ابسن

١٥ — مختارات من المسرحيات القصيرة

١٦ — مختارات من القصص الانجليزية القصيرة

١٧ — تاريخ الأدب اليونانى للدكتور محمد صقر خفاجه

١٨ — تاراس بولبا تأليف جوجول

١٩ — روايات وقصص من العهد الفرعونى

٢٠ — الزوجة الأولى تأليف بيرل بك

٢١ — ايسوب تأليف ا . د . ونتل

٢٢ — دنيا المصالح تأليف خسنتو بنفنتى

٢٣ — الرجل الذى لم يوجد تأليف ايوين مونتاجو

٢٤ — عشر مسرحيات قصيرة

٢٥ — الجريمة والعقاب (ج ١) تأليف دستوفسكى

٢٦ — مسرحية الشعله تأليف فلامبير

٢٧ — رحلة العمر تأليف الصاغ كمال مشهور

٢٨ — اشهر القصص الفنية تأليف لين يوتانج

صدر عن

مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

من كتب الألف كتاب

١ — بلاد مابين النهرين — ترجمة محرم كمال

٢ — فى الفن المسرحى — ترجمة درينى خشبه

٣ — دعاء الفجر — تأليف حسين محمد القبانى

٤ — عبد الله النديم — تأليف محمد عبد الوهاب صقر وفوزى سعيد شاهين

استـــدراك

صحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١١[illegible]	١٧	الوحل	الزحل
٢[illegible]	١٣	يأتون	يأتمرون
٣[illegible]	٣	صفاوتها	حفاوتها
٣[illegible]	١٦	أرد	أزر
٣[illegible]	٣	أبي	زوجة أبي
٣[illegible]	١٣	الطريق	الطرق
٣[illegible]	١٠	العض	المغضن
٤[illegible]	٨١	رحيم	رخيم
٤[illegible]	٨١	يفضى	يقص
٥[illegible]	٢	ربما	ريثما
٦[illegible]	١٤	الغامر	الضامر
٨[illegible]	٢	يتهادى	يتهاوى
٩[illegible]	٢	أنعم	أفخم
٩[illegible]	١٧	العراء	العرايا
٩[illegible]	٥١	سطورها	سطوره
١١[illegible]	٦	المجهوله	المهولة
١١[illegible]	١٥	وتفرج	تفرخ

صحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٨	١٣	المحشات	المتحـ[illegible]
١٢٥	٢	شكرت	[illegible]
٣٦٦	١	معرفة	[illegible]
١٧٤	٧	يطرب	[illegible]
٢٠٠	يضاف آخر الصفحة		[illegible]
٢٠٦	١	ليطمئن قلبى	[illegible]
		وأدعو	[illegible]
٢١٠	٩	فى حوالى	[illegible]
٢١٩	١٠	القومية	[illegible]
٢٣٨	١٧	ربع ساعة	[illegible]
٢٤٩	٢	نكس شعره	[illegible]
٢٥٠	١	لكى تحزم فيها	[illegible]
٢٥٦	٦	الاختلافات	[illegible]
٢٨١	١٢	مجموعة	[illegible]
٣٠٣	١٠	العنيقة	العميقة

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

